وَطَري

- رواية -

حنين شريف الدسوقي

وطري

(1)

من داخل الغابة، تركض بسرعة خاطفة فوق صهوة جوادها، متخبطة بالأشجار الكثيفة. وما لبثت أن توقفت عن العدو، حتى استقرت في إحدى المناطق التي بدت مألوفة لديها.
فترجلت عن فرسها حاملة قوسا وكنانة خلف ظهرها، ثم ربطت الفرس بشجرة، وطفقت تجهز قوسها وسهمها، لتبدأ في تتبع الطيور والحمامات بعينيها المكحلتين.
وسرعان ما عثرت على واحدة منها، فجذبت القوس ومن ثم صوبت تجاهها، وقد أصيبت الحمامة وسقطت على الأرض.
ابتسمت ابتسامة خفيفة واضحة من أسفل غطاء وجهها الشفاف، فوضعت قوسها أرضا وذهبت لالتقاط فريستها، لكن عندما وصلت حيث توجد الحمامة فوجئت بصوت مريب من ورائها يهمس: مرحبا أيتها الفتاة.
استدارت تلقائيا لتجد بعض قاطعي الطرق مصطفين أمامها وكانوا ستة رجال، صاح أحدهم: . يبدوالأمر مسلٍ اليوم.
ضحك الباقية معلقين: أجل.. أجل.
عندئذ لم تتردد في سحب سيفها من غمده، ليتبعها آخر قائلا باستهزاء: انظروا إنها تسحب سيفها لنا.
يضحك هؤلاء الحمقى مرة أخرى، ثم اقترب الرجل نفسه منها وقال: لا بأس.. أعرف كيف أتعامل معها.
ولكن.. بمجرد أن كان سيلمس جسدها، حتى قامت بركله ركلة قوية جعلته يرتمي أرضا، ومن ثم قامت بسرعة بتوجيه سيفها أسفل ذقنه.
وهنا نظر الباقية إلى المشهد نظرة ذهول. حينها لم يجدوا سوى أن يتركوا صديقهم الطريح ويهرولوا مغادرين.
قال الرجل: أرجوكِ، دعيني أذهب.. لن أتعرض إليكِ مرة أخرى.
نظرت إليه بازدراء، ثم سحبت السيف من أسفل ذقنه وتراجعت، ففر هاربا لا ينوي على أن يقاتل تلك الصبية الغريبة المتسلحة.
ضحكت ساخرة هي تتابع هرولته الأشبه بهرولة الدجاج الفار من صاحبه، ثم عادت لاستكمال صيدها.

في القصر:

وُجد ذلك الأمير اليافع جالسا منهمكا في حل بعض المسائل الرياضية. صاح بغضب فجأة: يا لها من مسائل غبية، كيف أقوم بحلها؟!
- ما الذي لا تستطيع حله يا ناصر؟
التفت الأمير ليفاجأ بأخته الكبرى - الأميرة شادية - قادمة متجهة إليه، فجلست إلى جواره، وبدأ بينهما الحديث.
- أخبرني.. ما الذي يستعصي عليك حله؟
- هذه المسألة، لا أعرف كيف أحلها.
- دعني أرى.

بدأت تددق النظر في المسألة المشار إليها من قبل الأمير؛ لتفهمها وبذلك تشرحها له، ثم قالت بعد فترة وجيزة: حسنا، هذه المسألة تبدو لك صعبة لكنها في الحقيقة سهلة جدا.
نظر الأمير بعدم فهم، فأردفت: انظر، إذا وضعت هذا الرقم هنا وذاك هناك فستجد أن الناتج يصبح...
لينقطع الحديث بقدوم إحدى الخادمات والتي قالت: معذرة سمو الأميرة، السلطانة الأم تريدك، هي الآن منتظرة في غرفتها.
- حسنا، آتية.
- أ أنت ذاهبة يا أختي؟
- أجل يا عزيزي، سأذهب وأرى ماذا تريد جدتي ثم أعود مجددا ثم نهضت وربتت على كتف أخيها بحنان ثم رحلت.
كانت السلطانة الأم ممدة على الأريكة في غرفتها وبيدها نوع فاخر من الحلي الثمين متراص أمامها على الطاولة، فانتبهت إلى قدوم الأميرة بعدما فتح لها الحراس الباب.
دخلت في كياسة قائلة: هل طلبتني جدتي؟
- تعالي شادية.
تقدمت الأميرة شادية بضع خطوات، لتفاجأ بكم المجوهرات المتراصة على الطاولة مما جعلها تقول بفم فاغر: ما كل هذه المجوهرات يا جدتي؟
- إنها لراضية.
- لراضية!
- أجل، سيأتي اليوم ضيف مهم جدا، اجلسي واختاري معي.
جلست ثم سألت: ومن هو ذلك الضيف؟
- إنها والدة العريس الذي سيتزوج براضية.
صدمت بعد سماع هذه الجملة، ثم قالت بعدما زالت آثار الصدمة بثوان: وهل سألت راضية بشأن ذلك العريس؟
- لا.
- ولكن.. لماذا يا جدتي؟!، تعرفين راضية جيدا، طالما أنك لم تعلميها بالأمر فلن تقبل ذلك الزواج أبدا.
ردت الجدة في حسم: انتهى الأمر، لقد أخبرت السيدة ولن أستطيع العودة في كلامي.
تنهدت شادية ثم قالت: وماذا عن أبي؟
- والدك لن يقول شيئا، نحن نريد الأفضل لها... كما ترين، دائما تنفذ ما برأسها، لا تهتم لكلام أحد.. لذا فإنها بحاجة إلى رجل يوقفها عند حدها.
لم تكن شادية مطمئنة بشأن ذلك الأمر ألبتة، هي تعرف أختها وتعرف تصرفاتها، فلم تبدي بشيء وتركت جدتها تتحدث هي شاردة قليلا، ثم قطعت جدتها شرودها بقولها: هيا اذهبي واحضريها.
- من؟
- من! ومن غيرها؟!، اذهبي واحضري راضية.
ردت بارتباك: لكن جدتي.. راضية ليست بالقصر.
رفعت السلطانة رأسها عن الحلي الذي بيدها، وصاحت: ماذا؟، ليست بالقصر، أين ذهبت إذا؟!
- لا أعرف، أخبرتني بأنها ستذهب لكن لم تخبرني إلى أين.

مسحت السلطانة على وجهها وأخذت تزفر وتتنهد في سخط، ثم نادت الخادمة تأمرها: اذهبي واحضري لي عائشة حالا.
ذهبت الخادمة ملبية وبدأت زفرات السلطانة تتزايد، في حين أن شادية كانت جالسة تزدرد ريقها في خوف مترقبة ما سيحدث من قبل جدتها تجاه أختها العنيدة، وبعد فترة وجيزة قدمت عائشة.
- تحياتي يا سلطانة.
- إلى أين ذهبت راضية؟
تفاجأت عائشة بهذا السؤال، وتملكها الارتباك والقلق هي تعلم أن السلطانة تكره ذهاب الأميرة إلى الصيد وبما أنها سألتها عنها إذا فإن الأميرة خرجت من دون إعلامها وهذا كفيل لجعل السلطانة كالنيران المشتعلة، فلم تعرف كيف تجيب ولم تنبس بكلمة مما أثار غضب السلطانة فصاحت فيها بشدة: هل قُطع لسانك! أجيبي أين راضية؟
فزعت عائشة من تلك الصيحة المباغتة، فردت بسرعة متلعثمة: لل.. لقد ذهبت الأميرة إلى الصيد مولاتي.
- صيد!
أخذت شادية تندب حظها فما توقعته حدث بالفعل ولا مفر من معرفة السلطانة بهذا، ثم وجهت السلطانة الحديث إليها بعد ان رحلت عائشة قائلة بفائق الغضب: أرأيتِ؟، ذهبت للصيد، وتسألينني لماذا أريدها أن تتزوج؟
نظرت إليها بأسف وخيبة لتكمل السلطانة: كم من مرة حذرتها... ماذا أفعل مع هذه البنت... السيدة ستأتي بعد قليل هي ليست بالقصر!
قالت شادية محاولة تهدئة الموقف: لا تقلقي جدتي، لن تتأخر.
نظرت السلطانة بغضب ولم تعلق.

عند البوابة الخلفية:

دخلت إلى القصر بفرسها بعد أن انتهت من رحلة الصيد، وقبل أن تهبط من أعلى الفرس أتتها الخادمة تقول: سمو الأميرة، السلطانة الأم تنتظرك بالحديقة.
عجبت لهذا الخبر وبدأت الشكوك والتساؤلات تدور برأسها ثم ردت: حسنا، آتية.
فذهبت الخادمة وظلت هي تفكر ربما تريدها جدتها لتوبيخها كالعادة لذهابها إلى الصيد.

في حديقة القصر:

هناك، كانت سيدة ذات جسد ممتلئ باديٍ عليها الثراء، تجلس في ضيافة السلطانة، فقالت السيدة وعلامات الإعجاب واضحة على وجهها: ما أجملَ الجو هنا!
ردت السلطانة باسمة هي تصب عصير البرتقال: بالطبع، جو دلهي رائع للغاية يجعلك تشعرين بالراحة والطمأنينة.
وبعدما أنهت السلطانة كلماتها أتت الخادمة معلنة مجيء الأميرة راضية، فتبعتها السيدة بقولها: أنا متشوقة كثيرا لرؤية حفيدتك.
- وأنا واثقة من أنك ستحبينها من أول لقاء.
- ذلك أكيد، أليست ابنة السلطان ألتتمش.
ابتسمت السلطانة، ثم نظرت إلى الأمام فوجدت راضية مقبلة من بعيد، فأشارت نحوها قائلة بسعادة: ها هي راضية.

التفتت السيدة إلى حيث تشير السلطانة فرأت بالفعل راضية قادمة نحوهما والبسمة تعلو وجهها، وعندما وصلت علقت السيدة هي ناظرة إليها تتفحص هيئتها: ماشاء الله.
- هذه السيدة جافيدا يا راضية.
- مرحبا.
بادلتها السيدة التحية ثم قالت: أين كنتِ يا عزيزتي، جدتك السلطانة كانت تقول بأنك لستِ بالقصر.
لترد بكل تلقائية: أجل هذا صحيح، فقد كنت في جولة صيد.
تفاجأت السيدة كثيرا بعد سماع هذه الجملة قائلة هي تنظر للسلطانة باستعجاب: صيد!
أصاب السلطانة الارتباك، فقالت على عجل محاولة انقاذ الموقف: أجل ولكنها الآن تحاول أن تكف عن هذه العادة، أليس كذلك راضية؟
بدا وجه راضية كمثل علامة استفهام كبيرة، فقد كانت الدهشة والمفاجأة واضحتين كثيرا عليها غير أنها أحست بريبة في ذلك الأمر، ثم قالت السلطانة باسمة بتصنع: يمكنك الذهاب الآن يا عزيزتي.
ولكن أوقفتها السيدة بقولها: انتظري يا سلطانة، لم نعرف بعد رد الأميرة الأخير.
حينذاك تبددت نسائم الهواء العليلة المحيطة بالمكان ليصبح الجو خانقا موترا.
لقد انقلب وجه السلطانة وشعرت بأن خطتها في طريقها للفشل؛ هي لم تتوقع سؤال السيدة طبقا للاتفاق بينهما على قرار الأميرة الأخير، غير أنها من المفترض طلبت راضية لرؤيتها فقط.
أما راضية فقد بلغ لديها الشك ذروته مما قالت ناظرة في عيني جدتها والسيدة بتساؤل: ردي على ماذا؟
عجبت السيدة قليلا لردة الفعل الصادرة، ثم ردت: على الزواج من ابني الأمير مصطفى بنيتي.
عندئذ صدمت راضية صدمة عارمة ثم قالت هي تنظر إلى جدتها بدهشة وعتاب: زواج!!
فبدا عليها الغضب والاستياء من تصرف جدتها ثم قالت بحزم: عذرا سيدة جافيدا، أنا أرفض هذا الزواج.
وبعدها مباشرة غادرت المكان من دون سابق انذار، فنادتها جدتها ولكنها لم تلبي النداء.
وقتها انزعجت السيدة كثيرا لما حدث وأحست حقا بالاهانة فنهضت وقالت: ماذا يحدث يا سلطانة، ألم تقلي أن حفيدتك وافقت على الزواج؟!
- بلى وافقت، لكن لا أعلم ماذا حدث لها.
- كلا يا سلطانة، كان واضحا جدا من ردة فعل حفيدتك أنها لا تعلم شيئا عن الأمر، لذلك لن يتم هذا الزواج.
وحينما كانت ستهم بالرحيل، أوقفتها السلطانة قائلة: لكن يمكننا أن نجلس ونتناقش.
- لم يعد هناك مجال للمناقشة يا سلطانة، اسمحي لي.
ذهبت السيدة، وبقيت السلطانة ثابتة في مكانها متحسرة على فشل الزواج وضياع الفرصة.
- ماذا قررت يا مولاي؟
أطلق السلطان تنهيدة، ثم قال بينما كانت خارطة البلاد أمامه: ما أصعب تلك القضية.. العديد من المناطق لا توجد بها زراعة، لقد خيم الجفاف بها.. الأسوأ من ذلك هو انه يوجد عدد كبير من السكان يعيشون بتلك الأراضي.
- إذا، ماذا ستفعل الآن مولاي؟
رد السلطان مشيرا إلى دوائر حمراء على الخارطة: لقد قمت بتحديد تلك المواقع لكن الأمر سيتطلب منا جهدا ووقتا طويلا. . ومن فرط الجهد قام بفرك عينيه ثم اغمضها قليلا، فلاحظ ذلك وزيره وعقّب: مولاي، أرى أنك يجب أن ترتاح وتؤجل باقي العمل للغد، تبدو متعبا للغاية.

- لا.. لا أستطيع أن أرتاح طالما انه يوجد أناس يعانون ويتعبون.
نظر الوزير بأسف، ثم ضحك السلطان قائلا: أتعلم يا غياث الدين، هؤلاء الناس مخدوعون كثيرا، فهم يعتقدون أن ذلك العرش هو أفضل شيء على الإطلاق وأن السلطان دائما مترف ومنعم، لا يعلمون حقيقة الأمر... لا يعلمون أن ذلك العرش الفاخر اللامع ما هو إلا مجرد مظهر خداع.. لا يرون ما يخفيه وراءه من أعباء وأحمال ثقيلة.. فبمجرد أن يتولى الشخص الحكم.. يشعر وكأنما هموم العالم بأسره أصبحت فوق عاتقه.. لذا لا أستطيع أن أتوقف عن العمل.
عجب غياث الدين من كلام السلطان فتنهد وقال: .. لم أر في حياتي سلطانا يخاف على شعبه مثلك يا مولاي، أدعو الله أن يطيل لنا في عمرك ويديمك لهذه السلطنة تعليها وتقويها.
ابتسم السلطان وقال: هذا واجبي غياث الدين.
فجأة دق الباب، فأمر السلطان الطارق بالدخول، ليدخل الحاجب ومعه رسالة.
- جلالتك.. هذه رسالة قد وصلت قبل قليل.
نظر كل من السلطان وغياث الدين إلى بعضهما البعض في ريبة ثم قال السلطان: أعطني إياها.
قدّم الحاجب الرسالة ومن ثم ذهب،
ففتحها السلطان وبدأ في قراءتها لتظهر على وجهه علامات المفاجأة يشوبها الفرح.
- ما الأمر مولاي؟
- هذه الرسالة من لاهور.
تعجب غياث الدين ناظرا بعدم فهم، فأكمل السلطان: لقد كُتب في الرسالة ان شاه تُركان وابني ركن الدين فيروز قادمان الليلة إلى دلهي.
- شاه تُركان!
- أجل... مازلت أتذكرها، لكن لم أكن لأعلم أنها أنجبت!
- ربما آتية لهذا الغرض.
طرف إليه السلطان ثم شرد يفكر في الأمر.
وها هي واقفة أمام المرآة تحرر ضفائر شعرها الطويل، شاردة تنظر تارة إلى أغراضها القابعة على الطاولة وتارة إلى ذاتها، تفكر في تصرف جدتها الغريب وكيف أنها لم تخبرها بأمر هام مثل الزواج! ولكن لاحقا ما أفهمتها شادية دوافع جدتها وأنها تقوم بذلك لمصلحتها... أي مصلحة هذه في إرغامها على شيء لا تريده، لاسيما وإن كان الابتعاد عن الصيد!
"الصيد"، إنها ككلمة سحرية لديها، العادة التي درجت عليها منذ أن كانت في عمر الثالثة عشر، أيعقل أن يأتي يوم تتخلى فيه عن الصيد والذي بات كل حياتها!، إنه الشيء الذي يرفع من روحها المعنوية، المحفز لها، هي ترى نفسها من خلاله دائما، المرافق والأنيس لها في لحظات الحزن والضيق.
وبعد أن حررت جميع الخصل، اتجهت ناحية أغراضها القابعة على الطاولة، ملتقطة أحد الأسهم تتأمله بعناية، تستشعر ملمسه بحنو، تفكر من أين ستأتي بهذا القلب البارد الذي سيجعلها تقطع ذلك الرباط الوثيق إلى الأبد.
وبعدها بقليل يظهر صوت من ورائها: اقتنعتِ؟؟
التفتت إذ بأختها شادية، فقالت متظاهرة بالاستعجاب: اقتنعت بماذا؟
- لا تحاولي التظاهر بالبلهاء، أعلم جيدا ما يدور ببالك.

نظرت إليها قليلا ثم أعطتها ظهرها محاولة تجاهل الموضوع وهي ترتب الأغراض، فأردفت أختها: على العموم، أنصحك بهذه الخطوة.. ربما تصفح عنك جدتي بعد ذلك الحرج الي تسببتِ فيه لها.
ثم قالت بعدما ربتت على كتفها من الخلف ببعض اللين: راضية.. جدتي غالية جدا.. يكفي أنها من ربتنا طيلة تلك السنوات بعد موت أمي.. أرجوك لا تضايقيها بأفعالك هي لا تستحق منا هذا.
وبعدها غادرت، لتتركها بين دوامات التفكير العميقة والمناوشات العقلية، فبدأ يتلاشى ذلك العند المسيطر على عقلها ويحل محله كلمات أختها والشعور ببعض الندم، فكيف تتجاهل قيمة جدتها، كيف تنسى مواقفها معهم وتربيتها لهم، حتى وإن كانت توبخهم في كثير من الأحيان، فهذا كله لأنها فقط خائفة عليهم وتريد مصلحتهم، لقد فعلت معهم ما لا تفعله الأم مع أولادها..
وفي ذلك الحين عقدت النية، واتخذت ذلك القرار الغير هين على قلبها بالمرة، وقررت بالنهاية أن تهجر الصيد إلى الأبد، فإن كانت جدتها ضحت بالكثير من أجلهم فحان الوقت أن تضحي هي من أجلها، وقد كان..

(٢)

ليلا، بين الأشجار الكثيفة:
ثمة قافلة من الخيول والرجال حاملي شعل النار، وعلى ظهر الجمل وُجد هودج مغطى بستار طويل لم يظهر ما بداخله، يحيط به الكثير من الجنود والحراس حاملين أسلحة وعتاد، فأكملوا السير بلا توقف في طريقهم إلى سلطنة دلهي.
كانت راضية جالسة أمام المرآة ومن خلفها وصيفتها عائشة تمشط شعرها وتبخره، فقطعت راضية الصمت بسؤالها: عائشة، هل طُلِبت من قبل للزواج؟
- أجل.. لكنه لم يدم طويلا.
- ولما؟
ردت عائشة هي تتنهد ليشي بما يحمله صدرها من أوجاع الماضي: لأنه لم يكن زواجا موفقا من البداية... ولكن.. لما تسألين، أهناك خطب ما؟
أجابت بتردد: لا.. لا شيء.
ابتسمت عائشة متفهمة ما بداخل نفسها، فقالت: أنت تقولين شيئا وعيناكِ تقولان شيئا آخر.
ضحكت راضية قائلة: دائما ما تفهمينني يا عائشة.
ضحكت عائشة هي الأخرى، ثم نهضت راضية ووقفت كي تربط لها عائشة أشرطة الفستان من الخلف، فقالت: حسنا يا أميرة، احكي لي، ماذا حدث؟
- جدتي أحضرت لي عريسا.
تظاهرت عائشة بالاندهاش بالرغم من كونها تعلم ذلك الأمر قائلة: حقا؟
أومأت راضية برأسها إيجابا ثم سألت عائشة: وماذا فعلت إذا؟
- رفضته.

- ولكن لما رفضته؟
- سأخبرك.. جدتي تحدثت إلى والدته من دون علمي، فتفاجأت بها عندما أتيت بعد انتهائي من الصيد.. غير ذلك لا أريد أن أتزوج الآن.. بوضوح لا أريد أن أتزوج مطلقا.
أنهت عائشة ربط العقد وسألت: ولما لا تريدين الزواج؟
- لأن الزواج ببساطة أشبه بسجن، لا تستطيعين فعل ما تريدينه.. فهو عبارة عن سيطرة وتقييد لذا انا لا أفضله أبدا.
أخذت عائشة تضحك بعد سماع ذلك الكلام، فعجبت راضية منها وقالت: لما تضحكين؟!
ردت هي لاتزال تضحك: من زرع تلك المعتقدات بعقلك يا أميرة؟!
- لا أحد.
- إن اعتقادك بشأن الزواج ليس صحيحا بالمرة.
رفعت راضية حاجبها قائلة: لما؟
- لأن الزواج علاقة نقية مليئة بالحب والمودة ليس السيطرة والتقييد كما تقولين.
فقالت الأخرى بلا مبالاة: أنا لا أفهم في هذه الأشياء.
- ولن تفهمي أبدا إلا عندما تقعين في الحب.
ردت في سخرية: أقع في الحب.
- أجل.. ألا يمكنك الوقوع في الحب يوما؟
- لا.. لا أعتقد هذا.
- ولما؟، أي شخص يتمنى أن يقع في حب أميرة جميلة مثلك.
لترد محاولة نفي الموضوع: حسنا.. لكن الحب ليس كل شيء، هناك الكثير من الأشياء التي أهم من الحب.
ضحكت عائشة وقالت متعجبة: لا أعلم ماذا أقول لك يا سمو الأميرة.
- هذا لأن كلامي صحيح.

في قاعة الجلوس:

جلس كل من السلطان والسلطانة الأم في القاعة ينتظران باقي أفراد الأسرة بعد أن أمر السلطان بجمعهم لأمر هام.
- لما أمرت بجمع أبنائك، أيوجد أمر ما؟
رد السلطان بحماس: ستعرفين الآن، أمي.
ابتسمت السلطانة قائلة: يبدو أن هناك مفاجأة.
فجأة أتت الأميرتان ومعهما الأمير ناصر، وتلقائيا عندما حاولت راضية النظر إلى جدتها أشاحت بوجهها بعيدا عنها.
ثم سألت أختهم الكبرى الأميرة شادية: هل طلبتنا يا أبي؟
- صحيح يا عزيزتي، اجلسوا.
فجلسوا ثلاثتهم بعدها بدأ السلطان حديثه.
- بالطبع تتساءلون الآن لما أنا طلبت منكم الحضور.. في الحقيقة سيأتينا اليوم ضيوف وبقي القليل على وصولهم.
السلطانة: ضيوف؟

- أجل، أمي.
سألت شادية: ومن هؤلاء الضيوف يا أبي؟
- ستعرفين، إنهم ضيوف مميزون جدا، انتظرهم منذ وقت طويل.
لتعقب راضية بعجب: إلى هذه الدرجة.
ابتسم السلطان وقال: عندما تعرفين من يكونون هم ستفهمين وقتها لما أنا قلت ذلك.
ليدخل الحاجب معلنا: مولاي، لقد وصلت القافلة للتو.
ابتسم السلطان قائلا بسعادة: أرأيتم؟
ثم قال للحاجب: حسنا نحن قادمون.
انحنى الحاجب وذهب.
- جهزوا أنفسكم لاستقبال الضيوف.
قالها السلطان.
السلطانة: هل سنستقبلهم؟
- بالطبع يا أمي، جميعنا سيستقبلهم، هيا.
فاستعد الجميع وذهبوا خلف السلطان.

وها قد وصلت تلك القافلة أخيرا إلى القصر، فظهر على مقدمتها شاب وسيم فوق خيله الأشهب معقد حاجبيه، ينظر في غرور، وقد كان مرتديا ملابس ثمينة تفغر لها الأعين، ومن داخل الهودج وُجدت امرأة في فائق الجمال، عيناها خضراوان وشعرها الأشقر الطويل منساب فوق ظهرها لا تختلف عن القمر في شيء.
فسارت خيول الشاب والمرأة في اتجاهها إلى القصر وبرفقتهم الكثير من الحراس و الجواري.
في نفس ذات اللحظة كان السلطان قد وصل عند البوابة الرئيسية ومعه السلطانة وأولاده.
ثم هبط الشاب من أعلى الفرس وخرجت تلك المرأة من الهودج، فبدأ يسير كل منهما ناحية البوابة في فخر بالغ وتباهٍ وكان السلطان ينتظرهما في ذلك الحين.
فوصلا كلاهما، ليستقبلهما السلطان بابتسامة عريضة معبرة عن مدى الفرح بداخله، ولكن عندما رأت السلطانة تلك المرأة صدمت صدمة كبيرة هي تعرفها جيدا جدا، لتقول بصوت هامس: شاه ترُكان!
طرق إلى راضية ما قالته جدتها فتعجبت كثيرا متسائلة في عقلها: من أين تعرف جدتي تلك المرأة؟
عندئذ قبلت المرأة يد السلطان وقالت باسمة: تحياتي يا جلالة السلطان.
بادلها السلطان الإبتسامة ثم أشارت المرأة ناحية الشاب قائلة: هذا ابنك الأمير ركن الدين فيروز يا مولاي.
بمجرد أن تفهوت تلك المرأة بهذه العبارة صدمت السلطانة والأميرتان صدمة عارمة، فاقترب ذلك الشاب المدعو ركن الدين من السلطان وقبّل يده، فربت السلطان على رأسه بلطف.
- أقدم لكم شاه تركان وابني الأمير ركن الدين.
عجب الجميع كل العجب لهذا فمتى أنجب السلطان ذلك الشاب؟، ومن تكون تلك الشاه تركان؟، ولما أخفى والدنا ذلك الأمر عنا؟، هذه الأسئلة كانت تدور برأس الأميرتين، لا تصدقان ما ترانه وما تسمعانه.

ثم بدأ السلطان يُعرف شاه تركان على أفراد أسرته، لكن لم تشعر راضية بالأمان تجاه تلك المرأة مطلقا وأحست بأنها ورائها شيء ما.
عندها ذهبت تركان لتلقي التحية عليهم فقبلت يد السلطانة والتي نظرت إليها بصدمة يشوبها بعض الاحتقار ثم انتقلت إلى باقي الأفراد تحييهم، ثم قالت: ركن الدين، سلم على جدتك واخوتك.
اتجه ركن الدين هو الآخر نحوهم وفعل كما فعلت أمه، ليقول السلطان: لنذهب إلى الداخل.
دخلت تركان هي وابنها إلى القصر وغادر الجميع المكان لكن راضية كانت لاتزال عند شكها.

عاد السلطان وأسرته إلى قاعة الجلوس، ولكن انضم إليهم ركن الدين وشاه تركان
فاستقل كل شخص مقعده في القاعة واجتمعوا كلهم، ليباشر السلطان الحديث مع هذه المرأة.
- لم أتوقع أبدا مجيئك بعد كل هذه السنوات يا تركان.
- أتيت من أجل ابني يا مولاي، يجب أن تعلم أن لديك ابن.
- أصبتِ، يجب أن أعلم أن لدي ابن أعتمد عليه في كل شيء، أليس كذلك ركن الدين؟
- بالطبع يا مولاي.
- لكنك ذهبتِ ولم تقلي أي شيء عن الموضوع!
- أجل، لأني عرفت بأني حامل بعد مغادرتي للقصر، فبقيت في لاهور وولدت هناك.. لكن كنت أشعر دائما بأن قلبي يعاتبني ويلومني كل تلك السنوات بسبب عدم الحديث عن ابني ركن الدين، لذلك قررت أن أترك لاهور وآتي إلى هنا.
لم تقتنع راضية بذلك الكلام وشعرت بأن كل ما يقال ما هو إلا مجرد كذبة، فتلك المرأة قد أتت إلى هنا لغرض معين وليس ما قالته، وراضية بطبعها بمجرد أن تشعر بعدم الارتياح تجاه شخص يبقى على الفور محط انشغالها وهدفها القادم الذي ستصيبه، فقلبها وعقلها هما دليلاها وسلاحاها اللذان لا تستغني عنهما قط.. وطالما أحست إذا فهو صواب.

- هلا هدأتِ قليلا لقد أنهكتِ عيني!
قالت شادية هذه الجملة بينما كانت أختها لا تكف عن السير ذهابا وإيابا داخل الغرفة، فقالت مواصلة السير: لن أهدأ ولن أكل إلى أن أعرف سر هذه المرأة.. الشيء الغريب في الأمر أن جدتي أيضا تعرفها!
- وماذا بيدك فعله الآن، لقد قضي الأمر، إنها لديها من السلطان ولد أتدركين ماذا يعني هذا؟؟
- لا تقوليها! لا أستطيع تخيل أن هذا الولد ابن تلك الجارية يمكن أن يصبح سلطانا على البلاد يوما.. بأي وجه حق هذا.
فنهضت أختها لتقف أمامها مباشرة وتتحدث بانفعال: راضية.. لا تدعي أوهامك تنسيك نفسك وكلامك.. لم تخطىء هذه السيدة قط في مجيئها إلى هنا، بل بالعكس لو ظلت كاتمة لهذا السر لكانت مذنبة في حق السلطان والسلطنة.
- ولكنه ابن جارية يا شادية.. ابن جارية!
- وماذا يعني ابن جارية أنسيتِ أن من حق السلطان امتلاك الجواري والتصرف معهن كمثل زوجته تماما؟! أنسيتِ أن هذا ما قام عليه أجدادنا وأسلافنا؟

فنظرت إليها في خيبة وأخذت تمشي بتلكؤ ثم جلست على الأريكة واضعة رأسها بين راحتي يدها، وقتها اتجهت إليها أختها وجلست بجانبها ثم بدأت تخاطبها بلين: راضية.. إن خوفك الزائد من الغرباء ليس أمرا جيدا، ثم من أين عرفت أنها ليست امرأة صالحة ما دليلك؟؟
- مجيئها.
انفعلت مرة أخرى قائلة: راضية لا تقولي مجئيها، هذا حقها وحق ابنها، انت تتكلمين في مسألة لا جدال فيها.
ابتسمت راضية بسخرية وقالت: غدا سنرى من منا على صواب.
نظرت إليها أختها هي تتأفف لعنادها المنقطع النظير، ثم قالت راضية: حسنا ان كنتِ تريدينني أن أحسم جدلا في هذه المسألة عليكِ أن تقومي بخدمة صغيرة لي.
ردت باستنكار: أي خدمة؟
- أن تذهبي إلى جدتي وتستعلمي منها عن أصل تلك المرأة وتاريخها بالكامل.
- ماذا!!، لاااا لقد جننتِ بالفعل!
- الجنون الحقيقي أن أذهب إليها بنفسي وأسألها، تعلمين أنها تقاطعني فكيف أتصرف الآن.
- ولما لا تذهبين إليها وتحاولي نيل غفرانها.
فتعاود النظر إليها في خيبة ثم نهضت عن الأريكة وبدأت تخطو ببطىء، لتقول في مرارة: إنها حتى لا تطيق النظر في وجهي.
نهضت شادية واتجهت نحوها ثم قالت: ولكن من وقت تلك الحادثة وأنت لم تذهبي ولو لمرة واحدة لطلب عفوها، وهذا ربما ما يضايقها أكثر.
ردت بنبرة حزينة: كيف أذهب إليها وأنا أعلم الرد.
- وإن كان.. أنت لم تجربي بعد، لا أحد يعلم ربما تصفح عنكِ.
نظرت إليها راضية في خيبة ثم أومأت رأسها بالموافقة.

في إحدى القاعات:

دقت الطبول ورنت الخلاخيل.
تلك المرأة التي كانت تتلوى وتتمايل بمهارة واحتراف، يشاهدها السلطان جالسا على مخدعه، فكانت ترقص ومن ورائها راقصات يتابعن معها الرقص.
إنها الراقصة شاه تركان تفعل ما كانت تفعله في الماضي فلم يشهد القصر رقصا مثل رقصها.
ظلت ترقص والسلطان يتابعها يستعيد ذكريات شبابه المنسية والأيام الخالية، فلم يشعر منذ وقت طويل ذلك الشعور باسترجاع عنفوان الشباب، وكأن الماضي يكرر نفسه من جديد.
لكن، على الجانب الآخر.. وقفت تراقب المشهد من بعيد، مكفهرة الوجه غير مصدقة ما يحدث أمام عينيها.
فبعد خروجها بلحظات من غرفة أختها، طرق إلى مسامعها صوت جعلها ترتد إلى الخلف، إنه صوت الموسيقى الصادر من القاعة المقابلة للطرقة التي كانت تسير بها، مما أثار دهشتها إلى حد كبير، فمنذ أن شبّت إلى الدنيا هي لم تسمع مثل هذه المعزوفات الغريبة من قبل، فاتجهت ناحية القاعة ونظرت من الفتحات الصغيرة لترى ما يحدث بالداخل والذي كان بمثابة الصدمة الأكبر لها على
الإطلاق.
حينها نطقت: راقصة!

وها قد تبين لها حقيقة تلك المرأة وأنها ليست جارية فقط، بل وراقصة أيضا مما جعلها تكن لها الكره أضعاف أضعاف ما سبق، غير أنها ليست مصدقة أن أبيها قد نسى أمها وجلس ليشاهد تلك العاهرة هي ترقص وتتمايل كالأفاعي.
فلم تطق أن تطيل النظر إلى هذا المنظر المشين وظلت تلكم الحائط في غضب شديد وانفعال حاد، ثم لم تجد سوى أن تبتعد عن هذه القاعة وتذهب إلى غرفتها، فأكملت سيرها في مرارة وحزن شديد، تفكر في أمها الراحلة وتحمد الله أنها ليست موجودة لتشاهد تلك الكارثة التي حلت عليهم، فتابعت هائمة على وجهها في طريقها إلى غرفتها.

في صباح اليوم التالي:
كما اعتادت راضية في الصباح أن تذهب مع عائشة إلى حديقة القصر لري أزهار النرجس البري التي لطالما عشقتها، ولكنها توقفت وكأنها تذكرت شيئا ما فسألتها عائشة عن سر توقفها، ردت: لدي مهمة عليّ القيام بها أولا.
فناولت عائشة قدر الماء لتذهب مسرعة وتبقى الأخرى تنتظرها في الطرقة.
ظلت راضية تبحث عن جدتها فلم تجدها في غرفتها، ثم لم تجد خيار سوى أن تسأل الخادمات وبالفعل دلوها على مكانها والذي عند المغزل، فأسرعت المضي في طريقها إلى هناك، وعندما وصلت رأت جدتها من الخارج هي تتفقد أعمال الخادمات، فجهزت نفسها للدخول، لتباغتها من الخلف بقولها: جدتي!
نظرت إليها السلطانة وأبعدت وجهها في التو، فقابلتها من جهة أخرى قائلة: هيا يا جدتي ألا تنوين فك هذا الخصام؟
ابتعدت عنها في طريق آخر، ولكنها لم تستسلم وقابلتها أيضا في نفس الطريق،
كي تتأفف السلطانة قائلة بغضب: هلا دعيتيني وشأني!
- كلا سأظل أقطع عليك الطريق حتى تقولي إنك سامحتني.
نظرت إليها السلطانة ثم هزت رأسها تعجبا منها، فقالت هى: أرجوك يا جدتي لم أعد قادرة على تحمل مقاطعتك لي أكثر من هذا.
- لا أعلم كيف أنت مستسهلة الأمور إلى هذا الحد!
نظرت بخيبة ثم قالت: أعلم أن ما اقترفته كان كبيرا، ولكن.. كيف أقسم لك أنني اتخذت قرارا رادعا بشأن الصيد.
قالت السلطانة موبخة: وهل الصيد هو كل ما في الأمر؟!، ماذا عن ذلك الحرج الذي تسببتِ به لي أمام تلك المرأة، لقد جعلتها ترى جدتك السلطانة امرأة كاذبة لا تفي بوعودها.
- قُطِعت رأس كل من قال هذا يا جدتي، إن تلك السيدة لا تقارن بك من الأساس، إنك سلطانة البلاد لا أحد في عظمتك.
- هذا كلام ليس إلا لاستمالة القلب فقط.
لتعاود السلطانة فحص المنسوجات، فاتخذت الأميرة جانبا وقالت بشرود ممزوج بحزن: أتعرفين يا جدتي، لقد رأيت مشهدا البارحة لم أكن لأحب أن أراه في حياتي.

لم تكترث السلطانة، فاستطردت الأخرى: تلك المرأة الأشبه بالحية ترقص وتتمايل.. وأبي.. ما هو إلا جالس يتابعها وهو في بالغ السعادة.
عندئذ التفتت إليها السلطانة أخيرا، فتابعت والدموع تكاد تفر من عينيها: أتعرفين.. لم أتذكر وقتها سوى أمي، لا أصدق أن أبي بكل تلك البساطة قد نسيها وانشغل مع هذه الباغية... وبعد أن رأيت تلك الفاجعة لم أستطع النظر أكثر وأبعدت عيني على الفور.
وأخذت تشكو إلى جدتها والتي بدأت تنصت إليها في تأثر بالتدريج، فأردفت: فأكملت طريقي بكاء، أتساءل.. ماذا لو كانت أمي لاتزال حية وترى ذلك يحدث أمام أعينها.. ربما كان ذلك كفيل لجعلها تموت ألف مرة بدلا من مرة واحدة.
عندها اغرورقت عيناها بالدموع بالكامل قائلة بصوت متهدج: كنت بحاجة وقتها إلى أن أركض إليكِ، ارتمي في حضنك، أبكي وجعا وتحسرا، ولكن.. أعرف أنك لن تطيقي النظر في وجهي، فقضيت ليلتي كاملة وحيدة في غرفتي يصاحبني الهم والبكاء.
عندها انهمرت الدموع على خدي السلطانة وفتحت لها ذراعيها بالفعل، فارتمت بين أحضانها أخيرا وكأنها كطفل كان تائها عن أمه ثم وجدها، فأخذت تبكي بحرقة والسلطانة معها تبكي، ثم ظلت تقول: سامحيني يا جدتي.
لترد: مسامحتك.
في حديقة القصر وبينما كان ركن الدين جالسا ممددا على الأريكة يعبث بلحيته الطويلة، أتته خادمة ومعها الشراب الذي طلبه.
وبمجرد أن تذوقه بصقه على الفور، فنهض، وبدأ يصيح في وجه الخادمة: ما هذا القرف؟
ثم قام بسرعة بإلقاء الكوب أرضا وأعاد توجيه سؤاله لها: أخبريني، ما هذا القرف؟!
في هذه الأثناء كانت راضية قد وصلت إلى الحديقة هي وعائشة فسمعت صوت الصياح، مما أثار تعجبها قائلة: من هذا الذي يصيح بهذه الطريقة؟
وعلى الفور ذهبتا إلى مكان مصدر الصياح لمعرفة ما يحدث.
- لم أتذوق في حياتي أبدا شراب مثل هذا.. كيف تجرئين على فعل ذلك معي أنا؟
وصلت راضية هي وعائشة وأخذتا تراقبان الموقف من بعيد، وقتها كان ذلك الأهوج لا يزال مستمرا في الصياح وبقيت الخادمة أمامه ترتجف خوفا.
- أنا الأمير ركن الدين فيروز، يجب على الجميع طاعتي وتنفيذ أوامري.. وبما أنك لم تنفذي أمري على أكمل وجه وقصرتِ في عملك، إذا أنت محرومة من الأجر هذا الأسبوع وإن كررتها مجددا سأطردك خارج هذا القصر وأرميكِ للجرذان والثعابين، أفهمتِ؟ هيا اذهبي وأحضري لي واحدا آخر.
فذهبت تلك الخادمة قليلة الحيلة باكية خائفة من العقاب وما ستلقاه من عذاب من قبل هذا الشيطان.
حينها قالت راضية التي راقبت المشهد كله: يجب أن ألقن ذلك الأبله درسا.
عائشة: وماذا ستفعلين؟
- سترين الآن.
جلس ركن الدين مجددا والتفاحة بيده يأكلها، منتشيا بتلك المتعة التي تلي إهانة الخدم وإذلالهم.
بعدها بقليل كانت الخادمة قد انتهت من صنع الشراب، فذهبت متجهة إليه كي تعطيه إياه، ولكن أوقفتها راضية وطلبت منها أن تأخذ هي الشراب وتقدمه للأمير بدلا منها.
وبينما كان الأمير يأكل تفاحته الحمراء في سرور وهناء إذ بشيء ينهال فوق رأسه،

فنهض بسرعة بعد أن أغرق الشراب وجهه وملابسه الثمينة، ليتفاجأ بشخص لم يتوقعه أبدا، إنها الأميرة راضية هي من سكب الشراب فوق رأسه!
- هل أعجبك الشراب يا سمو الأمير؟
اشتعل ركن الدين غضبا، شاعرا بالحرج وهو واقف بملابسه المبتلة تلك أمام الخادمات اللاتي كن تضحكن ضحكات مكتومة،
فصاح براضية: كيف تجرئين على فعل هذا؟!
ثم عادت تسخر قائلة: يا إلهي!، انظروا!، الأمير ركن الدين في ورطة كبيرة، انظروا إلى حاله!!، احضري منشفة بسرعة يا عائشة فثياب الأمير تلطخت بالكامل!
كان ركن الدين وقتها واقفا يستشيط غيظا، يتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه، لا يصدق أن مجرد فتاة استطاعت التغلب عليه وهو متمسك بتلك القاعدة السخيفة التي تقول أن النساء ضعيفات الشخصية، فلم يتحمل التواجد في ذلك المكان أكثر من هذا وهمّ بالرحيل
سريعا.
فواصلت الخادمات الضحك بحرية أكثر بعد مغادرته، فرحات بكسر أنفه وإبطال تكبره.
عائشة: أنت حقا مذهلة، كيف استطعتِ أن تقدعي أنف ذلك المغرور؟!
- كما رأيتِ.
فقامت بعمل حركة بيدها تشير إلى علامة السكب، فضحكت عائشة وضحكت هي الأخرى.

كانت شاه تركان جالسة في غرفتها وحولها الكثير من الحلي والمجوهرات الفاخرة، فباتت تتحسسهم وتمعن النظر فيهم بنهم، وإذ فجأة يدخل عليها شخص يجعجع: أرأيتِ ما حدث يا أمي؟، أرأيتِ!
- ما كل هذا الصياح؟، ولما ملابسك ملطخة هكذا؟
- انه بسبب تلك التي تدعى راضية يا أمي.
- راضية!
- أجل، لقد جعلتني أضحوكة أمام الخادمات.. تخيلي يا أمي لقد قامت بسكب الشراب على رأسي وكل هذا فقط لأنني وبخت الخادمة! ماذا تظن نفسها فاعلة، كم أريد التخلص منها.
- هل انتهيت؟
- انتهيت من ماذا؟
- من تلك السخافات التي تقولها!
صمت وأومأ رأسه حانقا.
- أريدك أن تفتح عقلك ولو لمرة واحدة، أنسيت الغرض من مجيئنا؟ يجب أن تصبح ولي عهد هذه السلطنة، يجب أن تثبت لوالدك أنك جدير بالحكم والإدارة.. لكن ماذا أفعل؟، مهما قلت أنت لن تفهم أبدا.. ضع في رأسك أن لو والدك أحس فقط بإهمالك وعدم اهتمامك بأمور
الحكم وانشغالك بالتفاهات تلك.. كن على يقين بأنه سيصرف نظر تماما عن جعلك ولي عهد السلطنة.. فأنت لا تعرف والدك.. في هذه الأمور لا يعرف قريب.
ذعر من كلام أمه وبدا الخوف على وجهه جليا، لتربت على كتفه بحنان قائلة: ركن الدين، أرجوك لا تخذلني.
ثم عادت إلى مجوهراتها وبقي هو شاردا يفكر في ما قالته.

في إحدى غرف المعيشة:

- أنا منزعجة جدا من ذلك الشخص الذي يدعى ركن الدين، لست مقتنعة بأنه أخي.

قالت السلطانة: ركن الدين أخوكم يا راضية ولديه الحق مثلكم في كل شيء.

- لكن يا جدتي لا أطيق العيش مع شخص بمثل هذه التصرفات.

سألت شادية بعد ان أخذت رشفة من كوبها: لما، ماذا فعل؟

- في الحديقة صباحا عندما كنت أروي الأزهار مع عائشة سمعت شخصا يصيح بأعلى صوته.. تعجبت كثيرا لذا ذهبت لأعرف ماذا يجري فوجدت ذلك التافه ركن الدين وهو يوبخ إحدى الخادمات بقسوة بالغة وكل هذا بسبب المذاق السيء للشراب الذي أحضرته له!

- وماذا فعلتِ إذا؟

- لا شيء، عندما أحضرت الخادمة شرابا آخر أخذته منها ومشيت بخفة وبطء ثم فجأة قمت بسكب الشراب على ركن الدين أمام جميع الخادمات.

تعجبت السلطانة وشادية من ذلك ثم قالتا: وماذا فعل بعد ذلك؟

فقالت بسخرية وضحك: تلطخت ملابسه وابتلت ثم نهض وصاح في بغضب، ولكني جعلته أكبر أضحوكة أمام الخادمات فتحول وجهه إلى شعلة من النار وكأنه كان بركان على وشك الانفجار، ثم ذهب بسرعة وبقيت أنا والخادمات نضحك.

ضحكت السلطانة وشادية بشدة، لتقول السلطانة هي لاتزال تضحك: أنت حقا مجنونة يا راضية.

ولكن لم يدم الضحك طويلا، فقد جاء ذلك الشيء الذي عكر صفوهن وقلب الإبتسام إلى عبوس.

انه السلطان وبرفقته شاه تركان، فدخل وقطع ضحكهن قائلا والفرح بادٍ على وجهه: على ماذا تضحكن؟

التفتت السلطانة والأميرتان فوجدن السلطان واقفا وبجانبه شاه تركان،

لتغضب راضية أشد الغضب فور رؤية تلك المرأة، ومُحيت الإبتسامة من على وجهها وتحولت إلى نظرات كراهية وغيظ.

- من الجيد أنكن سعداء والآن سعادتكن ستكتمل.

قالت السلطانة بابتسامة مصتنعة: يبدو أن شيء ما سار سيحدث.

- أجل بالضبط وهذا الشيء السار.. هو أنني سأقوم بعقد احتفال كبير بمناسبة زواجي من تركان.

عمت الصدمة..

- ماذا حدث؟، أرى بأنكن لم تعدن سعداء!

ردت السلطانة بارتباك:.. لا لا بالطبع سعداء، أليس كذلك يا بنات؟

ردت شادية: سعداء بالطبع يا أبي.

- وأنت يا راضية؟ قالها السلطان

نهضت راضية ومشت متجهة ناحية السلطان وتركان ثم وقفت أمامهما وقالت بابتسامة زائفة: تهانينا يا أبي.

ابتسم السلطان وربت على كتفها بحنان.

فابتسمت هي إلى تركان ابتسامة منافقة يكمن بداخلها الكراهية المطلقة، لتبادلها تركان الإبتسامة، ثم استأذنت قائلة: أتسمح لي يا أبي؟

- تفضلي عزيزتي.

لتخرج من الغرفة تسير بخطى سريعة وعلى وجهها الامتعاض والغضب الشديد، حينها انتبهت لها عائشة من بعيد في الطابق الأول، مما جعلها تقلق لرؤيتها بهذه الحالة، فقررت أن تلحق بها وترى ماذا يجري.

ما كادت راضية تصل إلى غرفتها، حتى تحولت إلى ثور هائج، تصيح بأعلى صوتها: كيف حدث هذا؟!!
ومن شدة غضبها قامت باطاحة طبق الفاكهة وبعض الأكواب أرضا، لتأتي عائشة بعدها بثوان قليلة، فدقت الباب مستأذنة: سمو الأميرة.
التفتت راضية، فجزعت عائشة لما رأته، حيث كانت يداها تنزفان وهذا نتيجة للحواف الحادة لطبق الفاكهة،
وقتها أسرعت إليها.
- يداك تنزفان سمو الأميرة!!
نظرت إلى يديها فوجدتهما بالفعل تنزفان.
- هيا استريحي.
جلست على سريرها بينما ذهبت عائشة لاحضار الأدوات اللازمة كي تضمد جرحها، وسريعا قامت بتجهيزها، ثم توجهت إليها وبدأت في معالجة الجرح.
- لما فعلتِ ذلك يا سمو الأميرة؟، رأيتك وأنت ماشية في الطابق الأول.. ما أقلقني هو وجهك الذي بدا عابسا وغاضبا، لما؟، ماذا حدث؟
- تلك التي تدعى شاه تركان.
- ما بها؟
- ستصبح زوجة أبي.
صدمت عائشة، فأكملت راضية ناظرة بشخوص: وهذا يعني أنها ستصبح سلطانة وسيدة هذا القصر.
لتبقى عائشة على نفس ذات الحالة بينما ظلت راضية شاخصة نحو الأفق.

(٣)

وها قد جاء موعد الاحتفال الكبير، فذخرت القاعة بالكثير من الناس، حيث كانت مزدحمة بطريقة غير عادية.
وفي وسط الزحام دخلت كل من السلطانة والأميرتان والأمير ناصر إلى القاعة فاستقبلهم الناس باحترام وتقدير، بينما كانوا يبتسمون باستثناء راضية فقد غطى وجهها الوجوم والضيق الشديد فلم تبتسم قط.
ثم دقت الطبول وبدأت الراقصات ترقصن وكل شيء كان ممتعا وجميل.
في ذلك الحين اتجهت السلطانة هي وأحفادها وجلسوا في أمكانهم المخصصة.
قالت شادية بصوت خافت: غيري تعبيرات وجهك هذه.
لم ترد راضية وظلت محتفظة بوجهها العابس ثم صاح المنادي: نعلن حضور جلالة السلطان شمس الدين التتمش.
ليدخل كل من السلطان وشاه تركان إلى القاعة ومعهما الحاشية، فحياهما الناس باحترام كبير،

ثم قاما بالجلوس في مقاعدهما وبدأ الشيوخ يقيمون مراسم الزواج، وقتها كانت راضية تشتعل من الغيظ.
وبعدما أنهى الشيخ المراسم اللازمة قال:
بارك الله لكما وجعل حياتكما مليئة بالسعادة والحب والمودة.
ردد جميع من بالقاعة: آمين.
لكن لم تتحمل راضية البقاء أكثر من هذا فنهضت لترحل لكن أوقفتها أختها قائلة: أين ذاهبة؟
- سأرحل.
- هل جننتِ!، كيف تريدين ترك الحفل الآن؟
- لا أطيق التواجد أكثر من هذا.
- حقا!، وماذا سيقول عنك الناس؟!، كني عاقلة يا راضية وتوقفي عن تلك التصرفات الطفولية.
- قلت لا يا شادية، دعيني وشأني.

صباحا، قاعة المجلس:

صاح المنادي: نعلن حضور جلالة السلطان شمس الدين التتمش.
دلف السلطان إلى القاعة ثم اعتلى على عرشه والفرح جليا على محياه، ليعقب مجير الدين أحد وزرائه: ماشاء الله تبدو بحال جيد اليوم مولاي.
شكره السلطان باسما، ثم استطرد غياث الدين: مولاي، قافلة الشام أصبحت مستعدة للتحرك.
- جيدا جدا، وماذا عن المنشور الخاص بأجور العاملين؟
- بالطبع لم أنس ذلك يا مولاي.
صفق غياث الدين مرتين ليأتى الحارس ومعه المنشور فقدمه إلى السلطان، ليتسلمه في سعادة ثم فتحه وبدأ في قراءته، ولكن لم يدم فرح السلطان طويلا فبينما كان يقرأ دخل فجأة أحد الجنود المجلس مهرولا، قال وهو يلهث بعدما عمت حالة من التوتر على القاعة: آسف مولاي، لكن هناك خبر سيء للغاية.
صاح السلطان: قُل!
- لقد وقع حصن غواليور في الحصار.
ذعر السلطان فهم واقفا يصيح: ماذا!!
- أجل، مولاي.. كانت معركة كبيرة حقا، وللأسف راح فيها الكثير من ضحايانا.
صدم السلطان ومن معه، وأصابه الارتباك والقلق، فسرعان ما التم هو وجميع الوزراء حول طاولة الاجتماعات وبدأ يضع الخطط لهذه المعركة.
- اسمعوني جيدا، المعركة الآن على أشدها، يتوجب علينا القيام بكل الترتيبات اللازمة لها في الحال، أولا سنتواصل مع جميع مناطقنا ونخبرهم بتجهيز جيوشهم وأسلحتهم على الفور، ثانيا ستجهزون الأسلحة، الخيول، الفرسان، الأموال، الغذاء والذخيرة.. وجميع المتطلبات الضرورية للعتاد بأسرع مايمكن، فسوف نتحرك فجرا لذا استعدوا.
علّق غياث الدين مقاطعا: لكن.. من سيتولى أمر السلطنة أثناء غيابك يا مولاي؟
توتر السلطان أكثر فقد نسى تلك المسألة والتي زادت الأمر تعقيدا، فرد: قبل كل شيء يجب أن نستعد بقدر الإمكان للمعركة ومن ثم نتناقش في تلك المسألة.

عند ساحة التدريب:

كانت راضية تتدرب مع معلمها وبيدها السيف، فقطعتها الخادمة بمجيئها.

- معذرة سمو الأميرة.
توقفت عن القتال مستأذنة المعلم كي ترى ماذا تريد الخادمة: ماذا هناك؟
- جلالة السلطان يريدك حالا في قاعة المجلس.
تعجبت وأحست بأن هناك خطب ما، فقالت للخادمة: حسنا، آتية.

كعادته ملازم فراشه عار الصدر ومن حوله الجواري يشرب النبيذ ولا يدري ماذا يجري بالخارج، ففجأة أتاه الشيء الذي عكر صفوه وأزال متعته، إذ بإحدى الخادمات تطرق الباب، ليصيح غاضبا: من الطارق؟
- أنا خادمة مرسلة لتبليغك بأمر هام سمو الأمير.
- ماذا تريدين، اذهبي من هنا.
- معذرة سمو الأمير لكن معي أمر من السلطان يقول بأنه يريدك على الفور في المجلس.
انتفض ركن الدين بعدما سمع كلمة السلطان وقال بدهشة: السلطان يريدني أنا!
في المجلس:
كان المجلس خالٍ لا يوجد به سوى السلطان الذي كان جالسا يفكر بعمق، يفرك يديه ببعضها البعض من فرط التوتر والقلق، لتدخل عليه راضية باسمة الثغر قائلة: تحياتي يا مولاي.
رفع السلطان رأسه وانتبه إلى وجودها وفي نفس الحين قدم ركن الدين وحيا السلطان، فالتفتت راضية لتفاجأ به واقفا بجانبها وتَفاجأ بها هو أيضا.
ثم نهض السلطان وذهب متجها نحوهما، فوقف أمامهما ليبدأ حديثه.
- راضية وركن الدين أبنائي اللذان أعتمد عليهما، أليس كذلك؟
راضية: بالطبع يا أبي.
- جيد.. من المؤكد أنكما تتساءلان سبب
إحضاري لكما هنا وماذا أريد منكما.
ركن الدين: نتمنى ذلك مولاي.
- حسنا، كل ما أريده الآن أن تنصتا إلى جيدا جدا... في الحقيقة يوجد قضية صعبة التعقيد ولا نعرف متى ستنتهي غير ذلك هذه القضية متعلقة بالسلطنة.
ظهر القلق على راضية، ليستكمل السلطان: صباحا، جاء أحد رجالنا ومعه خبر بأن حصن غواليور قد وقع في الحصار وأنه يتوجب علينا الآن جمع جيوشنا والتوجه إلى ساحة المعركة، لكن.. تكمن المشكلة هنا في أني سأذهب وسأترك السلطنة بلا إدارة لذا من يجب أن يحكم السلطنة أثناء غيابي؟
تحمس ركن الدين كثيرا، بينما بقيت راضية تصغي بعناية ترتقب كل كلمة من والدها، والذي عاد يكمل: بعد تفكير عميق اتخذت قراري.. راضية من ستحكم السلطنة أثناء غيابي.
تفاجأت راضية قائلة: أنا!
- أجل راضية، أنا أخترتك لحكم السلطنة.. ماذا؟، لست مستعدة؟، إن كنت كذلك فيمكنني أن..
قاطعته بقولها: كلا كلا يا أبي، أنا مستعدة بالفعل، وأعدك بأني لن أقصر في عملي
أبدا.. إن شاء الله ستذهب وتعود وتجد السلطنة كما هي.
ابتسم السلطان وربت على كتفها بحنان قائلا بفخر: هذه هي ابنتي راضية.

وقتها كان هناك شخص يشتاط غيظا ثائرا كالبركان الذي ازدادت حممه عندما قال السلطان: وأنت يا ركن الدين جهز نفسك، فاليوم سترأس قافلة تجارية متجهة إلى الشام.. في الأصل كانت هذه القافلة ستتحرك الأسبوع المقبل لكن فكرت وقلت لما لا أدعك ترأسها أنت ربما هذا يمكنني من رؤية قدرتك في الإدارة وتحمل المسؤولية، صحيح؟
رد بابتسامة زائفة: أجل، مولاي.

في غرفة ركن الدين:

قام بامساك كوبٍ ألقاه صوب المرآة فتهشمت كليا، بعدها دفع الطاولة فسقطت وسقط ما عليها، ثم قام بتخريب الكثير من الأشياء وكأنه ثور هائج لا يدرك ما يفعل.
عندئذ دخلت شاه تركان على إثر صوت التحطيم متفاجئة بمنظر الغرفة، فقالت: ماذا يجري هنا؟!
- أرأيت يا أمي، ذلك الرجل الذي تقولين عنه أبي انظري ماذا فعل!!
- ماذا؟!
- جعل راضية تحكم السلطنة وترك لي مجرد قافلة غبية أرأسها!
- مهلا مهلا، لم أفهم شيئا مما قلته.
- حسنا، أمي، سأشرح لك، في الصباح تلقى السلطان خبرا بأن حصن غواليور قد تم حصاره، لذا سيذهب إلى المعركة ويترك السلطنة بلا حاكم، فمن سيحكم مكانه.
- همم، لذلك أنت غاضب.
- أمي لما تبدين غير مهتمة بالموضوع، ألا تريدينني أن أصبح ولي العهد؟!
- ومن قال هذا، بالطبع أريد، لكن... ليس الآن، لقد جئنا للتو، لذا كيف تريد أن يحمّلك السلطان هذه المهام الصعبة بهذه السهولة؟!
- لكن كيف ذلك يا أمي، أنا ابنه لذا أستحق هذا!
- والدك السلطان التتمش يحب أن يرى كل شيء ظاهرا حقيقيا أمام عينيه، لا يعترف بالشيء إلا برؤية واضحة.
صمت ركن الدين لهنيهة ثم قال: عرفت ما تقصدين يا أمي، تريدين قول إني يجب أن أبذل قصارى جهدي لأثبت للسلطان أني قادر على حكم وإدارة هذه السلطنة، أليس كذلك؟
- بالضبط.
- لكن راضية.. ألا ترين أنها عقبة في طريقنا؟
- لا.. فهذا وضع مؤقت ولن يستمر طويلا، لكن.. يمكنها أن تكون عقبة في حالة واحدة فقط.
- كيف؟!
فاقتربت منه قليلا وبدأت تتكلم بتلقين: عندما تكون منغمسا فقط مع هؤلاء الجواري والخمور ولاهيا عن شئون الحكم والإدارة، وقتها.. انس ذلك المنصب للأبد.
زم ركن الدين شفتيه مفكرا، فدوما ما تحذره أمه من هذا، ولكنه لا يستطيع المقاومة ويبقى في ذلك الانغماس.

وبالأخير هز لها رأسه إيجابا كأنه يقول سأحاول.

في إحدى غرف الاجتماعات:

كان كل من السلطان وغياث الدين يعدان مقتنياتهما اللازمة للمعركة، وخلال انشغالهما في التحضير سأل غياث الدين: معذرة مولاي، لكن.. كيف يمكن للأميرة راضية حكم السلطنة؟

- وما المشكلة، يمكنني الاعتماد على ابنتي راضية كل الاعتماد.

- أنا لا أشكك في اختيارك بالطبع يا مولاي، لكن.. أليس الأمير ركن الدين أولى بحكم السلطنة؟!

نظر السلطان مستنكرا وقال: غياث الدين، تريدني أن أترك السلطنة لركن الدين!، انه حتى لا يستطيع أن يحكم خلية نحل.

- ولما يا مولاي، يبدو أنك مستاء منه كثيرا.

- أجل، فمنذ أن جاء إلى القصر لم يحضر أي اجتماع، حتى إنه لم يفكر في أن يستفسر عن أمور السلطنة وكيف تسير السياسة بها.. غير ذلك، دائما ما يهتم بالجواري والسكر والخمور، فهو يعيش لإرضاء نفسه وحاجاته فقط وتارك أمور السلطنة والحكم، لذلك لا يمكنني أبدا

منحه ولاية العهد.

ثم قال مستطردا: لكن، فكرت في أن أعطيه فرصة في قيادة قافلة الشام، ربما ينجح.

مساء، في قاعة المجلس:

أمر السلطان بجمع وزرائه للتناقش في أمر حكم السلطنة، فاجتمع كل الوزراء بالقاعة منتظرين قدوم السلطان، ليدخل عليهم المجلس وراضية معه مما أثار تساؤلاتهم.

فارتقى السلطان إلى عرشه وجلست هي بالقرب منه.

- هل كل شيء أصبح جاهزا يا مجير الدين.

- أجل، مولاي، أرسلنا إلى جميع المناطق، وبدأ الجنود يجهزون العتاد والخيول.

- جيد... بعد أن فكرت كثيرا في قضية حكم السلطنة، لم أجد أحد أحق من الحكم سوى ابنتي الأميرة راضية.

وبمجرد أن تفوه السلطان بهذه الجملة حتى صدم جميع الوزراء بالقاعة وبعض منهم بات معترضا، فأكمل السلطان: لذلك هي من سيمثلني خلال الأيام القادمة.

ثم لاحظ السلطان انقلاب وجوههم بعد سماع هذا الأمر فسألهم متعجبا: ماذا؟، يبدو أنكم غير مقتنعين بكلامي.

ليرد مجير الدين: حاشي لله يا مولاي، أمرك مطاع وكل احترامنا لسمو الأميرة راضية، لكن.. موضوع تولي امرأة الحكم غريب علينا وعلى عاداتنا!

ثم تبعه أحد الوزراء: أجل مولاي، ان هذا الشيء لم يحدث من قبل في تاريخ السلطنة.

- أتفهم كلامكم، لكن هذا وضع مؤقت لذا لن يكون هناك أي مشكلة في جعل الأميرة راضية تحكم السلطنة.

نظر الوزراء إلى بعضهم البعض في دهشة غير راضيين بكلام السلطان بالمرة، فتابع السلطان: لا تقلقوا، ابنتي الأميرة راضية تعلمت كثيرا عن السياسة وشئون الحكم، لذلك يمكنكم التناقش معها كما لو أنكم تتناقشون معي... أيريد أحدكم إضافة شيء آخر؟
لم يتكلم أي أحد لأنهم يعلمون ان قرار السلطان واجب التنفيذ ولن يستطيع أحد معارضته، فقال مجير الدين على مضض: أمرك مطاع يا مولاي.
ابتسم السلطان ونظر إلى ابنته بفخر، فابتسمت إليه معبرة عن سعادتها بهذا القرار.
بعد صلاة الفجر:
امتلأت ساحة القصر الكبيرة بأعداد الجنود والخيول المهيبة، تقف مصطفة في انتظار السلطان ليعيطها الإشارة ببدء الاستعداد، وهناك تجمع الكثير من الناس ليشهدوا خروج السلطان إلى المعركة، يتقدمهم السلطانة والأميرة راضية وأختها وأخيها في بالغ الحزن والأسى لرحيل السلطان، ومن بينهم شاه تركان تقف متصنعة الحزن تذرف دموع التماسيح.
فيظهر السلطان ومن خلفه وزيره غياث الدين المرافق له، يتقدم بحزم وجدية مرتديا بذلة الحرب والخوذة.
ثم توقف لتوديع أسرته وطاف عليهم واحدا واحدا، وبسرعة قام بامتطاء فرسه مشيرا إلى الجيش من ورائه ببدء التحرك،
ففتحت البوابة على مصراعيها لتمرر تلك الأعداد الضخمة، وبدأت الخيول بالصهيل والسلطان معها يردد الله أكبر.
كما بات صوت تهليل وتكبير العامة يصدح في سماء السلطنة.
فأخذت تتتابع فرق الجيش واحدة تلو الأخرى بسرعة فائقة وحماس شديد وراضية واقفة في ثبات تتابع تحركاتهم المتلاحقة، تدعو بقلب صادق من الله أن ينصر السلطان ويعود به سالما إلى السلطنة حاملا رايات النصر.
وما لبثت حتى خرجت آخر فرقة من الجيش لتنغلق البوابة من ورائهم ويختفي معها السلطان ويختفي كل شيء..

(٤)

راضية
لم أكن لأتخيل يوما أن أمتلك مقاليد الحكم بأكملها، بالرغم من كوني شغوفة بمعرفة كل ما يخص السياسة وأوضاع الإدارة في السلطنة.
فمنذ أن كنت بالثالثة عشر من عمري وأنا مغرمة بتلك الأمور إلى حد كبير، حيث في كثير من الأحيان كنت أجالس أبي ويحدثني عن شئون السلطنة وماذا يجري في البلاد، وأحيانا أخرى كان يصحبني معه

في جلساته مع الوزراء، فبت على دراية كبيرة بما يدور داخل السلطنة من اوضاع سياسية وعسكرية واقتصادية وغيرها من المجالات الكثيرة.
وبالطبع لن أنسى الدور الكبير التي قدمته لي الكتب في مساعدتي على حصر أكبر كم من المعرفة.
فدائما ما كنت أحب أن أقرأ في بعض الكتب التي تحكي عن تاريخ بلادنا بداية من الدولة الغورية حتى حكم جدي السلطان قطب الدين أيبك.
فقد روت عن الكثير من المعارك التي خاضها حكامنا ضد ذلك الخطر الضاري وهو "التتار".
وباتت تصور مدى وحشية هؤلاء القوم وكيف أنهم قضوا على الأخضر واليابس معا،
لم يتركوا مكانا إلا وخربوه ولا رجلا إلا وقتلوه، حتى أنهم رمّلوا النساء ويتموا الأطفال، ودمروا البيوت وخربوا المساجد، فلم يبرحوا شيئا إلا وقد لامس بصماتهم القذرة.
ليأتي دور حكامنا المسلمين البسالى في صد غاراتهم المتلاحقة، وكيف أنهم أسروا العديد من قاداتهم.
بالرغم من الهزيمة في بعض الأحيان إلا أنهم لا يستسلمون ألبتة، فبعدما يتعرضون للخسارة تدب فيهم الحمية من جديد وتحفز داخلهم على الصمود والوقوف لمجابهة هؤلاء الوحوش بكل شجاعة وإصرار، فينهضون من نكبتهم ليحققوا أبرز انتصارات على هؤلاء القوم
الفاسقين.
لكن.. لم تتحدث الكتب فقط عن الحروب، بل تحدثت أيضا عن الإنجازات العظيمة التي قدمها السلاطين في سبيل بلادنا، بالأخص جدي السلطان قطب الدين أيبك، فهو المؤسس الحقيقي لتلك السلطنة ومحييها، لاسيما ذلك البناء الضخم الحامل لاسمه " قطب منار "، والذي أسماه الجميع فيما بعد لشدة افتخارهم به " أسطورة دلهي".
وعام وراء الآخر أجد نفسي أنجذب نحو تلك الأمور تدريجيا، فكلما كبرت كلما ازداد تعلقي بها، ليأتي ذلك اليوم الذي ينصبني فيه السلطان حاكمة على البلاد.
إنها لحظة فارقة في حياتي حقا، لن أنكر أني شعرت بنوع من القلق والاضطراب بداية، ولكني سرعان ما تداركت تلك المشاعر المحبطة، فبت أستعد كامل الاستعداد لهذا التكليف العظيم.
لا أنسى أبدا نظرة أبي لي وهو يودعني مقبلا إلى المعركة، يبتسم إلى وكأنه يقول
ستفعلينها يا صغيرتي أنا أثق بك، ليقبل رأسي بعدها ويتركني بقلبي الذي انكمش حينما رأيته قد شد اللجام وانطلق بجواده مضيا إلى أن اختفى بالكامل عن عيني..
وها قد بدأت رحلتي الجديدة، فمنذ ذلك اليوم وقد اختلفت الأوضاع بالقصر، وبدأ الجميع يعاملونني كسلطان، بالرغم من الضيق البادي على وجوه الوزراء والذي لاحظته منذ آخر جلسة لأبي، إلا أنهم فقط يؤدون ما وصاهم به السلطان قبل رحيله، بالأخص مجير الدين والذي كان أكثرهم ضيقا، إلا أنه ساعدني لحد كبير في معرفة القضايا التي لم يستأنفها السلطان.
وأصبحت يوميا أتواجد في قاعة المجلس، لا أكف عن العمل ولا أتوانى للحظة مما أثار دهشة الوزراء، واقفين محدقين بي في عجب وكأنهم يقولون ألا تكل هذه الفتاة؟!

وقد زادت اجتماعاتنا في الأونة الأخيرة للمناقشة في تلك القضية التي لم يستكملها السلطان بخصوص الأراضي الجافة.
فبعد أن تأكدنا من تحديد جميع المواقع على الخريطة، بدأنا في وضع الخطط والتي بصددها سنقوم بمعالجة أمر ذلك الجفاف المخيم على هذه الأراضي.
لتأتني بعد شهر من رحيل أبي أخبار قوافل الشام التي يرأسها ركن الدين، وبالطبع النتيجة كما توقعت.
فلم يحتو جدول توزيع البضائع على أي نتيجة إيجابية، فكثير من المناطق كان بها الاستيراد سيء ومنخفض للغاية ومناطق أخرى لم يتم بها جلب من الأساس.
غير أنني سألت ذلك الجندي الذي قدم بالأخبار خلسة عن أحوال تلك القافلة وبالأخص ركن الدين ليجيبني في خيبة.
- سموك، إن الأمير ركن الدين لا يعرف شيء عن البضائع المجلوبة من الأصل، فيوم نجده قرر الخروج ويوم نراه قابع في خيمته يسكر ويطلب الجواري.
لم تكن بالطبع تلك الأخبار تمثل لي صدمة، بل بالعكس لو كانت غير ذلك لباتت لي الصدمة الكبرى.
ليذهب الجندي وأجلس أفكر في تلك المصيبة التي جلبها لنا ركن الدين، فحتما إذا استمر في رئاسة القافلة لن يجد الناس في الأسواق شيء من البضائع لابتياعه.
ففكرت تلقائيا في عزله وتنصيب من هو أجدر منه لرئاسة القافلة، وبسرعة أمرت بجمع الوزراء للمناقشة معهم في ذلك الأمر والأخذ برأيهم حول الشخص الذي سنعينه قائدا للقافلة، لأجدهم بعد فترة وجيزة يأتونني وعلى وجوههم علامات التذمر لكون امرأة تأمرهم وتتحكم فيهم، فبدأت بعدما اجتمعوا كلهم: لقد أتتني اليوم أخبار من الشام عن القافلة التجارية التي يرأسها
الأمير ركن الدين.
نظروا إلى بعضهم البعض مترقبين ما سأقوله، فأردفت بعدما أظهرت دفتر النتائج: انظروا بأنفسكم.
ثم ناولته إلى مجير الدين والذي ظهرت على وجهه الصدمة فور قرائته، ليمرره إلى من بجانبه حتى وصل إلى آخرهم، فانقلبت وجوههم من الصدمة إلى الغضب والسخط الشديد، لأقول: ما رأيكم في هذا؟
رد واحد منهم بصوت أجش: هذه مهزلة، لو كنت أمرت طفلا بقيادتها لكان قادها أفضل بكثير!
لأجد آخر: كيف ينصَّبه السلطان يا سمو الأميرة!، ان استمر الوضع هكذا فستخرب أسواقنا!
وثالث: أصلا منذ أن أتى إلى القصر ونحن لم نشعر به مطلقا ودائما ما نسمع أنه سكير ويشتهي الجواري.
فأقول انا بعدما ارتاح قلبي: كلامكم أعجبني كثيرا، لذلك فقد جمعتكم لاختيار من هو أفضل منه لتولي هذه المسؤولية بما أنكم على دراية كبيرة برجال القصر.
رد مجير الدين: انه الفارس محمود خواجه أحد أقوى فرسان القصر وهو من يرأس القوافل التجارية كل عام.
لأرى آخر يتمم كلامه: أجل يا أميرة انه خير اختيار.

وعلى الفور أمرت باحضار ذلك الفارس، فدلف إلى القاعة بعد دقائق قلائل، ثم انحنى محييا ومثل أمامنا، فقلت باقتضاب: محمود خواجة لقد عيناك على رئاسة قافلة الشام، ستستكمل
العمل بدلا من الأمير ركن الدين.
- أمر سموك.
ثم أشرت له بالذهاب فغادر القاعة، بعدها مباشرة ناديت الحارس وأمرته: أرسل مع محمود خواجة أمرا مني بعزل الأمير ركن الدين عن رئاسة القافلة.
وعدت بعد ذلك لأنشغل في قضية الأراضي الجافة، فقررنا جميعا القيام بزيارة عامة لتلك المناطق، وفي صباح اليوم التالي بدأنا خط سيرنا، لا أخفي أن الطرق الصخرية كانت حقا مجهدة وأنهكتني كثيرا، لكني دائما ما كنت أشدد عضدي وأجبر نفسي على التحمل، حتى أن
كثيرا ما كانوا يعرضون على أن استريح ولكني كنت أرفض عرضهم وأقاوم التعب والعناء.
وأخيرا وصلنا إلى وجهتنا، فترجلنا جميعا عن الخيول وبدأنا نتشعب تلك الأراضي،
فلم أتوقع أن تكون بهذا السوء!
إن الجفاف جاثم عليها بشكل غير طبيعي، من الواضح أن هذا المكان لم ينل نصيبه من المطر منذ مدة طويلة.
ثم رفعت عيني ناظرة نحو الأفق إلى البيوت القريبة، فكيف يعيش الناس بتلك الأرض الميتة؟!
حتى أنني لمحت أحد أطفالهم من بعيد يتجول بين الطرقات وباد عليه النحافة الشديدة تكاد عظامه تشق جلده.
فبقيت أحدق به لفترة طويلة إلى أن قطع شرودي مجير الدين الذي لاحظ انتباهي لهذا الطفل.
- سمو الأميرة، ماذا تنوين إذا بعد مشاهدتك لشكل الأراضي هنا.
قلت وأنا أبعد عيني تدريجيا عن الطفل: ان المسألة صعبة للغاية، ربما تتطلب منا شهور.. غير موضوع الأراضي، علينا أولا إطعام هؤلاء المساكين هناك.
نظر مجير الدين ناحية البيوت لأقطع انتباهه: يجب أن نوفر لهؤلاء السكان الطعام في أسرع وقت وإلا سيموتون جوعا.
فقال بنبرة يشوبها بعض اللؤم: ولكن هذه ليست قضيتنا.. ثم لماذا نطعمهم ولن نحصل على شيء في المقابل.
فوجدتني أرد بغلظة: سيدي مجير الدين، المسألة ليست مسألة مقابل، بل مسألة حياة شعب!
فصمت في حنق، لأتركه وأذهب ناحية تلك البيوت حيث كان يتواجد الطفل، ولحق بي بعض الجنود لمساعدتي.
عندها رأيت ذلك الطفل، فانتبه إلى وجودي وظل ينظر إلي بعينين مليئتين بالخوف خاصة بعدما لمح سيفي، فاتجهت نحوه وانثنيت على ركبتي كي أصير في مستواه ثم ربت على كتفه وسألته: ما اسمك يا عزيزي؟

- جواد.
- وأين أهلك يا جواد؟
رد بحزن: لقد سافر أبي مع باقي الرجال إلى المدن المجاورة لجلب الطعام والماء، وأمي طلبت مني ان أذهب للخارج للبحث عن طعام لاخوتي.
ثم أخفض رأسه بعدها في أسى، وقتها لم أجد نفسي سوى أفتح حقيبتي المعلقة وأعطيه كل ما فيها من طعام وماء، ففغرت عيناه من الفرحة، ثم قلت له مسرعة: هيا بسرعة لا تدع أحد يراك وإلا سرقوه منك، هيا.
فأخفى الطعام أسفل إبطه ودوى يركض به بعيدا بين البيوت، وقتها شعرت بالراحة، ولكنها ليست الراحة الكاملة، فلن تكتمل راحتي إلا عندما يصل الغذاء إلى جميع الأهالي وبعدها نبدأ في استصلاح تلك الأراضي.
ثم ناديت أحد الجنود وأمرته بالذهاب إلى دلهي على الفور وبأمر مني يحصد المزارعون والتجار أكبر قدر من خيرات أرضنا ووضعها بخزائن كبيرة لنقلها إلى قرى أرض الجفاف.
فانصاع إلي على الفور وأخذ يركض إلى فرسه، فامتطاه ولكزه بقدمه كي يسرع من عدوه.
حينها كان مجير الدين واقف من بعيد ينظر إلى بتحدٍ وغضب خاصة بعدما أحرجته قبل قليل أمام الجنود، ولكني لا أعبأ بهذا فهذه مسؤوليتي التي كلفت بها، ليس لأحد الحق التدخل أنا من يقرر وأنا من ينفذ، وهذا ما تبين له من نظرتي المتبادلة مما أبعد وجهه عني في تذمر شديد.
عندئذ كل ما أمرت به قد بُدِيء في التنفيذ، وتتابعت عربات الخزائن الممتلئة على آخرها في طريقها إلى تلك القرى، كما أن همتنا على العمل زادت إلى حد كبير فور مجيء تلك الأخبار التي راودتنا مع بداية
الشهر والتي تهلل بنجاح السلطان في الإيقاع بأعداد كبيرة من جنود الخصم، مبشرة أننا سنسمع خبر فك الحصار عما قريب.
وها قد مر أربعة أشهر وأنا لازلت مباشرة العمل دون توقف، غير عابئة لنظرات تركان الحاقدة منذ أن نحيت ابنها عن رئاسة القافلة.
أما جدتي واخوتي فأصبح التقائي بهم ضئيلا للغاية، لم أعد أجد متسعا من الوقت كي حتى أطالع نفسي في المرآة.
خاصة ان في تلك الأيام قد وصلت قضية استصلاح الأراضي إلى ذروتها، فحين بدأناها منذ ثلاثة أشهر ونحن لم نكف عن العمل على الإطلاق، نكاد نذهب إلى مضاجعنا ليلا ونعاود المجيء مع طلوع النهار.
كما أني لاحظت ذلك التغيير الواضح من الوزراء معي، فباتوا يحترمونني بشدة ويحكّمون رأيي في جميع الأمور، لم يعد يبدر منهم ذلك التذمر والضيق باستثناء واحد فقط وهو مجير الدين.
فقد كان يضمر لي في قلبه حقدا خفيا لا يظهر إلا في مواقف العمل، ودائما ما يريد إثبات نفسه وإنكار وجودي حيث كان معتقدا أن السلطان سينصبه هو نائبا عنه خلال غيابه.

ويوما وراء الآخر ونحن نقترب من هدفنا، فالخطط التي وضعناها بحكمة وعناية أتت بثمارها.
فتلك الأراضي بعد أن كانت أشبه بقفار ميتة لا حياة فيها، دبت بها الحياة من جديد، وأحيلت من الأصفر اليابس إلى الأخضر الخصب.
كل هذا كان يحدث أمام أعيننا خطوة بخطوة، فكوني أميرة لم يمنعني أبدا من الذهاب إلى مناطق الاستصلاح ومتابعة العمال هناك، فقد كنت أباشرهم لحظة بلحظة ولم أسمح بتوان أو تقصير في العمل قط.
ولكن بين هوة الأحداث أتانا خبر قد أخمد فينا نار الحماس والشغف؛ إذ أن عدد كبير من جنودنا وقع في الأسر وبعض منهم وافته المنية، بالإضافة إلى السلطان و
الذي أصيب إصابة بالغة في ظهره شلت حركته فوقع على إثرها من فوق فرسه وارتطم بالأرض ارتطامة قوية كسرت ذراعه الأيسر، مما جعله يقبع في خيمته بلا حراك لأيام طوال.
وقتها كُسِرت عزيمتي، وخار نشاطي ومعه قوتي.
فمكثت بضع أيام ليس لدي أي قابلية على العمل، بالرغم من أني كنت مواظبة على الذهاب إلى المجلس كل يوم إلا أني لا أقول جديد ولا أقرر بشأن شيء.
حتى وصلنا إلى آخر العام، ولم تعد تأتينا أي أخبار عن السلطان ولا شيء بخصوص المعركة، مما جعلني أسير وأعمل بقلب غير مطمئن، ولكن كان دوما لدي يقين بأن الله سينصر السلطان وأن ذلك الصمت ما هو إلا بداية لنصر عظيم سينشب في جميع الأرجاء.
ومع نهاية هذا الشهر تحقق ما كنا ننتظره أخيرا، فقد انتهت عملية الاستصلاح بكاملها، وتحولت كل الأراضي إلى مروج خضراء ناضجة مليئة بالحيوية.
فعاد حماسنا المفقود من جديد، وسادتنا البهجة خاصة سكان القرى الذين خرجوا من ديارهم يهللون ممتنين لنا بذلك العرفان الذي أعاد إليهم الحياة مرة أخرى.
فلم أنس عمالهم الذين عملوا معنا بجد في زراعة الأرض، وكافأتهم جميعا على جهدهم العظيم الذي لن تنساه السلطنة.
فخطر ببالي وقتها أن أرسل إلى السلطان أبشره بنجاح تلك العملية لربما تصله رسالتي بالفعل ويتلقاها، ثم تراجعت مترددة فهو لم يصلنا منه أي خبر لبضع شهور.
وبقيت حائرة لبعض الوقت، ولكن بالنهاية استقر قراري على إرسالها حتى وإن كانت في مهب الريح.

وفي الأيام الأخيرة عدت أنظر إلى أمور الدولة العادية التي لم نعيرها الاهتمام الكافي خلال انشغالنا بقضية الاستصلاح.
فذهبت في جولة إلى الدواوين المختلفة أتفقدها وأتفقد العمل بها ولحسن الحظ كان كل شيء على ما يرام، ثم ذهبت إلى الأسواق لأرى كيف يسير نشاط البائعين وحركة البضائع هناك.
وإلى مخازن الأسلحة وأجور العاملين والإقطاعات وغيرها من الشئون الكثيرة،

ليتحقق يقيني..
في صباح أحد الأيام كنت وقتها بالمجلس أتناقش مع بعض الوزراء في أمر معين، لأجد أحد الجنود يدلف إلينا ركضا بوجه متهلل الأسرايرر، فبدأ يقول لاهثا: سموك، لقد انتصر سلطاننا على الأعداء وفُك حصار غواليور أخيرا!
لتتسع حدقتا عيني ويعلو الفرح وجهي بكامله بالإضافة إلى الوزراء الذين انطبعت على وجوههم ابتسامة لم أعدها من قبل، فسألته متلهفة: ومتى سيأتي مولاي السلطان؟
رد: في غضون أيام قصيرة سيشرف مولاي القصر سموك.
فحمدت الله على فضله الكبير رافعة كفيي أدعو أن يتم مجيء أبي إلينا على خير.
ومن وقتها وتبدلت الأجواء بكاملها في القصر، فبدأت جدتي عملها مع الخادمات كما تفعل قبيل أيام العيد، أما أنا وأختي فقررنا الخروج إلى الأسواق والباحات العامة في جولة بين الناس لتوزيع
المال والصدقات بمناسبة تلك البشرى السارة، ولا أخفيكم سرا أني ذاهبة أيضا لشوقي الكبير إلى تلك المناطق التي لم أعرج إليها منذ عام..

(٥)

اليوم وجهتي ستكون إلى مكان مختلف كثيرا، إنها "دلهي" مدينة العز والترف.
فالبرغم من ترحالي المستمر بين المدن الكثيرة إلا أني لم يسبق لي الذهاب إلى دلهي من قبل.
فدائما ما أسمع أن تلك المدينة لا تقيم مسابقات للغجريين أو الأشخاص مسجلي الخطر، ولكن فور علمي أنها أخيرا ستقيم مسابقة كبرى في إحدى الباحات لم أتردد مطلقا في حزم أغراضي والإنطلاق لأشترك في تلك المسابقة العنيفة، بالإضافة إلى أنها فرصة سانحة لأتمكن من اكتشاف هذه المدينة الذي يُحكى ويتحاكى عنها، فقد سمعت أن قصر السلطان يتواجد بها حيث يعيش فيه هو وأسرته، غير أن أغلب سكان هذه المدينة من الأشراف وأصحاب المقامات الرفيعة.
لكم بت ينتابني الفضول لرؤية هيئة هؤلاء البشر، وكيف أنهم مختلفون عن الأشخاص الفقراء أمثالنا كل الاختلاف.
لربما يصادفني أحدهم خلال زيارتي هناك.. ربما.

راضية

وها قد بدأت جولتنا، بالرغم من حرارة الجو إلا أن البهجة العابقة في ذرات الهواء أحالت الصهد إلى نسيم.
فكان باديا على وجوه العامة مدى فرحهم بخبر انتصار السلطان.

فأخذت تنهال علينا التحيات والمباركات من كل حدب وصوب، كما أن الأطفال انتشروا من خلف موكبنا يسيرون ويهللون بالأناشيد التي تعبر عن الانتصار والفخر والإعتزاز.
فقد قضينا طيلة الطريق ونحن نوزع الصدقات على هذا الحال، فلما وجدنا كثرة أعداد الناس بالباحات العامة قررنا أنا وأختي التفرق حيث تتخذ هي الطريق الأيمن وأنا الأيسر.
فقمنا بهذا بعدما اتفقنا على المكان الذي سنتقابل فيه عندما ننتهي، وسارت معها وصيفتها ونصف عدد الجنود كذلك سرت أنا مع عائشة والنصف الآخر.
فاستأنفت جولتي وعدت أفرق الصدقات على الجالسين في الطرق، وعلى مقربة من إحدى الباحات الكبيرة، سمعت صوت تهليل وتشجيع قوي، مما انتابني الفضول للذهاب ورؤية ما يدور في تلك الباحة.
فتقدمت بمفردي إليها وتبعتني عائشة والجنود، لأصل حتى أرى ذلك المنظر المهيب للجموع الغفيرة التي كانت تشاهد تلك المعركة المحتدمة بين أحد الرجال وشخص ضخم من مسجلي الخطر.
ولا أجد نفسي سوى أبحث عن مكان للجلوس ولسوء الحظ كانت الاماكن جميعها مشغولة بالمدرجات فاضررت للجلوس في آخر صف، وإن كانت ميزة في حد ذاتها حتى لا أثير الجلبة حولي، فتقول لي عائشة: سمو الأميرة إن سمو الأميرة شادية ستفقدك هكذا إن لم تتقابلا في المكان
المحدد.
لم أعرها اهتمام وبت أدقق النظر إلى الأرض المقعرة حيث كانت المعركة، فأثار انتباهي كثيرا ذلك الشاب والذي لم أتبين ملامحه جيدا لبعد المسافة، وطريقته
الفريدة في المحاربة غير أنه مجرد السلاح يحارب بجسده فقط، فبت أتابع ما يحدث مرتقبة على ماذا سترسو تلك المواجهة، فظل الشاب يقاتل ويدافع بمهارة كبيرة، يحاول تفادي تلك الضربات المباغتة لذلك الوحش الذي يزيده في الحجم إلى ضعفين.
ثم رأيته يفعل حركة قتالية غريبة لم أعهدها من قبل جعلت ذلك الجسد يرتمي إلى الأرض بكامله، ولكن ما لبثت دقائق حتى أجده ينهض من جديد ويهاجم بأشد ضراوة، فتقدم إليه الشاب وعاود القتال لكن لم ينتبه إلى تلك القبضة التي راودته لتجعله يتطاير ويهوى بجسده أرضا مما صرخ الناس بالمدرجات، فحاول النهوض بصعوبة شديدة بعدما تحسس ذقنه ووجد عليه بعض قطرات الدماء السائلة من فمه.
ولحسن الحظ استطاع ان ينتبه في أقل من الثانية إلى هجمة الضخم الذي كان يركض نحوه، ليثب من مكانه بخفة وسرعة لا تلاحظ بعدما كاد العملاق يسحقه سحقا.
فركض إلى الجهة الأخرى كي يصبح مقابلا له، وبدأ الضخم يحاول الانقضاض عليه، ولكن كان الشاب ينجح في الإفلات منه بجدارة.
واستمرت تلك المطاردات لبعض من الوقت إلى أن جاء دور إنهاء تلك المعركة، فوجدت الشاب يفعل الحركة ذاتها التي جعلت الضخم يرتمي أرضا بعدما ظل يبحث عنه، لأراه يقوم بها من خلفه وذلك ما استطعت التوصل إليه لفعل تلك الحركة، وأيضا لاحظت أن الضخم يمسك برقبته وهو يصيح بشده، فاستنبطت حينها أن تلك الحركة متعلقة بمكان معين في أعصاب

الرقبة تجعل الشخص يفقد صوابه، ولكن لسوء حظي لم أستطع رؤيته كيف يقوم بها بدقة لأجل ذلك السبب المزعج.
فابتعد الشاب بضع خطوات ثم وجدت ذلك الضخم ينهض بعد محاولات باءت بالفشل، فبدأ يسير في إنهاك تجاه ذلك الشاب الذي ظل واقفا في ثبات وكأنه ليس مضطر لإستئناف المصارعة فهو يعلم مصير خصمه.
ولم يكد يكمل الضخم نصف المسافة حتى رأيته قد التصق بالأرض التصاقا أبديا،
فدقت الطبول بعدها عشر مرات لتتعالى أصوات التهليل من جميع الجهات، يحيون ذلك الشجاع الذي لم تر مثله قط عيني.
فكيف لأحد أن يتخيل ذلك الشاب العادي البنية يقضي على هذا العملاق الذي أينما سار ينفض الجميع من حوله؟!
وظلت تتعالى الهتافات أكثر فأكثر وأنا معهم فرحة بفوز ذلك القوي الذي تمنيت لو أن ينضم إلى جيشنا، فبحيله الذكية في القتال سنستطيع أن نوقع بالعدو شر هزيمة.
ليأتي ما عكر صفوي..
فبينما كنت أهلل مع الحاضرين أجد يد تربت على ظهري، لألتفت إذ بأختي شادية والتي بدأت تصيح في وجهي كأني طفل صغير قد ارتكب خطأ ما: أنت هنا إذا وأنا أبحث عنك في كل مكان؟! لولا أن عائشة أرسلت من يدلني على مكانك لكنت فقدتك بين كل تلك الجلبة.
نظرت إلى عائشة بغضب لتكمل أختي: هيا لقد انتهى عملنا هنا وستقلق علينا جدتي إذا تأخرنا.
فتذمرت ثم قلت بالحاح الاطفال: اذهبي انت أريد البقاء هنا لمزيد من الوقت.
صاحت بي: راضية!، قلت لك سنذهب وإلا لاقيتِ خصام جدتي.
قطبت متأففة ثم اضطررت للنهوض غير راضية، مفارقة تلك الباحة وهذا الشاب الذي لم يفارق بالي لحظة..
وأخيرا وطأت قدماي تلك المدينة الساحرة كما يسمونها، فترجلت عن العربة مع هؤلاء الرجال المصاحبين لي والذين كانوا من المسؤولين عن المسابقة.
فاتجهنا مباشرة إلى عربة أخرى أصغر حجما تقلنا إلى مقر المسابقة بإحدى الباحات الكبيرة بأسواق دلهي.
وبتنا نجوب المدينة بتلك العربة وكنا على مقربة من الأسواق، ومعها بدأت أطالع الناس والمارة وطبيعة أشكالهم وأفعالهم، فحتى الفقير منهم تختلف هيئته عنا كثيرا.. لا أظن أن يوجد في تلك السلطنة من يعاني جوعا.
وبعدها اتخذنا منعطفا كبيرا لاح معه قصر السلطان البعيد في الأفق.
فبت أحملق به في انبهار شديد، فقد كان شاهقا للغاية، ترفرف أعلامه اللامعة في شكل بالغ الروعة، وأخذت أحدث نفسي بتساؤل هل يمكن أن يصادف يوم أدخل فيه إلى هذا القصر؟؟

ليقطع شرودي أحد الرجال ممن كانوا معي يقول لي مستهزئا: لك الحق في أن تنظر إلى القصر بكل هذا الانبهار، فالأشخاص المشردون أمثالكم لا يعرفون شكل النعيم والترف.
ضحك الآخرون؛ لأجد نفسي أقوي قبضتي على وشك الانقضاض عليه وتحطيمه إربا إربا ولكني تراجعت في آخر لحظة خشية أن يلغي مشاركتي لهذه المسابقة ويجعلهم يطردونني خارج المدينة وبذلك تضيع علي الفرصة، فأحيانا يخضع الشخص إلى تقبل الإهانات من أجل الوصول إلى هدفه، وهدفي هذه المرة ثمين، فإذا فزت في تلك المسابقة سأحظي على عملة ذهبية من عملات دلهي، فقد سمعت أن عملات دلهي تختلف عن باقي عملات المدن الأخرى؛ لكونها المقر الرئيسي لحكم السلطان.
فحتما يجب أن أتحمل لأنال ذلك الشيء الثمين.
وبعد فترة ليست طويلة بلغنا وجهتنا أخيرا، فترجلنا عن العربة وبدأنا نسير في خط مستقيم وعلى جانبينا أعداد كبيرة من الناس منتشرون بالأسواق، فمنهم البائعون الذين باتوا ينادون لبضائعهم كي يقبل عليهم الناس، كما كان يتواجد بعض المتسولين أو بالأصح متسولو دلهي، فهم مختلفون كثيرا عن المتسولين العاديين الذين أعرفهم.
بعد ذلك وصلنا إلى الباحة التي ستقام بها المسابقة وكانت وقتها خاوية من البشر،
فاتجهنا إلى المسؤولين هناك وأخذوا ممن معي يسلمون على هؤلاء الرجال، ثم ظل كبيرهم يرمق عضلات جسدي البارزة وهو يفرك لحيته، ليقول: جسدٌ لا بأس به، ولكن لا أعلم إن كان باستطاعته مواجهة قسورة أم لا.
رد أحدهم: هذا يعتمد على مدة حبسه، صحيح كم مكث قسورة في الزنزانة؟
أجابه العجوز: سنة كاملة، ظل سنة كاملة لا يهدأ هياجه منتظر اليوم الذي تُفك فيه أغلاله.
- إذا ستكون معركة شديدة الاحتدام.
وظلوا يتحدثون عن ذاك قسورة كأنه وحش ضارٍ حبيس بين الأقفاص، لذا لا غرو في تسميته بهذا الاسم لكونه شبيه الأسود والضواري، ليقول لي نفس الشخص المستهزيء في
سماجة: إذا استعد أيها المقاتل إما أن تنتصر وتحصل على العملة الذهبية، أو تمزقك مخالب قسورة وتصبح كفتات الخبز أمام جميع الحاضرين.
فيضحك الجميع من بعده، أما أنا فكنت لا أزال أحتفظ ببرود أعصابي مما جعلني ابتسم بسخرية وأرد: على الأقل سأموت بشرف، ليس كمثل أناس لا يعرفون سوى الثرثرة، فالبتأكيد إذا مثلوا فقط أمام قسورة سيتبولون على أنفسهم من فرط الرعب.
احتقن وجهه حرجا بعدما أدرك أني أقصده في كلامي ومن ثم تحول إلى غضب لأجده مقبل عليّ يضربني قبل أن يمنعه الآخرون ويقول كبيرهم العجوز ببعض الحكمة: إن لدينا الآن مسابقة، لا وقت لهذا.
ثم استطرد يأمرني: وأنت استعد فقد بدأت تتعالى أصوات الحاضرين لا نريد تضييع وقت.

أومأت برأسي إيجابا ومن ثم ذهبت إلى الخيمة لأتجهز، فنزعت اللفافة حول رأسي لينسدل شعري ومن ثم خلعت الصديري؛ فيجب أن أكون عاري الصدر ومتحرر الرأس، ثم خلعت قلادتي الفضية وغرستها بين أغراضي بإحكام لكيلا يلاحظها أحدهم ويسرقها.
وبعدها خرجت إليهم وأنا أقول في ثقة: أنا جاهز.
فنظر إلى العجوز إعجابا بثقتي، ثم صاح ينادي في الرجال بإخراج قسورة من القفص المحتجز به داخل إحدى العربات، فأسرعوا ركضا وكان باديا على وجوههم الرعب.
وما لبثت دقائق حتى وصلنا خبر بلوغ قسورة أرض المعركة، فقال لي العجوز مشجعا: هيا أيها البطل تقدم.
وقتها تقدمت نحو الباحة لأتفاجأ بذلك العدد الضخم من الحاضرين، فبدأت أهبط الطريق الرملي المنحدر بين المدرجات وهتافات المشجعين لا تكف عن الصياح غير أني وجدت مجموعة من أصدقائي الذين كانوا يجلسون في الصفوف الأولى يهتفون باسمي.
ثم وصلت إلى نهاية الطريق متقدما إلى أرض المعركة وكان قسورة بانتظاري.
فوقفت في مواجهته أتفحص هيئته خلال تلك الدقائق القليلة قبل إعلانهم بدء القتال،
فرأيته واقفا يزأر كالأسود والأغلال تتدلى من بين يديه وقدميه، لا أعرف لما شعرت ببعض الشفقة لكون مصيره بالنهاية شخص منبوذ لا ذنب له أنه أتى إلى الدنيا نتيجة خطأ امرأة عاهرة لا قلب لها رمت بابنها بين الغابات.. تاركة الحيوانات والوحوش هي من تربيه وترعاه إلى أن كبر وأصبح مثلهم يتصرف بجسده لا بعقله، فبات وجوده يشكل خطرا كبيرا ولا يوجد سوى أن يُقتل أو يُحبس بين الأقفاص.
ومن أمثاله الكثيرون ممن تقاتلت معهم في السابق، فلا يعتبرهم الجشعون سوى ورقة رابحة يجنون من ورائها الشهرة والمال، كمثل استغلالهم لهذه المسابقات التي قد تودي بحياتهم، بدلا من أخذهم وترويضهم إلى أن يصبحوا أناس طبيعيين لهم بصمة في المجتمع.
ولكن.. اعذرني يا قسورة فأنا خصمك اليوم ان كنت غير ذلك لفكرت في التكفل بك وترويضك.. ولكني سأقدم لك عرضا أفضل من كل هذا.
ومع دقة الطبول الأولى بدأت المواجهة الشرسة بيني وبين قسورة، فبدأ معها الناس يهتفون بحماس مشجعيني على القتال.
فحدث الاشتباك والذي أخذ معه يثور ذلك الوحش، يضرب ضربات عشوائية وكأنه مُسيّر لفعل ذلك دون تفكير وهذا ما تبين لي خلسة؛ فهم يشحنونهم بجرعات من مادة كيميائية تجعلهم أكثر هياجا للفتك بأي أحد يعترض طريقهم.
فتابعت أراوغه وأتفادى لكماته إلى أن نجحت بحركة واحدة من خلفه في الإسقاط به أرضا، ولكني لم أنجح كليا؛ فلشدة ارتفاعه غير أنه يزيدني طولا لم أنجح في الوصول إلى عصب رقبته والذي سيجعله يفقد صوابه حتى الموت، فلم أتعجب حينما رأيته ينهض من جديد

يقاتل بشراسة أشد، وقتها حاولت التركيز أكثر على الوصول إلى المكان المراد، فتابعت القتال والمحاربة، ولكن لم انتبه لتلك اللكمة العنيفة التي استطاعت بدورها أن تطرحني أرضا، فبدأ فكي يؤلمني بشده بعدما سالت معه قطرات الدماء، لأحاول النهوض بصعوبة ولكن لا أعلم من أي جاءتني تلك القوة التي جعلتني أقفز من مكاني حينما رأيته يهجم علي وهو يركض
بسرعة كبيرة تكاد مخالبه تفترس جسدي.
وعدت في الجهة المقابلة له، فظل يحاول الإمساك بي لكني كنت أجيد التملص.
وبقينا داخل حلقة القتال يحاول هو اللحاق بي وأنا لا أعطيه أي فرصة لهذا، فمكثت أدور في جميع الجهات أبحث عن مكان من خلفه أستطيع الانقضاض عليه والوصول إلى ذلك العصب.
وبعد محاولات عديدة أخيرا وصلت إلى مبتغاي، ليرتمي على الأرض للمرة الثانية ثم وجدته ينهض بصعوبة كبيرة محاولا الصمود بعدما خارت كل قواه.
فابتعدت بضع خطوات كي أفسح له المجال للسقوط للمرة الثالثة والأخيرة.
فظل يحاول السير بترنح إلى أن جاءت تلك اللحظة الذي توقف فيها جسده بالكامل مما دفعه للسقوط على وجهه قبل أن يغيب عن الوعي إلى الأبد.
فبدأت تتعالى دقات الطبول واحدة تلو الأخرى إلى أن وصلت للدقة العاشرة ليأتي العجوز ويمسك بيدي رافعها إلى الأعلى
فلم تكد تتوقف أصوات الطبول حتى انهالت معها أصوات الحاضرين يهللون بفوزي على ذلك الضخم ومعهم أصدقائي يزيدونهم حماسا وفرحا هاتفين باسمي.
ثم أخيرا منحني العجوز تلك العملة الذهبية التي طالما أحلم بها وقال لي: أنصحك أن تحافظ عليها، لا تبيعها لأحد هي تجلب الحظ لحامليها.
لم أعر كلامه اهتمام وقتها وبقيت أحملق شاردا بتلك القطعة الذهبية بين يدي والتي كان منقوشا عليها اسم السلطنة ومن أسفلها سيفان متضادان الاتجاه، فلم أفق من شرودي إلا على أصوات الحاضرين الذي بات يتزايد تشجيعهم لي أكثر فأكثر، فوقفت في منتصف الحلقة أطالعهم بنصف ابتسامة وكلهم فرح وسرور إلى أن وقعت عيناي بالصدفة على تلك الفتاة بآخر صف.
لا أعرف ماهية ذلك الشعور الذي انتابني فور رؤيتها، لأجد نفسي محملق بها بشكل غير عادي وقلبي ينبض بشده، كأنها كالمغناطيس الذي اجتذبني فجأة.
فبالرغم من بعد المسافة بيننا إلا أني كنت أرى ملامح وجهها وضوح الشمس.
وجه ملائكي جذاب لم أر مثله في حياتي، عينان جميلتان ذات نظرة ثاقبة، ابتسامة رقيقة، ولكنها معبرة عن مدى سعادتها وحيوية ونشاط وجهها.
إني رأيت في حياتي الكثير من الفتيات الجميلات، ولكن هذه الفتاة تختلف عنهن تماما، فليس جمال فحسب بل روح تنتزعك فور أن تلقاها.

لقد كنت أؤمن دوما أن بشخصيتي العنيدة تلك من المستحيل أن تنال أي فتاة رضاي الكامل، ولكن شاءت الأقدار أن تظهر هذه الفتاة وتغير بيدها كل شيء..
وبقيت على نفس الوضع مصوب اهتمامي نحوها وفقط، إلى أن جاء أحدهم وذهبت معه ولكن من الواضح أنها ذهبت غصبا، لتختفي عن ناظري بالكامل..
فبت أفرك عيني خشية أن تكون هذه تهيؤات بعد ذلك القتال المرير ولكن صورتها قد حُفِرت بعقلي ولن ينساها أبدا حتى وإن كانت مجرد شبح ابتدعته مخيلتي..
بالقصر:
كان ركن الدين يطالع النافذة وهو يقضم تفاحته الحمراء، فبات يلتهمها بشراهة حتى قاربت على النفاذ، إلى أن توقف فجأة فور رؤيته لموكب الأميرة راضية وأختها يعبر من البوابة؛ مما جعله يرمي بالتفاحة أرضا في غضبٍ ملحوظ، فانتبهت إليه أمه الجالسة أمام المرآة وقالت باستعجاب: ماذا بك؟
نهض عن الأريكة ومشى بعض الخطوات
، قائلا وهو يجز على أسنانه: تلك المتسلطة هي وأختها تعبران البوابة.. لكم وددت أن آتي بخنجري وأغرزه في صدرها لتسقط صريعة ونرتاح منها جميعا.
ثم توقف، لاكما قائم السرير الحديدي بقوة كبيرة.
ابتسمت أمه ساخرة وقالت: وماذا بيدك فعله الآن أيها العبقري، لقد أضعت علينا أسنح فرصة كادت تقابلنا.
عندئذ تبدل حال وجهه إلى الخوف والذعر بعد تلك الجمل المرعبة التي تفوهت بها أمه،
فذهب وجلس بالقرب منها وبدأ يقول بارتجاف: وماذا يعني هذا.. هل فات الأوان وانتهى الأمر! هل ضاعت ولاية العهد مني!!
لتنهض واقفة في ثبات أمامه قبل أن ينهض هو الآخر قائلا بنفس ذات النبرة المرتجفة: أجيبيني يا أمي لما سكتِ؟!
وفجأة انهالت على وجهه صفعة مباغتة قوية صدحت في أرجاء المكان، فبدأت تصرخ في وجهه كأنها بركان ثارت حممه: هل تسألني أنا!، هل أنا من أضعت تلك الفرصة الذهبية التي كادت توصلنا إلى مبتغانا، أخبرني!
ثم باتت تنظر إليه بازدراء هي تلتقط أنفاسها بينما كان هو واقف منكس الرأس، فابتعدت عنه وأكملت في تحسر: لا أعرف يا الله ماذا اقترفت في حياتي كي أنجب ولدا بمثل هذه السذاجة والغباء!، لو كنت أعلم ذلك لكنت قتلتك وأنهيت حياتك قبل أن تأتي إلى الدنيا.
حينها ركض إليها في عجل بعد أن غلبته دموع الحسرة وبات يقبل يديها قائلا بتوسل: أرجوك يا أمي لا تتركيني أرجوك ساعديني، ابحثي لي عن حل ينقذني من هذه الورطة.

وبدأ ينشج في البكاء هي واقفة مشمئزة منه لا تطيق النظر في وجهه، فأصدرت تنهيدة طويلة قالت في خيبة: لقد نفدت كل الخطط، انتهى الأمر.. فحتما لقد علم السلطان بكل شيء ومن المؤكد أنه سيواجهك به أمامنا جميعا.
فيزداد نشيجه أكثر وتقوم هي بلكزه بقبضتيها في منكبيه قائلة بمرارة كبيرة وكأنها تفرغ ما في صدرها من ألم: مشكلتك أنك لا تريد أن تتعب ولو للحظة.. ماذا تظن إذا!، هل لهذه الدرجة ولاية العهد بكل تلك السهولة في نظرك!!
ثم أكملت بنبرة أكثر حدة: وبالأخير هي من تفوقت وأدت مهمتها على أكمل وجه أما أنت فظهرت بدور الخاسر البائس الذي يمقته الجميع.. راضية ستنال منصب ولاية العهد يا ركن الدين ستناله أفهمت!!
فظل هو على نفس الحال مما صرخت به: كف عن النحيب كالنساء!!
ليرتشف دموعه وتبقى هي واقفة في
منتصف الغرفة حائرة، تعتصر مخها للبحث عن حل لتلك الورطى الكبرى.
راضية
التممنا جميعا حول المائدة لتناول طعام الغداء بعد ذلك اليوم الشاق، فبدأت جدتي على الفور تطرح الأسئلة بخصوص ذهابنا إلى الأسواق وماذا فعلنا وما هي المناطق التي قمنا بزيارتها، وو و..
وبالطبع كانت أختي هي المتحدث الأول، فظلت تجيبها ويتناقشان سويا بخصوص ذلك الأمر غير أن أخي ناصر قد انضم إلى حديثهما.
أما أنا فقد كنت بعالم آخر، لا يشغل بالي سوى ذلك الشاب الذي قد رأيته اليوم.
ياله من شيء غريب، لم يسبق لي الانشغال بشخص إلى هذه الدرجة!، ربما لأني رأيت به صفات لم أرها من قبل، فحقا لم تر عيناي كمثل تلك البراعة في القتال لا هنا بالقصر ولا حتى في أي منطقة أخرى.
لديه من الذكاء والدهاء ما يكفي لجعله يربح أي معركة كانت، فمن الواضح أنه يستعمل عقله أكثر بكثير من بدنه.
ليته كان منضما إلى جيشنا، فخسارة أن تفقد السلطنة أناس مثل هؤلاء، فإذا انضم إلينا سيساعدنا بالتأكيد على وضع أفضل الخطط للهجوم والدفاع في المعارك.
كم أتمنى أن أتعلم من حركاته في القتال لاسيما تلك الحركة المميزة التي قام بها اليوم، تبدو سهلة الفكرة ولكنها صعبة التنفيذ خاصة لو كان خصمك ضخم مثل ذاك.
وبت أغوص في شرودي أكثر وأكثر إلى أن أشاحت أختي بيدها أمام وجهي لانتبه إلى سؤال جدتي الذي لم يطرق منه حرف واحد إلى مسامعي وكأني كنت مغيبة عن العالم تماما.
فقلت لها على استحياء: عذرا جدتي لم أسمعك جيدا ماذا كنت تقولين.
ردت في خيبة: لا فقط ناديت راضية لأكثر من عشر مرات.

فضحك أخي وأختي ساخرين مني مما أثار ذلك غضبي، لتقول جدتي: بماذا كنت تفكرين إذا أيتها السلطانة؟
فوجدت نفسي أتلعثم في الكلام ورددت: لا.. لا شيء جدتي.
تنهدت وأكملت: لك الحق في هذا، فتلك الفترة التي مررت بها أثناء انشغالك في شئون السلطنة كفيلة لجعل عقلك لا يتوقف عن التفكير أبدا.
عاودت النظر في صحني مطرقة ثم وجدت أخي يقول: أجل يا جدتي إن أختي البطلة استطاعت أن تثبت جدارتها في هذا، لا شك أن أبي فور مجيئه سيمنحها مكافأة ضخمة.
ابتسمنا جميعا ثم قالت جدتي: بالطبع يا عزيزي إن أختك قد نجحت في مهمة مضنية للغاية، لقد صدمتني حقا فلم أكن لأعلم أنها تمتلك روح القائد وتحمل المسؤولية!
لأرد مازحة: أرأيت وكنت دائما تنهرينني عندما أخرج إلى الأسواق بمفردي.
- وسأظل كذلك حتى وان أصبحت سلطانة حقيقية.
ضحكنا جميعا ثم قالت أختي مستهزئة: كم أشعر بالشفقة على ركن الدين، فحتما ينتظره عقاب كبير من أبي.
ضحكت انا واخي ثم قالت جدتي باستحقار: لا دخل لنا بذلك الفتى هو وأمه، أهم ما في الأمر أن ابنتنا قد نجحت في مهمتها وفي انتظار السلطان لنقيم أكبر احتفال عرفته السلطنة.
ثم دعت: يارب أتم مجيء السلطان على خير، ورجعه إلينا سالما معافى.
لنردد: آمين.
نهارا في الصحراء الواسعة، كان قرص الشمس الذهبي يتوسط السماء، تتغلغل أشعته بين حبيبات الرمال، لينطلق سيل ضخم من الخيول تقدح الأرض قدحا في طريقها إلى دلهي.
فتتابع الجيش زمرة وراء زمرة والسلطان يتقدمهم ممطتي فيله الضخم وبجانبه وزيره غياث الدين.
فلم تفارق الإبتسامة أبدا وجه السلطان وظل ينظر إلى الآفاق الواسعة وهو يستنشق أكبر قدر من الهواء قائلا: أخيرا تنفست هواء بلادي من جديد.
قال غياث الدين من جانبه: حمدا لله يا سلطان على رجوعك إلى سلطنتك سالما معافى.
- الحمد لله حمدا كثيرا.. عام كامل بعيد عن وطني إلى أن مزقني الشوق واللهفة.. فحقا مهما أجاب الإنسان هذا العالم لا يبقى له في النهاية سوى وطنه.
- بالتأكيد مولاي، كلنا فداء لهذا الوطن.
ثم ظل يحدث نفسه متسائلا: ياترى ماذا فعلت راضية بالسلطنة في غيابي..

في قاعة القصر الفسيحة كانت الوفود المنتظرة قدوم السلطان قد تكاثرت في اصطفافات كبيرة، على رأسها الأميرة راضية والوزراء الذين أصبحوا يشكلون عصبة واحدة لدى الناس بالسلطنة، ومن خلفهم

تقف السلطانة والأميرة شادية والأمير ناصر بالإضافة إلى شاه تركان وابنها، أما باقي الصفوف فكانت تتكون من طوائف الشعب المختلفة منهم الحرفيين والمزارعين والعمال وفئات أخرى كثيرة.
فقد انقسمت الصفوف إلى شقين شق أيمن وشق أيسر تاركين بينهما مسافة شاسعة حتى يتيح للسلطان العبور هو وجنوده.
وما لبثت حتى دوت دقات الطبول الصاخبة تعلن أخيرا قدوم السلطان التتمش.
فُتحت البوابة الكبرى على مصراعيها، ومعها أخذت الهتافات تدوي في سماء السلطنة، فبدأ الجميع يرتبون من أنفسهم استعدادا لهذا اللقاء المنتظر، ومعهم حاملي الأعلام يقفون بشموخ في انتظار السلطان.
لتظهر طلائع الجيش من بعيد في طريقها إلى القصر، وما لبثت حتى ظهر السلطان أخيرا وفيله الضخم، فظل هو وجيشه يتقدمون مضيا إلى الأمام والجميع تخفق قلوبهم لشدة اللهفة خاصة الأميرة راضية.
فيعبر السلطان بوابة القصر، ويلحقه ذلك السيل من فرق الجيش إلى أن تخطى نصف القاعة، ثم أشار بيده إلى الجيش من خلفه ليتوقف، فتوقفت الفرق جميعها.
بعدها ترجل عن الفيل وبدأ يسير بين شقي الصفوف والجميع يرمقونه بكامل الفخر والاحترام، فارتقي إلى المنصة الكبيرة وأصبح في مواجهة كل هؤلاء الجماهير الذين نال منهم الشوق لرؤيته وسماع خطبته، كي يبدأ حديثه المنتظر: بسم الله الرحمن الرحيم، لقد شاء الله بعد هذه الرحلة الدامية وتلك الصراعات المريرة أن أعود وأقف اليوم أمامكم من جديد وأنا بكامل عافيتي وقوتي.. فقد كتب لي الله عمرا إضافي ليجعلني بجانبكم وبجانب السلطنة.
انهالت الهتافات: يعيش السلطان.
ليكمل: ففي تلك الرحلة تعلمنا الكثير والكثير وحصدنا خبرات وتجارب كفيلة لجعلنا أكثر حذرا وصمودا في معاركنا القادمة.. فالبرغم من أعداد الضحايا الذين وجدناهم يفارقوننا واحدا تلو الآخر، إلا أننا لم نتململ ولم تتزعزع عزيمتنا قط.. بقينا نحارب إلى آخر نفس
فينا، غير آسفين على الحياة، فإن متنا سنكون شهداء في سبيل الله والوطن وذلك أقصى الطموح... إن الفضل بعد الله يرجع لهؤلاء الشجعان الماثلين أمامكم، فكل جندي منهم لديه بصمة في
تلك المعركة، لم يتقهقروا أبدا ولم تكل أجسادهم عن الفتك بجنود الأعداء.. وبالنسبة لشهدائنا الكرام فقد حصدت المعركة 3 آلاف شهيدا داعين لهم بالرحمة.
وتباعا انبثقت أصوات زغاريد أمهات الشهداء من الصفوف، مرتدين جلابيب ناصعة البياض، فابتسم الجميع إليهم في حزن، ثم عاود السلطان حديثه: وبالأخير النصر من عند الله ونحن انتصرنا.. وصنعنا مجدا عظيما يُسجَل في تاريخ السلطنة للأجيال القادمة، وبالطبع لا ننسى دور كل من كلفته في تحمل مسؤولية السلطنة أثناء غيابي، أهمهم الأميرة راضية الدين والتي أبدت نجاحا رائعا في قضية استصلاح الأراضي الجافة، حيث وصلتني الأخبار أن الأراضي بأكملها أصبحت صالحة للزراعة والسكان هناك ممتنون كثيرا لهذا، فكل احترامي للأميرة راضية ومعها وزراء السلطنة الأشراف.

وبدأت الهتافات تنشد باسم الأميرة راضية، فاشتعل من خلفها اثنان كادت عيناهما تثقبانها من فرط الحقد والغل، مما جعل ركن الدين يتقدم بشكل لا واعي نحوها بعد أن أمسك بخنجره، فمنعته أمه على آخر لحظة محملقة به في صرامة شديدة كي يتراجع عن فعلته الجنونية، وما لبث حتى انفض الزحام وعاد الجميع أدراجهم ليستعد القصر لهذا الاحتفال الضخم بمناسبة رجوع السلطان.
اختفت الشمس وحل محلها القمر ليضوي بدرا متلألئا بين النجوم في سماء السلطنة العلياء، يفيض بنوره متشعبا أنحاء دلهي، وبالأخص قصر السلطان والذي بدا كنجمة مضيئة تتزين لمجيء سلطانها وراعيها ، فكان يوم مطوقا بالبهجة والسرور،
ليجتمع السلطان بأسرته في إحدى المجالس بعد عام من الغربة قد بلغ فيه الشوق أقصاه ولا يحلم سوى بذلك اليوم الذي يجتمع فيه بهم من جديد، وقد حقق الله أمنيته.
فحضرت راضية ومعها جدتها وأخوتها وكان السلطان وقتها جالسا ينتظرهم باسم الثغر، فاستقلت السلطانة مكانها بينما ذهب الباقون لتقبيل يد والدهم وأخذ مباركته، ثم استقلوا مقاعدهم، ليستهل السلطان حديثه: حمدا لله الذي جمعني بكم من جديد يا أبنائي، فتلك الرحلة لم تجعلني واثقا من لقائكم مرة أخرى.
راضية: أدامك الله لنا سالما معافى يا مولاي.
ولم تكد الأميرة تنتهي من كلماتها حتى وجدت باب القاعة ينفتح فيدخل منه هذان متصنعي الفرحة ببسمة كاذبة كشفتها هي فور رؤيتهما.
فتقدما إلى داخل القاعة ثم اتجها يقبلان يد السلطان بعدها استقلا موضعيهما، حينذاك بدأت زفرات تُصدر من الباقية معلنة عن الضيق الشديد لحضور هؤلاء.
فتقول شاه تركان بتودد: حمدا لله على سلامتك مولاي.
ثم نظرت لابنها بصرامة تجبره على إلقاء التحية، فنظر إليها بخوف وقال متلعثما: حمدا لله على سلامتك مولاي.
لم يرفع السلطان عينيه إليهما واكتفى بهز رأسه فقط، ثم استعاد ابتسامته وطفق يتحدث: لقد قررت بعد هذا الانتصار الكبير أن أقيم حفلا في مساء الغد يشهد به جميع من في السلطنة، فسيحضره جميع الناس وسيكون حينها في إحدى الباحات الضخمة ليتمكن الجميع الحضور.
قالت السلطانة باستعجاب: ولكن ألن يكون داخل القصر؟
- لا يا أمي، أنا لا أريد التفرقة بين شعبي، فمثلما نحن السلاطين والأمراء نسعد؛ من حقهم أيضا أن يسعدوا ولهذا لن أكتفي بدعوة الأمراء فقط، بل كل من يحب أن يحضر من أهالي السلطنة، فالدعوة مفتوحة للجميع.
لم ينل هذا إعجاب السلطانة ثم أكمل السلطان: ومن أسباب إقامتي لهذا الحفل أيضا هو لحظة التكريم التي ينتظرها الجميع.

ليظهر التوتر على كل من تركان وركن الدين خشية أن يتحقق ما قد تنبأا به، فنظرا إلى بعضهما البعض في ترقب، في حين أن الباقية ابتسموا بعدما فهموا ما يدور برأس السلطان، فأكمل: إن ابنتي راضية قد نجحت في المهمة التي كلفت بها نجاحا قاطعا وأبدت أداءا بارزا
في حكم وإدارة السلطنة لم يعهده أحد على امرأة من قبل، لذلك فبموافقة مني ومن جميع الوزراء سأعينها منصب رئاسة الوزراء حيث تكون هي اليد اليمنى لي في جميع الشئون.
تهللت أسارير السلطانة وباقي الأسرة بينما كانت راضية مصدومة غير مصدقة أن تنال منصبا كبيرا مثل هذا فقالت: ولكن يا أبي ألا يرأس السيد محمد الحلبي هذا المنصب؟
- بلى، ولكن السيد محمد الحلبي قد بلغ من الكبر ما لايسمح له باستكمال وظائفه؛ فهو لم يعد يحضر إلى المجلس بسبب مرضه وملازمته الفراش؛ لذا حان الوقت لنعين رئيسا جديدا للوزراء يستكمل المهمة.
انفرجت ابتسامتها قائلة بامتنان: شكرا لك يا أبي حقا.. لم أكن لأصدق أن أنال مناصب كبيرة مثل هذه يوما.
ابتسم السلطان قائلا: بل تستحقين أكثر من هذا يا بنيتي.
وفي تلك الأثناء كان يتواجد بركانان على وشك الانفجار، فقد أحسا أن لم يصبح لديهما أي قيمة في تلك الجلسة ومن الأفضل أن يبرحا ذلك المكان الخانق لكليهما، فظلت تركان تحاول التظاهر بالفرح من أجل راضية، فقالت من وراء نفسها: مبارك يا أميرة راضية.
وقتها احتقن وجه ابنها من الغيظ وكاد ينهض وينزع خنجره من غمده ويغرسه في صدر الأميرة لولا أمه التي ظلت قابضة على يده حتى لا يذهب عقله فجأة ويفعل ما يريد.
عندئذ انتقل السلطان إلى شق آخر من الحديث وبدأت تتحول نبرة صوته من الهدوء إلى الغلظة، فقال: ولكن.. هناك أناس قد أهملوا المهام التي كلفوا بها، ظانين بأني غافلا عنها ولا أعلم لأمرها شيء.
ازدرد ركن الدين لعابه في بالغ الذعر، ثم أكمل السلطان: لكني لن أدعهم من دون عقاب وحتما سيدفعون ثمن خطئهم غاليا.
ثم قال موجها بصره إلى الأمام: من فضلكم اتركوني مع ابني ركن الدين.
فهم الجميع غاية السلطان وبدأوا ينهضون جميعا بما فيهم شاه تركان والتي ظل ركن الدين يتشبث بها متوسلا ألا تتركه، فنزعت يده عنها هي تنظر إليه في خيبة وغادرته، ليبقى هو والسلطان وحدهم بالقاعة.
فيتقدم ركن الدين إلى السلطان ويمثل أمامه، بينما ظل الأخير جالسا ينظر إلى الأسفل بشرود مقلق، فبقي ركن الدين واقف يطالعه بارتجاف بعدما أصبح لا يشعر بأطرافه من فرط الذعر.
لينهض السلطان ويقف في مواجهته فيرمقه بنظرات جامدة، وساد الصمت لبضع ثوان حتى تنشب بعده لطمة صاخبة جعلت جسد ركن الدين يهوى مرتميا إلى الأرض بعد أن اصطدم بطاولات الشراب وأسكبها جميعها، بالإضافة إلى قلنسوته التي طارت بعيدا، فتفاجأ خلالها بفمه ينزف الدماء من شدة اللطمة.

وبات ملاصقا الأرض يتألم من جرحه العميق، حينها استدعى السلطان بصوت قوي الحارس ليجلب أحد الوزراء المسؤولين عن تنفيذ قراراته بالسلطنة، وسرعان ما أتى ذلك الوزير
بقلمه ودواته ليأمره السلطان أمام ركن الدين: اكتب هذا القرار أن الأمير ركن الدين فيروز لم يعد له الحق في امتلاك أي مناصب في الدولة حتى بعد موت السلطان وسلبه أحقية ولاية العهد، كما أنه يُمنَع من حضور الجلسات والمؤتمرات الرسمية وتكليفه فقط بالعمل كجندي.
وقتها كان ذلك الوزير يدون قرارات السلطان بيد مرتجفة، خائف من تلك العينين اللتان ترمقانه وكأنها حرائق مندلعة مستحيلة الإخماد.
بعدها ناول السلطان الختم ليختم به على الورقة وبهذا يكون أمره قد قضي بلا رجعة، فظل ركن الدين يزفر بشده بنظرات شزراء تضمر الكره والبغض المنقطع للسلطان والذي قال بتحسر: لقد ضاعت آمالي فيك إلى الأبد يا ركن الدين.
يذهب ويتركه بالقاعة وحيدا يتحارب مع غضبه بعدما نهض وخرب كل ما يوجد من أثاث ومتاع، فقد أحال قاعة الجلوس إلى حظيرة كان يعبث بها أحد الحيوانات الهائجة.
فينتهي به الحال مرتميا على الأرض يبكي بشدة وينتحب داعيا على الأميرة راضية متمنيا لها الموت هي السبب في كل ما جرى له، فتوعدها بالقتل ولو حتى وقف السلطان نفسه بوجهه حتما سيقتلها!
وسرعان ما ذهب ركن الدين إلى غرفته، فنزع خنجره من غمده وبدأ يحد النصل بعنف شديد متصببا عرقا ودما، لتأتي أمه وتراه بهذه الحال المرثى لها، فاستحال وجهها إلى الذعر صارخة فيه: ماذا تفعل؟!! وما هذه الدماء أسفل فمك!!
رد بينما كان منهمكا في حدادة النصل: سأقتل راضية.
صرخت مجددا بعدما حاولت نزع الخنجر من يده: هل جننت كف عن هذا الهراء!!
ليرواغها ويعاود حدادته بعنف أشد قائلا: دعيني أقتلها يا أمي، أريد أن أبرد دمي المشتعل!
ثم انتهى من حدادة النصل وأسرع كالثور الهائج به نحو الباب ليخرج، ولكن سبقته أمه فسدت فتحة الباب بكلتا ذراعيها قائلة: لن تخرج.
حاول ابعادها بقوة وصاح: دعيني وشأني يا أمي!!
ظلت تمنعه وهو يصدها إلى أن دفعها بعنف لترطدم بالحائط ويخرج هو مهرولا
بخنجره يمضي قدما، فلم تنتظر التأكد من سلامة ذراعها المرطدم وبسرعة قامت باللحاق به، فظل يسرع من خطاه أكثر وأكثر هي من خلفه تركض إلى أن نجحت في الإمساك بطرف عبائته لتجذبه إليها بكامل قوتها فيرتد إلى الخلف ولحسن حظهما أن كانت الطرقة وقتها
خالية من البشر.
فبدأت تلك التصادمات من جديد وأخذت تمنعه وهو يحاول التملص من بين يديها صائحا: لا أعلم لما تمنعينني من قتلها، دعيني أقتلها لنرتاح منها جميعا.

فقالت بهمس بالقرب من أذنه هي مواصلة إيقافه محاولة ترويضه: حسنا، ولكن لندخل إلى الغرفة ونتناقش أولا وإلا سيعلم السلطان بأمرك ولن يتردد في قتلك.. هيا يا ركن الدين
ليس من الذكاء ما تفعل.
بدا أنه اقتنع بكلامها قليلا فتوقف، لتربت هي على كتفه قائلة: اهدأ.
فهدأت زفراته قليلا ومن ثم توجه مع أمه إلى الغرفة.

دخلا، كي تغلق الباب باحكام شديد وتأمره بالجلوس على أحد المقاعد، فجلس بينما ذهبت هي تجلب ما يوقف نزيفه المنهمر، فأحضرت المرهم والأغراض وبدأت تضمد جرحه مما تأوه بشدة، ثم قالت بكل هدوء: لطمك السلطان أليس كذلك.
رد: كنت تراقبينا إذا.
- لا توقعت فحسب.
رد في حنق بعد أن أنهت معالجة الجرح وأتت بضمادة لوضعها فوقه: ما كل هذا البرود في صوتك، لم تعد تهتمين لأمري أبدا، وكأنك حصلت على ما تريدين لنفسك وتركت ابنك
تعبث به تيارات الرياح العاتية.
ردت بالنبرة ذاتها: لو كنت في حال غير هذه لكنت أعطيتك لطمة لا تستطيع بعدها تحريك لسانك لتتأدب معي في الحديث مرة أخرى.
أمسك لسانه عن الكلام وظل قاطبا لتسأله: أخبرني.. ماذا حدث إثر تلك اللطمة؟
لم يستطع الرد، وبدا على وجهه الأسف والخجل معا فظل منكس الرأس لا يقوى على النظر إلى عينيها وإخبارها بما سيشعل حتما نيرانها، وساد السكون ليقطعه بقوله: لقد أصدر السلطان قراره بسلب ولاية العهد مني.... وأيضا عدم منحي لأي منصب رسمي في الدولة.
طرقت بعدها شاردة لهنيهة بعينين شاخصتين، فنظر إليها ركن الدين خائفا من ردة فعلها تجاهه، وظل متوجسا لسكونها المقلق كهدوء ما قبل العاصفة، لتقول هي لاتزال على نفس حالتها: إذا لابد من الخطة البديلة.
رمقها في استعجاب قائلا: أي خطة؟
ابتسمت إليه في مكر قائلة: أبشر سيتحقق ما تتمناه.
صُدم ثم قال: هل تقصدين أننا سنفت..
هزّت له رأسها إيجابا قبل أن يكمل كلماته في خبث كبير، فأطرق يفكر ثم قال: وكيف
ستقومين بهذا يا أمي؟
لتنهض عن مقعدها وتقول بينما كانت تتجول في الغرفة: لا تقلق كل شيء مخطط ومرتب له، والرجال جاهزون على أتم الاستعداد منتظرين فقط إشارة مني ببدء عملهم.
وثب في فرحة كبيرة واتجه نحوها قائلا وهو مطوق ذراعيها: أنت منصفتي الوحيدة يا أمي.

قالت: ولكن لا تفرح كثيرا كنت أتمنى أن ألجأ لحل آخر دون إراقة دم ولكن أنت من اضطررتني لفعل هذا.. لذا هذه آخر فرصة لك ويجب أن تتعلم من أخطائك ووقتها لن يكون هناك غيرك لحكم السلطنة بعدما تموت تلك السليطة وتصبح أنت وليا للعهد لا أحد سواك.
- أعدك يا أمي لتمت تلك المتعجرفة أولا ومن ثم ترينني خادما تحت قدمي السلطان.
ردت ساخرة: أتمنى ذلك.
- ولكن أمي كيف سنأتي بتلك الفرصة لقتلها إنها دائما بالقصر يحيطها الجميع.
ابتسمت وقالت: وهل تظنني غبية مثلك، من قبل أن يجمعنا السلطان وأنا أعلم بكل ما سيحدث ويترتب.. وبالطبع دبرت أموري وأتخذت احتياطاتي، فمنذ الأمس وانا أمرت فاطمة أن تذهب وتتجسس عليها هي وعائلتها وتفرق بعض الخادمات بينهم خلسة؛ لتأتي لي بالمعلومات التي ستساعدنا على القيام بمهمتنا.
- وهل وجدت بالفعل فرصة سانحة؟
- بالتأكيد.. أسنح فرصة على الإطلاق هي قتلها خارج القصر.
فرك ركن الدين لحيته قائلا: كيف؟
- غدا ستذهب إلى الأسواق مع إحدى صديقاتها، وعندما تجلب فاطمة مزيدا من الأخبار سأجتمع بالرجال على الفور ومن ثم ينطلقوا وراءها بين الأسواق.
فغرت عينا ركن الدين قائلا: يالك من ذكية كبيرة يا أمي.
ابتسمت ثم قامت بغرز طرف الخنجر في الطاولة بقوة مما ثقبها وكأنها تتوعد لما ستفعله براضية.

(٦)

راضية

قبل بضعة أيام قد وصلتني رسالة، لأفاجأ براسلها " صديقتي هدى ".
كان قد مر عام منذ رؤيتها، فوقت أن تزوجت هي اعتادت أن تزور أهلها مرة أو مرتين على الأكثر كل عام نظرا لأن المدينة التي ارتحلت إليها بعيدة جدا عن هنا غير أن طفلها لا يقوى على تحمل مشاق الطريق.
لذا أظل على تلك الوتيرة كل عام انتظر رسالتها لاعلامي بقرب مجيئها، فأستعد للقائها ونتقابل كما تعودنا منذ صغرنا في الأسواق، بالرغم من أنه مكان غير لائق لزيارة إلا أنه يمثل لي الكثير من ذكريات وأحداث في الماضي.
وها قد أتتني الرسالة المنتظرة لهذا العام، فتهللت أساريري لشوقي إلى رؤية صديقة طفولتي، ولكن ثمة شيء طريف، فقد أرسلت برفقة الرسالة لفافة بها رداء وردي طالبة مني أن أرتديه عندما ألقاها، حيث كتبت أنها تعلم أني لا أملك رداءا يصلح للذهاب إلى الأسواق فهذا الرداء مناسب جدا لجعلني أشبه العامة.

ضحكت وقتها، وبت على استعداد للقائها في ذلك اليوم التي حددته هي لوصولها، فلدي من المغامرات الكثير والكثير لاخبارها وخصوصا توليتي لحكم السلطنة كما أني سأحضرها معي إلى القصر عندما أعود؛ لحضور حفل تكريمي هذه الليلة.
ليحن الميعاد وكالعادة يجب أن أستأذن من جدتي أولا قبل ذهابي بمفردي إلى الأسواق فبعد جدال وإلحاح طويل وافقت على مضض، ولكن لا أعلم هذه المرة لما كانت معترضة إلى هذا الحد على ذهابي، ففي المرات السابقة كانت توافق دون عناء في الطلب أما هذه المرة ظلت تقول" لا أريدك أن تذهبي خارج القصر أشعر أن الخطر قريب منا".
وباتت تحذرني وعلى وجهي التعجب وبعض السخرية من قلقها الزائد، حتى أختي شاركتني هذا.
فأخذت أطمئنها وعدتها بألا أتأخر، وبالأخير وافقت على ذهابي هي لا تزال غير مطمئنة.
بعدها انطلقت على فرسي مسرعة إلى الأسواق مرتدية ذاك الرداء الوردي كما وصتني هدى، ولكن كانت كلمات جدتي لا تزال تؤثر في نفسي، وأحسست بالفعل أنها لا تقول ذلك عبثا، بل ثمة شيء ليس بخير ربما يحدث.
فشتت ذلك الأمر انتباهي كثيرا طيلة الطريق وبقيت أفكر بشرود عميق.
حينها حاولت تدارك تلك الأفكار على عجل وتصويب انتباهي فقط نحو ما أنا مقبلة عليه بعد قليل.
اليوم سأرحل عن هذه المدينة، فقد انتهت المسابقة وربحتها لذا لا داعي للبقاء ويجب أن أعود إلى عملي كمعلم في "
بهادورغاره "، أليس كذلك؟
إن من المنطقي أن تكون الإجابة بنعم، ولكني هذه المرة أقول لا أعلم... فمنذ أن رأيت تلك الفتاة وأنا لم أبرح التفكير بها لدرجة أني في اليوم التالي من انتهاء المسابقة ذهبت إلى تلك الأسواق من جديد وبت أتفقدها بحرص شديد بين جميع الناس وكأني دبٌ جائع يبحث عن طعامه بشكل لا إرادي ليبقى على قيد الحياة.
فلم أجدها على الإطلاق، لأعاود البحث في اليوم الذي يليه حتى استمر بحثي عنها في تلك المدينة ما يقرب لأسبوع كامل ومع الأسف كل محاولاتي باءت بالفشل.
لا أعرف كيف استطاعت تلك الفتاة أن تهز كياني وتجعلني بعدما كنت لا اكترث لأمر أحد أبقى مولعا بالتفكير بها.
ياله من أمر عجيب حدث في وقت قياسي جدا!
إنها بالفعل وكما يقولون استطاعت بجدارة أن تخترق شغاف قلبي المتحجر.
ولكن من أين لي بمكانها، يا ترى أين أنتِ؟، أين ذهبتِ؟
وكأنها شبح ظهرت فجأة واختفت فجأة.. فربما كانت مجرد هلاوث بصرية صنعتها مخيلتي في لحظة من التعب والإرهاق.

على كل حال.. لم يعد هناك مجال للبقاء ويجب حتما أن أحزم أمتعتي وأعود أدراجي حيث حياتي المعتادة الحافلة بالترحال واشتهاء المسابقات وأيضا طلابي الذين ينتظرونني على أحر من الجمر لاستكمال تعليمهم وتدريبهم، لذا ستكون وجهتي القادمة إلى " بهادورغاره ".

بين أسواق دلهي:

كانت راضية بالفعل قد بلغت وجهتها، لتهبط من أعلى الفرس، وتسلمه إلى أحد الباعة بعد أن أعطته قدرا من المال استئمانا عليه خلال جولتها.

فبدأت تجوب الأسواق باحثة عن ذلك المكان الذي اعتادت ان تتلاقى عنده هي وصديقتها.

وبالفعل وجدتها واقفة في آخر الطريق تنتظرها والإبتسامة جلية على محياها، فاتسعت ابتسامتها لاسيما أنها وجدتها ترتدي نفس ردائها الوردي.

فأسرعت الخطى إليها بشوق ولهفة كبيرة، وما كادت تصل حتى تعانقتا عناقا حارا بعد طول انتظار.

فقالت راضية ضاحكة: نبدو كتأومتين نرتدي نفس الرداء.

ردت هدى بنفس ذات النبرة: أجل أردت تقليد ما كنا نفعله ونحن صغار أتتذكرين كنا نرتدي نفس الملابس.

- بالتأكيد كيف لي أن أنسى ذلك.

- لكن إياك وأن تكوني قد خرجت من دون إخبار جدتك كما ذي قبل.

- وهل أجرؤ على فعلها!

ضحكتا كلتاهما وظلا خلال سيرهما يتبادلان أطراف الحديث ويلقون النكات إلى أن توقفتا عندما طلبت هدى أن تذهب لشراء بعض الطعام لطفلها، فاستأذنت وظلت راضية واقفة تنتظرها، وما كادت تكمل دقيقتين حتى تلقت ارتطامة قوية بظهرها جعلتها تسقط، لينغمس وجهها في برميل بودرة الألوان الحمراء.

ظل ذلك الشخص الذي صدمها خطأً يجذب ذراعها محاولا إخراجها، وسرعان ما نجح في ذلك، ولكن ما إن أخرجها ورأى وجهها الذي ابتلعته البودرة الحمراء حتى انهالت عليه نوبة من الضحك الهستيري جعلتها ترمقه في استعجاب قبل أن يكون غضب ساحق، فبات يحاول تمالك نفسه وقال بينما لايزال يضحك: اعذريني يا آنسة ولكن مظهرك مثير للضحك كثيرا.

لتقطع ضحكه بقولها بعد أن تملكها الغضب: لم أر في حياتي شخصا بمثل هذه الوقاحة والبرود!، أليس من المفترض أن تعتذر وأنت السبب في كل ما حدث الآن؟

رد مستنكرا: أعتذر؟

ثم دنا منها قليلا وقال بابتسامة ماكرة: ولما لا تقولين إنك تعمدت فعل هذا معي كما تفعل باقي الفتيات.

ليغمز لها بطرف عينيه الخضراوين في خبث، مما جعلها تحملق به في ذهول بعد أن عجز لسانها عن الرد، وفجأة صاحت في وجهه: أنت قليل الأدب!!

فضحك في ثقة مثيرة للاستفزاز، بينما ودت هي لو أن تقوم بلكمه في وجهه ولكنها تراجعت حتى لا تستثير الجلبة حولها وتنكشف هويتها.
وعندما كان سيرحل تراجع كي يقول لها: صحيح، أنصحك أن تزيلي هذا سريعا عن وجهك، وإلا سيرتاع منك الجميع.
ثم قام برفع لها التحية وذهب، فظلت ترمقه وهو يبتعد بغضب شديد، قائلة: شخصٌ سخيف!
بعدها التفتت نحو الجهة الأخرى لتجد مجموعة من الأطفال ملاصقين لبعضهم البعض محملقين بها في توجس وخوف، فلم تلبث أن تنظر إليهم حتى رأتهم يفرون جميعا بعزم ما فيهم
مرددين: اهربوا من الوحش!
لكزت الأرض بقدمها في سخط بعدما تأكدت أن كلام ذلك الشاب صحيح، وأنها حقا مرعبة، ثم لم تجد سوى أن تسرع لغسل وجهها لإزالة تلك البودرة، فهرعت إلى حوض الماء القريب وأخذت تفرك وجهها بعنف وشده تلقي السباب على هذا الشاب المتعجرف الذي لا يعنيه أحد، وبعد فترة وجيزة انتهت من تنظيف وجهها فتتفاجأ بعائشة تسير بين الناس من بعيد وكأنها
تبحث عن أحدهم، وتلقائيا أدركت أنها هنا تبحث عنها لاخبارها بشيء ما هام جدا لا يحتمل التأجيل مما أثار ذلك قلقها، وبسرعة توجهت إليها وباغتتها من خلفها بقولها: عائشة ماذا تفعلين هنا؟
التفتت عائشة سريعا وقالت بأنفاس لاهثة: سمو الأميرة! حمدا لله أنك بخير.
رمقتها باستعجاب قائلة: بخير؟!، ماذا يجري يا عائشة؟؟
- سمو الأميرة لا وقت لنضيعه، يجب عليك الهروب حالا.
- ماذا؟، أنا لا أفهم شيئا!
- أرجوك يا سمو الأميرة إن بقيتي هنا لمدة أطول فستقعين فريسة في أيدي رجال تركان وسيقومون بقتلك.
- ماذا!!
- أجل لقد رأيت وسمعت كل شيء.....
بعدما خرجتِ من القصر، كنت مارة باحدى الطرقات الضيقة، فبالصدفة سمعت همس ما صادر من أحد الأركان، فأبطأت من خطاي وبدأت أسير على أناملي في ترقب، لأرى في مخزن الخردة تركان ومعها بعض الرجال لا أتذكر عددهم، ولكنهم كانوا متخفيين في زي حراس، فوجدت أحدهم يقول بأنهم قد حفظوا ملامح وجهك جيدا وميزوك بلون ردائك الوردي، بعدها أعطتهم تركان سرر من المال قائلة بأن ذلك تحفيزا لهم إلى أن يحصلوا على الجائزة الكبرى بعد أن يجلبوا لها دماءك في قنينة ويرسلوا جثتك إلى القصر.
ولكن كدت أنكشف حينما لم انتبه لذلك المقعد الخشبي الذي ارتطمت به، فتأوهت من دون قصد مما أثار الصوت انتباههم، وقتها تيقنت أنهم بلا ريب سيخرجون للبحث عن صاحب الصوت، فلم أجد سوى أن

أركض بعزم ما في ولسوء الحظ كان قد لاحظني أحدهم وبدأ يركض ورائي، لكنه لم يتبين ملامح وجهي واستطعت بجدارة أن اختفي عن أنظاره وأركض
بسرعة فائقة لم أعهدها من قبل!
عندئذ لم يسعني سوى أن أهرع إلى الأسواق وأركض إليك لاعلمك بهذا الخبر بأسرع ما يمكن.. هيا يا أميرة إنهم في طريقهم إليك يجب أن تهربي.
- لكن.. ألا يوجد حلا آخر غير الهروب؟
- في ظل تلك الأثناء للأسف لا يوجد.
ارتبكت راضية إلى أقصى حد وظلت تلتفت يمينا ويسارا لا تعرف كيف تتصرف أو تتخذ من قرار، لتعاود عائشة إلحاحها: بماذا تفكرين الآن لا يوجد وقت إنهم حتما قد وصلوا إلى هنا ولا شك أنهم قد بدأوا عملية البحث عنك.
- ولكن ماذا سأفعل بأبي وجدتي، كيف سأختفي عن الجميع فجأة في لمح البصر!
أجابت عائشة بأسى واضح: لا يوجد غير هذا يا سمو الأميرة..
الأهم الآن هو أن تبقي بعيدة عن القصر لفترة، لا أعلم كم يوما يجب أن تكون، ولكن الأوضاع حاليا في أوج خطورتها، والعلم عند الله ماذا سيحدث بعد ذلك.
حينها لم تجد راضية سوى أن تنصاع لأحكام القدر وتتأهب لرحلة مريرة مليئة بالأحمال والمتاعب، فقالت: حسنا سأغادر.. ولكني قد تركت حمزة "الفرس" عند أحد الباعة لا تنسي أن ترجعيه إلى القصر.
أومأت عائشة في حزن بعدما بدأت الدموع تتسلل من عينيها لتقول راضية: استودعكِ الله يا عائشة.
استوقفتها بقولها: إنه ليس وداعا يا أميرة بل لقاء، سنلتقي من جديد وسيجمعنا الله على خير إن شاء الله.
لم تستطع راضية تمالك دموعها وقامت باحتضان عائشة، لتمضي بعدها نحو العربات المسافرة مهرولة في ترقب وعائشة واقفة تتابعها بقلب محترق منكسر لا تعلم ما يخبئه القدر بعد لأميرتها ولكن ما تتيقن منه أن الله سيجمع شملهما من جديد وستعود كما هي وأقوى من تلك الرحلة التي لم تبدأ بعد..
راضية
وها قد أخبرتني عائشة بما كنت أنتظره..، فمنذ اللحظة الأولى وأنا أعلم ما ستدبره تركان من انتقام لتلقي بي إلى حافة الهاوية.
ولكن دائما ما كنت أتجاهل ذلك الأمر واتعمد الظهور بكامل قواي وعدم اكتراثي لأي من حيلها، إلا انني أعلم من داخلي ما تستطيع فعله وأن لديها من المكر ما يكفي لجعل ما تشرد به فقط يتجسد أمامها في غمضة عين؛ لذا مبارك لها فقط ربحت هذه المرة.
وفي هذه اللحظة أعلم أن لم يعد من حقي اتخاذ أي قرار بشأن شيء ويجب علي حتما أن أواجه مصيري بنفسي، فإن كان مقدر لي العودة فسأعود أما إذا كان الموت هو المصير فسلام على هذه الدنيا التي أصبح فيها الأخ يأكل لحم أخيه، وتحللت فيها الضمائر وتفككت لتفنى في أرض الهلاك، فلا يتبقى سوى روح الشر تعبق في جميع الأرجاء، مجتاحة قلوب البشر، وكأنها تقسم كل يوم لن أبقي روحا واحدة طاهرة على هذه الأرض.

وبعد بحث شاق في موقف العربات وجدت أخيرا عربة على وشك المغادرة إلى مدينة " بهادورغاره "، لم أكن لأذهب إلى تلك المدينة يوما ولكن سمعت عنها من قبل وأنها قريبة من دلهي.
فلم أجد نفسي سوى أعطي السائق المال وأصعد إلى العربة لأصطف بجانب النساء حيث كانت تتكون من عربة للنساء وعربتين للرجال.
فجلست وبت ألهث بشدة بعد أن أسندت رأسي إلى جدار العربة وقد كان باديا عليَّ الخوف والاضطراب خاصة اني كنت اراقب ما يحدث بالخارج في حذر، مما دفع المرأة الجالسة بجانبي أن تسألني: هل أنتِ بخير؟
حينها انتبهت إليها ولكن اضطرابي كان قد زاد أكثر من البداية، فأجبتها بابتسامة مصتنعة: أجل.
ثم لم تمر دقيقة لأجدها تسألني: أ أنت من دلهي أم بهادورغاره؟
التفت إليها مرة أخرى وشعرت وقتها أنها تريد فتح معي حوارا ولكن كان من الواضح أنها ليست من هنا فمظهرها وطريقتها في الحديث لا يشيران أبدا أنها من سكان دلهي، لذلك أحسست أن لا يوجد خطر في الحديث معها لكن عليَّ توخي الحذر، ثم أجبتها: من دلهي.
قالت لي تلقائيا من دون حتى أن أسألها: وأنا من بهادورغاره.
حينئذ شعرت وقتها ببعض الراحة هذا لأن احساسي كان في محله، ثم سألتني: إذا أنت ذاهبة لغرض ما وليس سكنا.
أجبت: أجل.
ثم رأيتها قد بدأت تفيض بالكلام وأخذت تتحدث عن دلهي وتخبرني آراءها حيث هذه أول مرة لها هنا، بالرغم من أني يجب ألا أطيل في الحديث مع أحد حتى لا تنكشف هويتي إلا اني شعرت بالاطمئنان ناحية تلك المرأة لا أعرف لماذا، غير أنها تبدو في مثل عمري وهذا أعطاني القابلية للحديث معها، فظلت تحدثني عن رحلتها بدلهي والصعاب التي واجهتها وكنت أنا منصتة إليها عالأقل شيء ما ينسيني هول ما كنت فيه قبل قليل.
لتسألني في منتصف الحديث ذاك السؤال الذي لا أعرف إجابته حقا.
- بالمناسبة، ما اسمك؟
عندها نسيت نفسي فقد كنت سأتهور وأخبرها باسمي الحقيقي حيث لم أقل سوى: را..
فوجدت بعدها لساني قد شُل تماما نتيجة لإشارات المخ السريعة التي نبهتني بأني يجب أن أخفي هويتي عن الناس بالكامل.
وبالطبع رمقتني باستعجاب ودهشة فهل من انسان عاقل يتلعثم في قول اسمه!
أما أنا فكنت في ورطة حقيقية، فكيف لي أن آتي باسم أولى حروفه الراء والألف في وقت أقصر من الثانية لكي تصدقني!
وبسرعة راودني اسم أولى حروفه تطابق اسمي وهو " راجيني "، فمن اليوم ماتت راضية وحل محلها راجيني.

- راجيني.
فعادت إلى وجهها البشوش النيّر والذي كان سببا في شعوري بالراحة تجاهها، فقالت لي بابتسامة ظهرت فيها أسنانها ناصعة البياض: وأنا مادهوري.
فابتسمت إليها لربما تكون هي دليلي في هذه الرحلة، ثم وجدنا آخر مجموعة من النساء تصعد إلى العربة لينغلق الباب الخشبي وتبدأ بعدها العربة في التحرك استعدادا للرحيل.
فمع أول دفعة إلى الأمام وجهت بصري صوب النافذة، أتابع كل قطعة أرض نفارقها كلما تقدمنا خطوة.
ففي كل خطوة تزداد المسافة أكثر فأكثر ومعها يزداد بؤسي أكثر فأكثر..
وكأني كالمطرود من أرضه..
لم أر في حياتي رحيلا أقسى من ذاك الرحيل.
فمن يراني يظنني مجرد مسافرة عادية ولكني في الحقيقة أسيرة، أُجلِست في عربة بين أناس لا أعرفهم ذاهبة إلى أرض لا أعرفها..
لا أعلم ما هو المصير، ماذا ينتظرني بعد يا ترى؟، هل سأنجح في الهروب من أيدي تركان أم ستكون رقبتي بالنهاية من نصيب سيفها؟
لا أعلم حقا.. فأنا كريشة تطيرها الريح كيفما شاءت، غارقة بين أمواج بحر لربما يرأف بي نهاية ويوصلني إلى بر الأمان..
وبعد فترة كانت معالم دلهي قد باتت شيئا ضئيلا جدا من على بعد كل تلك المسافة، فأنا لم أبرح النظر إلى النافذة قط.
لنستعد بعد ذلك للدخول إلى طريق الغابة المظلم..

بالأسواق:

- أفٍ!، ألا تريد تلك الفتاة أن تظهر، لقد مكثنا قرابة ساعة نبحث ولم نسفر بأي شيء سوى احتراق وجوهنا!
- أجل برأيي أن نذهب لا جدوى من البحث.
- هل أنتما غبيان؟، أنسيتما مكافأة السلطانة، إن تلك الفرص لا تتكرر كثيرا.. هيا كُفا عن الثرثرة وباشرا البحث.
وفي تلك الأثناء كان هناك شخص آخر يبحث ويتفقد، إنها هدى، فقد مكثت ما يقرب النصف ساعة تنتظر راضية، لكن كان ذلك بلا فائدة فظلت تبحث عنها بانشغال كبير خائفة من ان يكون قد أصابها مكروه هي غير معتادة على هذه المناطق.
لكنها لم تكن تعلم أن عيونا تلاحقها من الخلف، لتجد غطاء يلثِّم جسدها بالكامل وأيادٍ تسحبها بعنف إلى مكان ما.

بالقصر:

كان ركن الدين ممددا على الأريكة يدندن ببعض الكلمات وبيده تفاحته المعهودة، بينما كانت تركان تنظر من النافذة شاردة الذهن كاسفة البال مما جعلها لا تنتبه لحديث ابنها الذي بات يقول: من المؤكد أن تكون روح تلك المتسلطة قد زُهِقت الآن، اهٍ يا أمي لو تعلمين مدى سعادتي، لقد تخلصنا من ذلك الكابوس أخيرا!
ثم نهض متجها نحوها وهو يقول بسخرية: كم أود رؤية وجوه هؤلاء الحمقى وهم ينتحبون أمام جثتها.
لكنها لم تنبس ببنت شفه وظلت في شرودها الغامض مما أشاح ابنها بيده أمام وجهها قائلا: أمي!
لتنتبه إليه أخيرا، لكن لم يطرق إلى مسامعها أي حرف من الذي تفوه به، فسألته: هل كنت تقول شيئا؟
رد باستعجاب: ماذا! ألهذه الدرجة سيطرت عليكِ تلك الفتاة؟!
عاودت النظر إلى النافذة بضيق وبدأت تتكلم: لا أعلم... ينتابني شعور غريب أنها لم تمت.
ضحك بسماجة قائلا: هذا غير معقول، لم يمر يوم على وفاتها حتى بدأت أشباحها تطاردك يا أمي!
أبعدت وجهها عن النافذة وبدأت تسير داخل الغرفة بتلكؤ بينما كان هو لايزال يضحك.
فاتجهت إلى أريكتها هي على نفس ذات الحال الغريبة، لتجلس شاعرة برجفة تسري داخل جسدها، ثم ذهب إليها ابنها وقد استحال وجهه من السخرية إلى القلق.
- أمي ما الخطب، هل أنت بخير؟
قامت باستنشاق الهواء لتبدد الضيق داخل صدرها، ثم أسندت رأسها إلى الخلف وقالت: لا شيء.. أنا بخير، فقط اتركني وحدي قليلا.
ازدادت حيرته وقلقه، فقام بالرضوخ إلى أمرها وغادر الغرفة، بينما مكثت هي تدلك رأسها وتحاول استنشاق مزيدا من الهواء.
- هيا بسرعة!
- هل أنت متأكد أن هذا المكان آمن؟
- ربما، لكننا يجب أن ننجز عملنا بسرعة حتى لا يشعر بنا أحد.. هيا أفرغ الشِكارة!
أفرغها ليجدوا وجها آخر غير وجه الأميرة، مما أصابهم الذعر فباتوا يحدقون بالجثة المختنقة في ذهول.
- كيف حدث هذا!
- إنها ترتدي نفس الرداء بالضبط!، ما العمل الآن كيف سنرسلها هكذا؟!
- اهٍ، ضاعت المكافأة.
صاح ثالثهم: هلا أسمعتماني سكوتكما كي أجد حلا لهذه الكارثة!
ساد الصمت بضع ثوان، ليعاود ثالثهم الحديث: لا يوجد سوى تشويه الجثة.
- ماذا، كيف؟
- سنحرقها.
ما أجمل شعور أن تعود إلى وطنك، أو بالأصح إلى المكان الذي تألفه؛ فأنا لا وطن لي.

إن دلهي كانت كحلم عابر، حلم جميل حقا، لم أكن لأريد أن أفيق منه، فهذه هي الحقيقة المرة عن الأشياء الجميلة تجدها دائما سريعة الزوال، أما الأشياء السيئة فتظل كثقل جاثم على صدرك أو كليل مظلم غير مقدر له أن ينجلي، بالضبط كأيام العبودية..

همم لا أريد أن أتذكر الأحداث السيئة الآن، فقط اتأمل منظر الغابات من نافذة العربة الضيقة، أو منظرا آخر لا يوجد على أرض الواقع بل في ذاكرة ذلك العبد الذي وقع أسيرا تلك المصيدة اللعينة، أجل إنها لعينة وما يوجد ألعن منها.

فكونك تترك قلبك في مكان وتذهب إلى مكان آخر هذا شيء لعين حقا وكأنك قمت بعملية جراحية فصلت فيها قلبك عن جسدك فعليا!

منذ ذلك اليوم وصورتها لم تبرح مخيلتي، لاأزال أتذكر ملامح وجهها جيدا جدا، هاتان العينان اللذان إذا وجدتهما من بين آلاف البشر سأستطيع التعرف عليهما بلا شك.

فسحر الشخص يكمن في عينيه، وإن كانت هذه أول قواعد الحب أن تحب عيني الشخص قبل الشخص نفسه.

هااوم إن سير العربة بدأ يجلب لي النعاس، يبدو أنه لا مفر من الاستسلام إلى النوم، حسنا لننم.

بالقصر:

كانت الأجواء في كامل اضطرابها، فقد غربت الشمس وإلى الآن لم تعد راضية، بات الجميع في حالة من الوجل وعلى رأسهم السلطانة والتي بقيت تردد بتحسر: اهٍ إن الخطأ خطأي أنا.. أنا من سمحت لها بالذهاب.. من البداية وأنا أشعر بعدم الارتياح.

- اهدأي جدتي، لقد أرسل السلطان جنودا للبحث عنها، ربما تكون في بيت صديقتها.

قالت شادية

ليدخل عليهما السلطان فجأة بوجه قلق يملأه الوجوم، فسألته السلطانة تلقائيا: هل وجدتها؟!

- ليس بعد.. لايزال الجنود يواصلون البحث.

قالت شادية في عجالة: ألم يبحثوا عند بيت صديقتها محتمل أن تكون هناك.

- إنهم بالفعل يقومون بذلك فقد وصيتهم ألا يتركوا منزلا أو شبرا واحدا في هذه الأسواق إلا ويبحثوا فيه.

عاودت السلطانة نحيبها، وما لبثت أن مرت دقائق حتى أتى أحد الجنود معلنا عن آخر الأخبار.

- هل وجدتموها؟!

- لا للأسف مولاي، فقد بحثنا في جميع الأسواق كما أننا ذهبنا إلى بيت صديقتها وعرفنا أنها أيضا اختفت.

ضربت السلطانة على وجهها وبدأت تنشج في البكاء، بينما يصيح السلطان في الجندي بأن يواصلوا البحث حتى وإن كلفهم ذلك عبور المحيط.

مادهوري

كانت العربة مكتظة بالكثير من النساء، يبدو ان هذه المدينة بالفعل بذات الأهمية التي تجعل العديد من الناس يقصدونها.

ولكن لم يشغل بالي سوى تلك الفتاة التي تدعى راجيني.

لا أعلم لما أشعر بالريبة تجاهها، فمظهرها لا يشبه أبدا مظهر الناس العاديين أمثالنا، بل تبدو كأميرة أو كحورية بحر، وكأنك وضعت زهورا بين مجموعة من القش؛ فلم تبرحنها عيون نساء العربة طيلة الرحلة.

لكن بالرغم من هذا كله، كان وجهها يبدو حزينا بائسا، فقد ظلت شاردة صامتة تتابع تحركات الأشجار الوهمية من نافذة العربة، لذا لم أشأ أن أقطع عليها شرودها فربما كانت في حالة سيئة حقا تجعلها غير قادرة على الحديث.

ثم بدأ يراودني الشعور بالنعاس، فنمت.

لأفق بعد ذلك ليلا على صوت خبط وضرب صاخب جدا تعالت معه صيحات الجميع وبكاء الأطفال، فقد وجدنا أن العربة تهتز نتيجة لذلك الضرب المنهال عليها، لتتوقف العربات كلها فجأة، فحدثت الصدمة الكبرى، إذ ببعض قاطعي الطرق وجدناهم يقتحمون علينا العربة، فباتت تصرخ الأطفال والنساء بينما هم يجرونهم جرا إلى الخارج كالحيوانات، ليقترب أحدهم تجاهي أنا وراجيني، ولأني امرأة ضعيفة قليلة الحيلة جرني كما فعل بسابقيني، في حين أن راجيني وجدتها لم تستسلم بسهولة وظلت تراوغه وتتقاتل معه كأنها محاربة خبيرة مما أعطته ضربة قوية أسفل بطنه جعلته يرتمي إلى خارج العربة، لنتابع المشهد في ذهول، ولكن نتيجة لتلك البلبلة التي أحدثتها؛ دخل إليها عدد كبير من الرجال قاموا بتكتيفها بالكامل وربطوا أيديها وأرجلها بالحبال فشُلت حركتها.

كذلك رأيتهم يفعلون بالرجال لدرجة انهم قاموا بضرب أحدهم على رأسه كي يفقد الوعي حيث أنه قتل بعضا منهم بسيفه.

ثم بدأوا بعدها يسوقوننا كالغنم في صفوف إلى مكان ما في الغابة.

(٧)

راضية

يبدو أن القدر لا يزال يريد إكمال تلك اللعبة، فأمس كنت بالقصر واليوم أجد نفسي بين مجموعة من الوحوش البشرية وعدد من المختطَفين، ياله من شيء مثير للسخرية حقا.

فمن الآن لم أعد أعلم ما يخبئه لي الغد، ربما أموت أو يبيعني هؤلاء الغجر كعبدة أو أصبح جارية لأحدهم... أو..

هناك ألف احتمال واحتمال فالقدر يلعب معي لعبة الحظ ولا أعلم على ماذا سيرسو ذلك النرد اللعين.
لأجد ما هو ألعن منه، صوت أجش يثقب طبلة الأذن موجها إلي: أيتها الفتاة هيا قومي بنقل ذلك الحطب إلى هناك.
نظرت إليه باستحقار غير مكترثة إلى حديثه فقام أحدهم من خلف ظهري بضربي بالسوط مما جعلني أنتفض من مكاني متأوهة بشدة، فيجذبني الأخير بعنف قائلا ورائحة فمه العفنة تكاد تقتلني: ستنفذين الأوامر رغما عنك، وعقابا لك ستذهبين لجلب باقي أكوام الحطب كلها من عند الأشجار إلى هناك، هيا تحركي!
لتبقى نظرات الاحتقار والتضجر لا تفارق وجهي، فجثيت على ركبتي غصب أجمع قطع ذلك الحطب المشؤوم، ثم نهضت بعد أن كدت أسقط لثقل وزن الكمية، فبدأت أخطو ببطء لأرى شخص ما مقبلا علي يريد تخفيف ذلك الحمل عني وكانت مادهوري.
- هيبي أنتِ ماذا تفعلين!
- سأشاركها في حمل قطع الحطب.
- وهل طلبنا منك القيام بهذا!، هيا اذهبي ستحملهم هي بمفردها.
فأشرت إليها أحثها على الذهاب لكيلا يؤذونها بالرغم من اني في حاجة ماسة إليها، لتذهب هي وأكمل أنا سيري المتقطع.
افتح عيني تدريجيا، أرى أناس يروحون ويجيئون هنا وهناك، دوي وصياح أطفال ونساء، زجر وسب وقذف.
لأفاجيء بيدي مكبلتين وجسدي مربوط بشجرة، غير أن ثمة صداع برأسي يكاد يفجر جمجمتي لا أعلم من أين جاءني.. مهلا لحظة.. لقد بدأت أتذكر ما حدث ليلة أمس، فقد كنت نائما وفجأة استيقظت على صوت صراخ كبير ومعه كانت تهتز العربة بشدة، ثم داهمنا مجموعة من الأشخاص قاموا باقتحام العربة، فبدأو يجرون الجميع إلى الخارج قسرا.
وظل رجال العربة يحاولون الدفاع عن أنفسهم، فقاموا باخراج سيوفهم وخناجرهم لأفعل كما فعلوا واخرج لأقاتل هؤلاء اللصوص وبالفعل اوقعنا بعدد كبير منهم ونجحنا في القضاء عليهم، ثم باغتتني ضربة قوية على رأسي سقطت على إثرها فاقدا الوعي.. اهٍ كم يؤلمني رأسي!
- ههه هل استيقظت أيها الكلب العاوي.
وها قد بدأنا.. حسنا لنتعامل بحكمة وذكاء، فأنا أعرف طبيعة هؤلاء القوم وكيف يفكرون، فإن كنت تريد ان تلقى الخلاص والنجاة يجب عليك حتما الرضوخ إلى أوامرهم وتبجيلهم، فقط الغبي من يحاول مجادلتهم والعبث معهم لأنهم ببساطة يحبون ذلك ويجدون فيه متعة كبيرة من تعذيب وقتل، لكنهم في الوقت نفسه حمقى أكثر مما تتصور ومن السهل خداعهم فقط إن كنت ذكيا، لذا سأكتفى بنظرة ساخطة.
- ههه غريب جدا!، اعتقدت أنك فور افاقتك ستبدأ بالنباح والصياح كما فعلت ليلة أمس ولكن خابت توقعاتي.

لأنظر إليه نظرة جامدة باردة جعلته يستثير غضبا فهو يتمنى أن لو اطلق زفرة واحدة حتى يتلذذ بتعذيبي وضربي، مما صاح فجأة في وجهي: ولكنك ستظل مكبل هكذا ستظل بلا طعام وماء حتى تتآكل عظام جسدك!
ثم وجدت شخصا يعقب على حديثه: لا رانفيجي لن يظل مكبلا بل سيساعدنا في نصب الخيام.
- لكن أيها الزعيم أنت لم تره ليلة أمس حينما قتل عددا من رجالنا، إنه مشاكس وسيجلب لنا المتاعب!
- لا.. لا أعتقد هذا فواضح على وجهه الذكاء والنباهة، وإلا إن لم يكن يريد أن يُضَرب بالسوط أو يمشي على الجمر.
يبدو ان ذلك الرجل ليس بحماقتهم.. علي توخي الحذر.
- هيا حرره.
فانصاع إليه ساخطا وبدأ يفك الحبال وأنا لاأزال محتفظا بهدوئي لكن لا يجب ان أبالغ في هذا حتى لا يشك في زعيمهم.
- خُذ.
تقدمت إليه استجابة لطلبه وتقدم معي مساعده الأهوج.
- هل ستبقى هنا طيلة اليوم، ألا يوجد لديك عمل، هيا اذهب!
فذهب مساعده في حنق بعد أن كاد يحرقني بشرار عينيه وبقيت أنا مع ذلك الرجل.
- ما اسمك؟
ترددت قليلا ثم أجبت: ياقوت.
- أخبرني ياقوت، هل كنت تعمل لدا أحد العصابات من قبل؟
توقف الدم في جسدي وابتلعت ريقي وجلا، أيعقل أن يكون ذلك الرجل على علاقة ب.. لا لا يمكن فهؤلاء يعملون لبيع العبيد لا يوجد أدنى تشابه، لكن للحذر واجب سأجيب ب لا.
- لا.
- حسنا.. لن أخفيك سرا فقد استشعرت فيك شيئا من الشجاعة والقوة، أتعلم.. إذا أطعت أوامري وأذعنت إلي فسأعرضك أول واحد على التجار وأخبرهم بمدى قوتك وصلابتك، ووقتها سيقتنعون بك ولن تكون مجرد عبدا رخيصا بل سيتهافت عليك المشترون من كل حدب وصوب كى يحصلوا عليك فقط... حسنا أعلم أنك تتفهم كلامي جيدا وستعمل به.. يمكنك الآن أن تذهب وتعمل مع هؤلاء الرجال الذين ينصبون الخيام هناك، هيا.
ما أجمل الكلام المعسول، فأنا الآن بالنسبة له ورقة رابحة، فهو سيبيعني بأغلى الأثمان ويطيل في ذلك، يحاول اقناعي ان هذا لمصلحتي وان عندما سيشتريني أحد التجار الأغنياء سأصبح بعد ذلك في هناء وستتغير حياتي من الشقاء إلى السعادة، ههه وماذا ستفعل السعادة إن كنت أولا وآخرا مجرد عبد، فلا أحد يعلم مرارة العبودية مثلي.. على كل حال سأبقى على خطاي والحل آت آت فلا عجل

وبعدما رحل الرجل اتجهت حيث كان يشير، فبدأت السير بين هؤلاء القوم الغجر وهؤلاء المساكين، والذين اعدهم بقرب الخلاص فقط يتركوا لي مهلة تفكير بسيطة.
وبينما كنت أسير اصطدمت خطأً بفتاة كانت تحمل الحطب مما تناثرت جميع أجزائه على الأرض، فبسرعة جثت تلملمهم ولم أجد سوى أن اساعدها، لترفع رأسها ويظهر وجهها أخيرا قائلة: لا شكرا لا احتاج مس..
لكن ما ان رأت وجهي حتى شُل لسانها بينما دخلت أنا في عالم آخر..
- أنت!
لتنهض تاركة الحطب صارخة بوجهي: كيف أتيت إلى هنا أيها العديم الاحساس!، يا الله انت بالفعل نحس فعندما أُخطَف أُخطَف معك انت!
ولكن لم أعر أي اهتمام لحديثها فقد بت محملق بهاتين العينين، أجل اني أعرفهما جيدا جدا، فأنا لم استطع التعرف عليها بالأسواق نتيجة لتلك البودرة التي غطت وجهها.. أيعقل أن تكون هى!
- ماذا هل خرس لسانك الآن؟! اسمع أيها المتعجرف إن حاولت السخرية مني مجددا فلن ترى خيرا أبدا، ولا تظن أن قامتك هذه سترهبني فأنا نعم فتاة ولكنك لا تعرفني بعد.. لذا أحذرك.
عاودت لملمة الحطب ثم رحلت سريعا، ولكني كنت وقتها كالمنوم مغناطيسيا، فأنا أقسم أني رأيت تلك العينين، بالرغم من أن هناك اختلاف كبير، فتلك الفتاة التي رأيتها أول مرة كان يبدو عليها الثراء والترف أما هذه فتبدو عادية جدا بل أقل من العادي، ولكنها يا الله نفس العينين!، نفس الملامح!، ماذا بيدي أن افعل!، أيمكن أن تكون هذه مجرد فتاة معنا وعقلي هو من ركب صورتها عليها؟!
يبدو أنني جننت حقا.. هيا لنذهب إلى العمل وإلا سأجن أكثر.
بالقصر:
كان السلطان مجتمعا مع وزرائه وعدد من الجنود بالساحة الرئيسية يناقشون إحدى القضايا الهامة، فإذ فجأة تنفتح البوابة على مصراعيها، ليدخل مجموعة الجنود حاملين نعشا على أكتافهم، مما أثار دهشة السلطان ومن معه لهذا الدخول المفاجيء.
فتقدم الجنود وبلغوا منتصف القاعة واضعين النعش أرضا، لينهض السلطان بعد أن تيقن لمن ذلك النعش ثم طرح سؤالا يود ان تكون إجابته ب لا.
- لمن هذا النعش؟
لم يجرؤ الجندي على الرد واكتفى بقول: البقاء لله مولاي.
ثم هبط السلطان من على عرشه وبدأ يسير تجاه ذلك النعش هائم الوجه مجفل الجسد، ليزيل الغطاء بيد مرتعشة ويلقى ما أودعه القدر له، فسقط كالبنيان المتهدم بوجه شديد الزرقة توقفت عنده الحياة، فما أمامه ليست سوى جثة ابنته الصغيرة محترقة ممثلة، يكاد الرماد يمحو معالم جسدها بالكامل باستثناء ذلك الرداء اللعين.

وما لبثت دقائق حتى التم جميع من بالقصر لترى السلطانة ذلك المنظر الشنيع الذي لا تود رؤيته ابدا مادامت حية، فانهارت مغشي عليها وبجانبها حفيدتها، لا تعلم أتبكي على أختها أم ترى ماذا أصاب جدتها.

وفي تلك الأثناء بدأت عينا السلطان تفيض بالدموع بعد أن أوقفت الصدمة جميع وظائفه الحيوية، فانفجر في البكاء وكأنه بحر اهتاج بفيضانه، فهو لم يبك إلا مرة واحدة فقط عندما ماتت زوجته أم راضية، أما الآن فهو يبكي للمرة الثانية لموت ابنته وحبيبته، لقد بني عليها آمالا وطموحات أصبحت كلها هباءا منثورا في لحظة.

وفي جانب آخر كانت لاتزال الأفاعي تصدر فحيحها، إنهما تركان وركن الدين، فلم تجد تركان سبيلا عن إماطة التهمة عنها سوى النحيب والبكاء، وبدأت تنوح مع باقي النساء وركن الدين واقف يحاول إظهار تأثره.

وقتها كانت عائشة واقفة بجانب السلطانة والأميرة، فمن أول وهلة وقد استنبطت أن هذه الجثة لهدى وليست لراضية هي رأتها ذاك اليوم بالأسواق تبحث عنها بينما كانت هي تحضر الفرس كما وصتها أميرتها وبالطبع حاولت اخفاء نفسها حتى لا تلمحها، فغادرت بسرعة المكان هي لا تعلم أن هذا سيحدث، وظلت تتابع الأحداث هي في كامل تأثرها لهدى، فما هو ذنبها لأن تُقتل بدم بارد!

كما أنها تود لو أن تخبر السلطان بأن الأميرة لازالت حية ولكنها لا تستطيع؛ فالأميرة الآن بخطر وأي إفشاء لأمر عدم موتها سيودي بحياتها حتى وإن أخبرت به السلطان دونا عن غيره، فلا تضمن أن يُصاد الخبر من قبل أحد المغرضين خلسة.

لذا ستبقى متشبثة بيقينها وأمل عودة الأميرة مرة أخرى.

ياقوت

يبدو مقدر لي أن أرى جميع العجائب في هذا الاختطاف، فلم تكد تنتهي أول مفاجأة حتى تعقبها أخرى. عندما اتجهت للعمل مع هؤلاء الرجال إذ أفاجأ بشخص لم يكن في البال ولا الحسبان، إنه " يعقوب " أحد الخصوم القدامى، فما أن رأيته ورآني حتى تسمر كلانا في موضعه.

- ياقوت!

ليسأله أحد الرجال الذين برفقته: هل تعرف هذا الرجل؟

- ههه أعرفه فقط.. نحن تربينا سويا.

ثم عاد ليكمل بنفس ذات النبرة: هذه الدنيا صغيرة جدا يا صديقي، فبعد هذه السنوات نلتقي مجددا وبهذا المكان المشؤوم!، حقا روح المكان تعبر عن ساكنيها.

تفهمت ما يقصد من حديثه السام، فرددت: معك حق بالطبع.. هناك أناس لا يجب أن تلقاهم إلا في مثل هذه الأماكن لأنهم ببساطة يشبهونها وتشبههم.

- ههه لا تنسى أصلك يا صاحبي هي لا تشبهني وحدي فقط.. صحيح ما أخبار الزعيم؟

- ومن أين لي أن أعرف اخباره.. ألا تعلم أني أيضا هربت؟

وفي الحال ارتسمت على وجهه الصدمة وربما أيضا الذعر، فهو الآن بلا شك يعتقد أني هربت لأشكل عصابة صغيرة حمقاء مثله أتحداه بها، وإن كان هذا فهو يعلمني جيدا ويعلم قدراتي مقارنة به وهذا حتما ما جعله يهرب ويترك الميتم.
ثم استوقفت الحديث بيني وبينه عندما بدأت تزداد شكوك الواقفين بنا وذهبت إلى مجموعة من الرجال ينصبون خيمة أخرى.
فاستأنفت العمل وبدأت أساعد الرجال على نصب الخيمة، ولم تمر دقائق حتى لمحت تلك الفتاة من بعيد حاملة مزيدا من الحطب وقد بدا عليها الانهاك الشديد، فمكثت تأتي وتروح جالبة كميات الحطب من عند الأشجار إلى الخارج، بينما أنا بقيت أتابعها محاولا تفقد وجهها اكثر فإلى الآن لا أصدق أنها تلك الفتاة نفسها. ليحدث شيء قد أشعل نار الغيرة بداخلي لأول مرة، إذا بذلك الحقير يعقوب ألحظه يطالعها بنظرة أحقر، تكاد عيناه تفترس جسدها بالرغم من أنها في كامل تحشمها، فلولا أنني أريد تجنب المشاكل لكنت ذهبت إليه وأنهيت حياته، فماذا أنتظر إذا من شخص مجرم لا توجد بقعة واحدة بيضاء في صحيفته.
اهٍ لا أستطيع رؤية لعابه يسيل عليها وانا هكذا واقف أتفرج! هيا اهدأ ياقوت تحمل، فالسلامة لمصلحتك ومصلحة الجميع.. هيا تجاهل ما يحدث وركز في عملك.
لكن يبدو أنه لا مفر من إراقة الدماء اليوم شئنا أم أبينا، لأجد ذلك الديوث يتجه إليها متسللا بعد أن دخلت هي خلف الأشجار، مستغلا انشغال الجميع في العمل ولكنه لا يعلم اني هنا اراقبه.
فبسرعة تركت ما بيدي بحجة فعل شيء هام، وذهبت متسللا ناحية الأشجار، أعلم أني أتخذت عهدا على نفسي بعدم إحداث أي نزاع ولكن لن تخمد ناري إلا عندما أنال من هذا الدنيء يعقوب.

راضية

يالها من صدفة عجيبة!، فكنت قد رأيت هذا الشاب أمس بالأسواق واليوم أجده مختطف معي في نفس المكان!، يا الله يبدو أن هناك سر وراء ذلك، إما أنني شخص منحوس أو هو النحس بذاته أو ربما كلانا.. لا أعرف المهم أن ثمة نحس بالموضوع.
على كلٍ لقد حذرته ولا أعتقد أنه بهذا الغباء كي يجلب لنفسه المتاعب خاصة ونحن بهذا المكان.. لكن هناك شيء غريب لا أستطيع فهمه، فعندما ارتطمت به وحدث ما حدث لم يقل أي شيء وبات يحدق بي في غرابة بينما كنت أنا أصيح بوجهه.. أيعقل أن يكون علم أني أميرة؟!، يال الكارثة، إن حدث هذا حقا فسأصبح في ورطة كبيرة، أتمنى أن يكون ذلك خطأ.. هيا يجب أن أتوقف عن التفكير وأكمل العمل حتى لا ينهرني ذلك السمين.
فاتجهت إلى داخل الأشجار لتجميع أجزاء الحطب ونقلها إلى الخارج، واستمررت هكذا ذهابا وإيابا بعد أن كدت لا أشعر بفقرات ظهري من فرط الألم، فدخلت إلى الأشجار للمرة الخامسة وجثيت على ركبتي

معاودة ما فعلته في المرات السابقة، ثم نهضت لأجد أحدهم يهمس من وراء ظهري: هل تحتاجين إلى مساعدة؟

استدرت مجفلة نتيجة لقدومه المفاجيء ثم قلت له لا شكرا، فرأيته يصر على ذلك ثم بدأت أشعر أنه يقترب مني أكثر فأكثر قائلا بتملق: ماذا بكِ، رأيتك تحملين الحطب وحدك ويبدو عليك التعب.. أنا لا أحب رؤية فتاة تتعب.. خاصة وإن كانت جميلة مثلك.

وقتها فهمت ما يرمي إليه هذا الخبيث فحاولت الابتعاد لكيلا أحدث ضجة وأتعرض للجلد، ولكنه أوقفني وتناول مني بعض القطع التي أحملها، ثم عاد يقول: لما أنت خائفة هكذا، أنا هنا لمساعدتك، كل ما أريده أن تثقي بي، فأنا أعلم كيف نهرب من هنا.

لكن خلال هذا لم أكن أشعر أن جسدي يقترب من الشجرة إلى أن التصقت بها، فاقترب مني أكثر مرددا: ثقي بي.

وكاد يلمس وجهي حتى رأيت يدا من خلفه قد وُضِعت على كتفه، فاستدار لتباغته قبضة قوية طرحته أرضا، حينها بدأت المعركة بينه وبين ذلك الشاب، فظلا كلاهما يتقاتلان بالضرب المبرح وقد رأيت الشاب يمزقه تمزيق كفتات الخبز حتى أصبح وجهه بلا معالم يكسوه الدماء، فبات يضرب ويضرب بنهم وكأنه بركان انفجر فجأة.

ليُحدث ذلك جلبة كبيرة تجمع على إثرها الخاطفين والمختطَفين معا، فاتجهوا نحوهما يحاولون تخليصه من بين يدي الشاب ونجحوا في ذلك أخيرا بعد أن كاد الشاب يقتله حرفيا، ثم باتوا يوجهون اللوم والسباب إليه وعاقبوه بعشر جلدات بينما اتجه آخرون إلى ذلك المحطم يحملونه لمداواة جرحه.

بعدها رأيتهم يكبلون يدي الشاب استعدادا لجلده فبدأ يسير معهم إلى خارج الأشجار، لكنه توقف قليلا لينظر إليّ نظرة غائرة لم أستطع تفسيرها، ثم صاحوا به ليتحرك.

أما أنا بقيت واقفة متعجبة وبجانبي مادهوري والتي سألت: ما الذي حدث بين هذين الشابين لجعلهما يتقاتلان هكذا؟!

لم أجب وبت شاردة في ذلك الأمر العجيب، فمتى ظهر هذا الشاب، وكيف علم أن ذلك الرجل سيتحرش بي ويضايقني، ولما بالأساس فعل هذا وكان يسخر مني بداية.. ثم قطعت شرودي مادهوري بقولها: هل أنتِ بخير؟

- أجل بخير.. هيا لنذهب ونواصل العمل حتى لا يعاقبنا أحد.

عائشة

والآن تلون القصر كله باللون الأسود،

لتقام المراسم اللازمة لجنازة الأميرة راضية أو بالأصح هدى، فتجمع الكل لأداء صلاة الميت، ثم قاموا بالتسليم واتجهوا لدفن الجثة بمقابر العائلة.

فكان السلطان بحال يرثى لها حقا، حيث ظل صامتا باهت الملامح لا توجد أي تعابير على وجهه، أما السلطانة فقد فقدت النطق تماما ولا يجول بخاطرها سوى أنها السبب في ذلك.

وها هي الشمس تغرب وكأنه الغروب الأبدي عن السلطنة بأكملها، فقد أصبح القصر بلا حياة كي يتحول إلى مقبرة لأناس أحياء جسدا لكن أموات نفسا.. أدعو الله أن يحفظ الأميرة ويبقيها بخير كي تأتي وتعيد الحياة إلى القصر من جديد.

راضية

عادت الأوضاع كما كانت بعد فض هذا النزاع، فمكثت أعمل في نقل الحطب وساعدتني مادهوري في هذا، أما ذلك الشاب فقد تلقى العشر جلدات بينما عولجت جروح الآخر.

فانتهينا من نقل جميع الحطب ليأمرنا ذلك الأهوج انا ومادهوري وبعض الفتيات بالذهاب إلى خيمة الطعام كي نجلب الحبوب والخضراوات اللازمة لطهى العشاء.

انصعنا إليه مجبرين، ثم توجهنا إلى تلك الخيمة، فبدأ البعض ينتقي من شكائر الحبوب والبعض الآخر ينتقي الخضراوات، أما أنا ومادهوري فكنا مكلفين بصب النبيذ.

ثم قامت مادهوري بتجميع الأكواب بينما كنت أجلب أنا القناني، لألحظ شيء ما بغتة، إذ بقارورة صغيرة مخبأة بين الأغراض بها نوع من السم الفاخر أعرفه جيدا، فالتقطه ثم أتتني مادهوري سائلة بعد أن لاحظت القارورة بيدي: ما هذا؟

أجبتها بينما كنت محدقة بالقارورة: إنه سم.

- سم؟

فالتفت إليها وعلى وجهي ابتسامة شيطانية، ليتوارد إليها ما يجول بخاطري مما صاحت: هل تقصدين أننا سنس..

وبسرعة كممت فمها هامسة: اصمتي هل تريدين فضحنا!، سنضعه في الشراب ولن يشعر بنا أحد.

فبدأت تقول مرتجفة: لكن.. لكن هذا قتل!

- أعرف ولكن لا حرج في هذا.. ان أرواح هؤلاء الأبرياء بين أيدينا الآن، فنحن معنا السبيل للخلاص، ألا تريدين النجاة؟!

- بلى أريد ولكن ليس بهذه الطريقة.. انا لم يسبق لي فعل مثل هذه الأشياء يا راجيني.

- وأنا أيضا لم يسبق لي ولكن للضرورة أحكام، إما أن نضع السم وننجو جميعا أو ننتظر إلى أن يأتي هؤلاء التجار ونصبح في عهدة العبودية إلى الأبد.. فكري في الأمر، بهذه الطريقة نحن نمنع أسر مئات الأبرياء ممن سيخطفونهم فيما بعد.

باتت غير مقتنعة ثم قلت لها: على العموم إن كنت لا تريدين مساعدتي فسأعمل وحدي.

وضعت القارورة بين نطاق خصري، ثم عدت لتجميع القناني، في حين انها ظلت تفكر إلى أن قالتها: أنا معك.

ياقوت

يبدو أن تلك الفتاة جاءت لتغيرني حقا، فلم يسبق لي أبدا أن فكرت بقلبي، لقد اعتقدت أن النساء هم فقط من يفكرون بقلبهم ولكني الآن اكتشفت أن هذا ليس صحيحا بالمرة.

لقد كنت كالمجنون وأنا اضرب ذلك الحقير، أخرجت كل ما بداخلي من طاقة لانتقم منه بالرغم من أني اتخذت قراري بعدم إحداث المشاكل، حتى وإن كان هو حاول استفزازي بكلامه يكفي أن اخرسه بردي، ولكن هذه المرة لم يكن الرد هو وسيلة الدفاع.
فكيف لي أن أراه يؤذيها وأنا واقف بلا حراك، اللعنة على جميع المباديء وعلى المنطق نفسه، فأنا مستعد أن أنال ألف جلدة ولا أسمح لذلك المجرم بالتعرض لها.
لقد عرفت السر الآن.. إنها الغيرة، الغيرة هي من تدفع الشخص لفعل أي شيء مهما كانت خطورته، تجعله كالمجنون المغيب، وهذا ما حدث معي بالضبط.
لهذا لم تفرق معي تلك العشر جلدات، يكفي أنني أفرغت الطاقة بداخلي.
ثم عدت للعمل بالخيام، لتغيب الشمس ويحل محلها الظلام، فأُشعلت النيران بجميع الأرجاء ورأيت النساء يطهين الطعام وكانت هي معهن.
وبالطبع لن يكون هذا الطعام سوى لأولئك سمان البدن، هههه كلوا وتمتعوا فغدا سيحل عليكم العذاب لما تفعلونه بالناس.
وبعد أن انتهيت من العمل اتجهت إلى إحدى الأشجار لأنام أسفلها وكانت وقتها بطني تتقطع من فرط الجوع، فكل ما يقدمونه لنا ليس سوى بعض كسرات الخبز وقليل من الماء، لكن لا بأس سيزال كل هذا قريبا.
وحل الصباح أخيرا لأجد نفسي أستيقظ على صوت أحدهم بات يصيح مرددا: هيا استيقظوا أيها الناس! استيقظوا!
نهضت سريعا لأرى ماذا يجري، فوجدت ذلك الشخص يصيح واقفا في المنتصف ومن حوله جميع الخاطفين متناثرين أرضا وبيدهم كأس النبيذ.
ثم بدأ يتجمع الباقية دفعة دفعة والكل واقف فاغر الأعين من ذلك المنظر وأولهم أنا، أيعقل أن تكون دعوتي قد استجابت بهذه السرعة!، فذهبت كي أتأكد إن كانوا لايزالون
أحياء لأجدهم جميعا موتى، يا الله أهذا سحر!
- لا تتعجبوا، فهناك أحد سيخبركم بكل ما حدث.
التفتنا جميعا نحو هذه الفتاة التي ظهرت فجأة ثم رأيناها تنادي: راجيني.
لكن لم يأت أحد فعاودت النداء وكانت نفس النتيجة، صحيح أين الفتاة؟؟
- لا أعلم أين ذهبت راجيني، لقد أخبرتني أنها ستفعل شيئا ما وستأتي لكنها اختفت!
فتبعها أحدهم: ويعقوب ورفاقه اختفوا أيضا. .. !!
- يا الله، ماذا يجري!
لأصيح فجأة: لم يختف أحد، لقد اختطف يعقوب ورفاقه الفتاة!
شهقت النساء بينما رد أحد الرجال: حرام عليك يا هذا، ليس لأن بينكم مشاكل تلقي عليهم التهمة.

قلت بجدية: اسمعوا أيها الناس من كان يريد منكم أن يصدق فليصدق ومن لا يريد فلا يصدق، إن يعقوب ورجاله مجموعة من اللصوص الهاربين، وهم يشكلون خطرا حقيقيا الآن على الفتاة، فمن يريد الانضمام إلي لانقاذها فليأتي.
وتلقائيا سحبت سيف أحد الخاطفين وقمت بامتطاء أحد أحصنتهم، لأجد بعض الرجال قد استجابوا إلي وفعلوا مثلي، فسلكنا جميعا ذلك الطريق الذي كانت تتواجد عنده هي وصديقتها وبدأنا رحلة البحث.

(٨)

راضية

- أخيرا أصبحتِ ملكي وبين يدي.
نظرت إليه بعينين جاحظتين يملأهما الشرار وأنا مكبلة خلف شجرة، ليصدر ضحكة مستفزة زادت النار اشتعالا بداخلي، ثم قال متسكعا: كم يؤلمني رؤيتك بهذه الحال يا عزيزتي.. ولكن أتعلمين لما أنا ربطك بهذه الشجرة؟
فاقترب مني فجأة وبدأ يصيح في وجهي مشيرا إلى الندبات التي تعلو وجهه.
- ربطك من أجل هذه وهذه، انظري واملأي عينيك!!
ثم عاد يقول بأكثر حدة: لا تظني أن ذلك الأحمق سيأتي وينقذك مثل ما حدث أمس.. كلا!، أنتِ من الآن وصاعد تحت رحمتي أنا، لا أحد يستطيع ان يأخذك مني!!
وفجأة تحولت نبرة صوته من الحدة إلى النعومة واللين، فقال ممسكا بعض خصلات شعري المتناثرة بعد أن فقدت غطاء رأسي: ولكن سأنفرد بكِ كما أحب.. لن يمنعني أحد من الاقتراب منك، فهؤلاء الرجال الذين ترينهم يعملون لصالحي
.. يمكنني الآن ببساطة أن أطردهم لأخلو بكِ وحدي.
وقتها لم أجد سوى أن أبصق في وجهه، ليعود إلى جنونه السابق، فابتعد عني وصاح ناظرا إلي بتوعد: اسمعوا!، ستكممون فمها وتزيدون شد الحبال، لن تنال أي طعام اليوم ولا حتى شربة ماء واحدة!
ذهب وراح رجاله يفعلون ما أُمروا به، قاموا بتغطية فمي بالكامل، ثم شدوا عقد الحبال التي تقيد يدي، لتؤلمني بشدة أكبر، فحاولت اخفاء ذلك قدر الإمكان حتى لا يلاحظون ضعفي ويبالغوا في الشد.
ثم ذهبوا وبقيت أنا وحيدة وسط تلك الأشجار، فدوما ما كانت علاقتي بها جيدة وقتما كنت أمارس الصيد، أما الآن تبدلت هذه العلاقة وأصبحت سيئة ممقوتة.
حقا كانت جدتي على حق وستظل على حق.. يبدو أنها كانت تعلم أن تلك الأشجار التي اعتبرتها صديقتي ستنقلب علي يوما وتقيدني بحبالها.
اهٍ كم اشتاق إليكِ يا جدتي.. اشتاق إلى أبي واخوتي أشتاق إلى عائشة والقصر. يا ترى كيف يكون حالهم وأنا مختفية هكذا؟، ربما يبحثون عني وربما شيء آخر لا أعلمه.

يا الله ساعدني، انقذني من هذا البلاء، لا أريد أن يتعذبوا بسببي، لا أريد أن ينفطر قلبهم من أجلي، أنت القادر على إحالة كل هذا الغم إلى فرج، فأنا لا أريد سوى أن أطمئن عليهم، لا أريد أن أموت في هذا المكان المشؤوم وأنا لم أودعهم الوداع الأخير، أريد أن أموت بين أحضانهم لا بين أحضان الغابات.
فبقيت أدعو الله بيني وبين نفسي وكلما مر الوقت شعرت بعظام رسغي تتآكل أكثر من شدة ربط العقدة، مما أمسكت بحجر صلب كان ورائي وحاولت أن أحكه بالحبل مرارا كي ينفك ولكن كان ذلك بلا جدوى.
ومرت دقائق وأنا لاأزال وحدي مكبلة إلى أن سمعت صوت فرس قادم من بعيد، فالتفت من خلفي لأفاجأ بذلك الشاب يترجل عن الفرس قادما إلي في عجالة، ثم لم تمر ثوان على وصوله حتى وجدته قد نزع اللفافة حول فمي وبدأ يقطع الحبال بسيفه، وبسرعة حررني كليا ثم أمسك بيدي قائلا: هيا بسرعة!
نهضت ذاهبة معه ولكن وجدت أحدا آخر يجتذبني بقوة من يدي الأخرى، إنه ذلك الحقير والذي لا أعلم متى ظهر فجأة!، استطاع أن ينتشلني من يده بسهولة، ليضع السيف على عنقي بعد أن رجع بي خطوتين إلى الخلف.
- كما ترى الآن، إن حاولت الاقتراب فسأنهي حياتها على الفور!
قال الشاب محاولا ترويضه: حسنا اهدأ، لن اقترب.. لكن من فضلك اتركها، هي ليس لها دخل بمشاكلنا.
- ههه ليس لها دخل حقا!، إذا ماذا تسمي الذي حدث أمس؟
- يعقوب أي شيء تريده سأعطيك إياه ولكن اترك الفتاة لحال سبيلها.
- أتعلم ياقوت، إن هذه اللحظة هي أسعد لحظة على الإطلاق.. فكم كنت أحلم بذلك اليوم الذي أجدك فيه ذليلا أمامي تتوسل إلي.. لذا أنا لست بهذا الغباء كي أضيع تلك الفرصة الثمينة يا صاحبي.
ثم قال بعد أن شد السيف على عنقي: ستراني الآن وأنا أقتل حبيبة قلبك أمام عينيك، سترى كيف يرتوي سيفي من دمائها.
وقتها كنت انتظر اللحظة المناسبة كي أفلت من يده، فقبل أن يخترق السيف جلدي قمت بعمل تلك الحركة التي تعلمتها في السابق، ألا هي عندما يحاول شخص ما خنقك او شد عنقك بسلاح تقوم بإحاطة ساقه بأحد ارجلك خصيصا بذات العظمة التي عند الركبة، حينها لن يكون قادرا على الوقوف وسيسقط تلقائيا وهذا الذي حدث بالفعل، فنجحت في الإفلات منه وركضت بعيدا.
عندها انتهز الشاب أو ياقوت الفرصة واستعد للقتال فانتظر حتى نهض ذلك الحقير وبدأ النزاع.
وظلا كلاهما يتقاتلان بالسيوف بينما انا أتابعهما عند الشجرة، وكان واضحا أن الشاب يفوقه بدرجات في القتال، لذا لم تلبث دقائق حتى قام بالإجهاز عليه بحركة واحدة، فسقط صريعا غارقا في دمائه، وبعدها أتى إلي الشاب وسألني: هل أنتِ بخير؟
ثم رأيته يخرج من جيبه غطاء رأسي والذي فقدته دون قصد في الطريق، ليقول لاهثا وهو يناولني إياه: لولا ذلك الغطاء ما كنت وصلت إلى هنا.

فشرعت أرتديه مباشرة واستر تلك الخصلات المبعثرة، وبينما كنت أعدل من نفسي إذ لمحت في جزء من الثانية أحد رجال الحقير يصوب السهم نحو الشاب، فقمت بإبعاده لحظيا مما أصاب السهم الشجرة، ثم وجدته أمسك بيدي بسرعة واتجهنا خلف الشجرة نتفادى السهام المنطلقة.
بعد فترة توقف الجميع عن التصويب، فبدأوا يقبلون علينا بسيوفهم، عندها أسرعنا نحو الفرس وامتطيناه قبل أن يصلو إلينا، وفي لمح البصر كنا قد اختفينا من ذلك المكان إلى الأبد.
ياقوت
ظل الفرس يركض بنا بسرعة متخبطا بالحشائش الطويلة، فوقتها لم نكن ندرك إلى أين نحن متوجهان، ولسوء الحظ فقدت طريق العودة حيث عندما وقع ذلك الهجوم المفاجيء، سلكنا طريقا مختلفا كي نتجنب ملاحقاتهم، ومنذ ذلك الحين ونحن نسير بشكل عشوائي، فالبرغم من ترحالي المستمر إلا إنني لا أعرف هذه المناطق التي نقصدها.
واستمرينا على هذا الوضع نذرع تلك الأراضي المجهولة إلى أن ضاع نصف اليوم، فمرات كنا نتوقف كي نلتقط أنفاسنا والعطش يغلبنا ثم نكمل الطريق.
إلى أن جاءت المرة الأخيرة، حينها لمحت من عن بعد بئرا صغيرا يتوسط الغابة، فحمدت الله كثيرا، بالنسبة لي يمكنني أن أتحمل البقاء بدون ماء أما الفتاة فكانت في حال يرثى لها، فلم تعد تقوى على الصمود وبات وجهها شاحبا يابسا.
عندها أوقفت الفرس وقررت الإقامة في هذا المكان.
- لما توقفت؟
- ثمة بئر قريب هناك.. سنبقى هنا لفترة ثم نكمل طريقنا.
ترجلت عن الفرس وتبعتني هى، ثم ربطته بشجرة وطلبت منها أن تبقى ريثما أذهب لجلب الماء.
فاستجابت إلي وجلست مستندة أسفل شجرة، لأتوجه أنا في طريقي إلى ذلك البئر، ولكن لم تمر دقائق على ذهابي حتى سمعت صوت صرخة صدحت في الأرجاء، وقتها لم أجد نفسي سوى أن استدرت عائدا ركضا بأقصى سرعة لدي، وعندما وصلت وجدتها تتأوه بشدة، ثم لمحت شيئا بات لي صدمة غير متوقعة، إذ بثعبان يزحف بجانب أرجلها، عندئذ وبدون تفكير ذهبت للفتك به، ثم لم ألبث حتى توجهت إليها وصحت فيها: أين؟!
أشارت مرتجفة إلى رجلها اليسرى، فأزحت عن ساقها الرداء وأحضرت سيفي ثم بدأت أزيل السم بفمي وألفظه.
وبعد أن انتهيت بت أبحث عن شيء لأغطي به أثر اللدغة، فقمت بخلع لفافة جبهتي ووضعتها حول ساقها.
وأخيرا كنت سأقوم بحملها كي أضعها على الفرس لولا أنها أبعدتني صارخة: ماذا تفعل؟!
- سأضعك على الفرس.
- لما؟

- كي تأتي معي لجلب الماء.
- كلا.. سأبقى هنا.
- لا يمكن، لا أستطيع تركك وحدك مجددا.. هيا.
- قلت لك كلا!
- ماذا بك أيتها الفتاة؟!، هل تريدين أن يتكرر ما حدث الآن؟
- لن يحدث شيء، اذهب وعد بسرعة وسأبقى هنا انتظرك.
لبيت رغبتها مجبرا بالرغم من أني غير مطمئن لهذا، فالآن كل مشكلتها اني سأحملها متناسية أمر اللدغة وأنها كانت ستغدو من الموتى لولا أني انقذتها في الوقت المناسب!، كم هو عجيب أمر هؤلاء الفتيات، فدائما ما يركزن على أتفه الأشياء حتى وان كان هذا على حساب ارواحهن!
يبدو أني سأعاني مع هذه الفتاة كثيرا خلال الفترة المقبلة...
بالقصر:
- ما الأخبار يا حكيمة هل تحسنت جدتي؟
- يؤسفني ما سأقوله يا سمو الأميرة، إن السلطانة لديها صدمة عصبية حادة لدرجة أفقدتها النطق تماما.
- وما الحل الآن!
- سأصف لها مزيدا من الأدوية، ولكن هل تناولت الأدوية السابقة؟
نظرت متحسرة وقالت: إنها لا تضع شيئا في جوفها من الأصل يا حكيمة.
- ماذا! سمو الأميرة اسمعيني جيدا من فضلك، إن استمرت حالة السلطانة على هذا النحو من دون الاستجابة إلى العلاج ستصل إلى حالة مستعصية جدا يصعب فيها الشفاء وحينها لا قدر الله لن يكون بيدنا شيء لفعله.
ازدردت شادية ريقها في ذعر وبدأت قطرات الدمع تسيل على خديها، فقالت الحكيمة محاولة تهدئة الوضع: هناك حلول أخرى يمكن أنا تساعد في التماثل للشفاء، مثل التعرض لأشعة الشمس أو رؤية مناظر طبيعية، هذه الأشياء البسيطة تساعد في تحسين الحالة النفسية ولربما تجدي نفعا مع السلطانة.. سآتي في الغد واتمنى أن تكون قد استجابت للعلاج.
أومأت شادية برأسها في أسى ثم استأذنت الحكيمة وانصرفت، وقتها كانت السلطانة على نفس حالتها المعتادة طريحة الفراش عينيها هائمتين في اللاشيء، لا تتكلم ولا تنصت لأحد.
فتوجهت شادية إليها باكية وأمسكت بيدها تترجاها أن تنطق ولو بكلمة أو حتى حرف لكن لا جدوى من هذا.
لتقول كاكول وصيفة السلطانة: أرجوك يا أميرة لا يجب ان تبكي هكذا أمامها.
- وهل هي شاعرة بي من الأساس كاكول؟، إنها في عالم آخر.. ليست معنا.
قالت عائشة: كاكول كلامها صحيح يا أميرة هذا الشيء يمكن أن يؤثر سلبا على حالتها.

ثم عادت شادية تتوسل إلى جدتها أن تتكلم، بينما كانت عائشة واقفة وعذاب الضمير يكاد يقتلها، كيف تقول لها أن الأميرة حية ترزق وأنها لم تمت، ولكنها في نفس الوقت لا تعلم بأي أرض تكون أو كيف هي حالتها الآن.
وخلال تلك الفترة، كان السلطان لايزال يحقق في قضية القتل الواقعة، والأجواء أصبحت في وضع عسكري بحت داخل السلطنة، حيث وصل الأمر لدرجة تفتيش البيوت بكل أركانها ولم يتركوا فردا إلا وحققوا معه، فقد أقسم السلطان أن بمجرد عثوره على القتلة سيجمع كل الأهالي في ميدان عام وسيذبح هو القتلة بنفسه.
أما تركان وركن الدين فكانا لا يزالان يمثلان تلك التمثيلية الزائفة، لكن تركان كانت من داخلها غير راضية عما يحدث منزعجة لكون السلطان موجه شتى انتباهه إلى قضية مقتل الأميرة، لا يوجد برأسها سوى قضية ولاية العهد وكيف ستقنع السلطان بإمكانية تولي ابنها ذلك المنصب مرة أخرى.
وأخيرا ركن الدين والذي استغل انشغال السلطان عنه وعاد لينغمس في اللهو والمجون.
وبهذا أصبح القصر عبارة عن شعلة متأججة بنيران الغضب من كل ناحية، الكل يسعى وراء هدفه وأولهم السلطان الذي يحلم بيديه تذبح القتلة ومن ثم تركان وحلم ولاية العهد وثالثهما الأميرة شادية والتي تحلم باليوم الذي تشفى فيه جدتها.
وتتسابق الأهداف في ذلك المضمار، ولا أحد يعلم أن القدر يمكن أن يحيل تلك الأحلام إلى تراب في لحظة.. ليبقى القصر في تأججه.. ولكن سينطفيء اللهب عما قريب.

راضية

غابت الشمس وبدأ يسود الظلام، فبعد أن جلب الشاب أخيرا الماء وارتوينا قام باحضار بعض الحطب ليشعل النار.
وقتها كنت مستندة إلى الشجرة شاعرة ببعض الألم في ساقي لكن على كل حال حاولت بقدر الإمكان أن أبقى صامدة أمامه، فلم أسمح له بحملي مطلقا بالرغم من مساعداته الغير مسبوقة لي، فأنا غير واثقة به.
ليقطع ذلك الصمت الطويل فجأة بسؤاله: كيف هو وضعك الآن؟
أجبته: بخير.
ثم شعرت بضميري يؤنبني لكوني أتعامل معه بغلظة وهو يساعدني بدون مقابل، فقد أنقذ حياتي اليوم لذا يجب أن أقدم إليه الشكر على أي حال.
- بالمناسبة.. أشكرك لإنقاذ حياتي.
لأراه يضحك ضحكة غريبة تشوبها بعض السخرية فتعجبت لأمره ثم تجاهلت الموضوع، وبعد فترة انتهى من إشعال النار، فذهب ناحية الشجرة المجاورة لي وجلس أسفلها.
- يبدو أن أرواحهم جاءت اليوم لتنتقم.

التفت إليه، ثم عاد يكمل شاخصا السماء: ولكنها محظوظة جدا، فقد استطاعت الإفلات من أيدي الانتقام والنجاة بنفسها.
وبدأ يضحك تلك الضحكة السمجة التي رأيته بها أول مرة، فتسلل إلي الغضب نتيجة لطريقته الغريبة في الحديث، أنا أكره الكلام بالألغاز وبشدة، لأسأله: معذرة، هل هذا الكلام موجه إلي؟
لم يعر لسؤالي اهتمام وأخذ يستمر في الضحك مرددا: كيف فعلتها.
حينها ازدادت نيران غضبي فقلت محاولة تمالك نفسي: من فضلك وضح كلامك أنا لا أفهمك!
التفت إلي أخيرا بعد أن توقف عن الضحك وقال: ألا تذكرك تلك اللدغة بشيء؟
نظرت بعدم فهم، ليكمل: السم.
عندئذ بدأت علامات الحيرة والتساؤل على وجهي تتلاشى شيئا فشيئا، بينما عاد هو يضحك قائلا: يبدو أنك بدأت تفهمينني.
فأبعدت وجهي عنه ولذت بالصمت، ثم قال: ولكن كيف فعلتِها؟! من الواضح أني كنت مخطئا في البداية، أنت ذكية يا للعجب!
حينها شعرت بشيء من التهكم في حديثه مما دفعني لقول: ماذا تقصد بهذا، هل كنت تراني غبية مثلا؟
- حاشا لله، ولكن اعذريني يا فتاة فهذه أول مرة في حياتي أرى فتاة ذكية.
- يبدو أنك بدأت تتخطى حدودك معي مرة أخرى على الرغم من أني حذرتك من قبل!
- اهدأي، أنا لا أقول سوى الحقيقة، الكل يعلم أن الفتيات لسن بالذكاء الكافي، وأنت نفسك تشهدين بهذا.
في تلك اللحظة كنت على وشك النهوض لجز عنقه ولكن الظروف لا تسمح الآن فحاولت بقدر الإمكان كظم غيظي مكتفية بزفرة طويلة.
- لكن أتعلمين، إن هذه هي اول مرة أشعر بالغيرة من أحدهم والأكثر غرابة أن يكون هذا الأحد فتاة.
ثم سكت لهنيهة وقال: لقد كانت بداخل رأسي خطة عبقرية للهروب لكنك سبقتني بخطتك الجريئة تلك، كيف أحضرت هذه القوة لقتل كل هؤلاء الناس!
عندها شعرت أن هذا الحديث يجب أن يُنهى الآن وحالا فقاطعت كلامه بحزم: من فضلك أنا متعبة وأريد أن أنام، هلا توقفت عن الحديث؟!
- حسنا سأتوقف.... ولكن بعد أن تخبريني بسر هذه القوة.
يا الله!، ما هذا الكائن؟!، من أين ابتُليت به أنا!!
وبدون مقدمات قررت على الفور النهوض والمغادرة غير عابئة بآلام ساقي، فوجدته يصيح: هيي، أين ذاهبة؟
- لا دخل لك.
- انتظري لن تستطيعي السير الآن.
ثم نهض من مكانه قائلا: حسنا حسنا، سأذهب أنا، لكن لا تتحركي من مكانك.

أف!! أخيرا ذهب هذا الأهوج، ظننته أصبح شخص سوي ولكن يبدو اني أخطأت الظن، ماذا بيدي أن افعل يجب أن أتحمله شئت أم أبيت، فهو من أنقذني من ذلك الخاطف ثم أنقذني من لدغة الثعبان، بالتأكيد لابد ألا أنسى هذا ولكنه في الوقت نفسه يثيرني غضبا بالأخص طريقته الملغزة في الحديث تستفزني إلى أقصى الحدود!
هيا راضية اهدأي انه أمر تافه يمكن أن نتخطاه بسهولة، اصبري وتحملي، فقط بضعة أيام وستتخلصين من هذا المجنون بعدها تعودين إلى القصر إذا أراد الله، الأمر يحتاج إلى بعض الصبر منك فحسب.. اصبري..

ياقوت

وها قد جاء الصباح بعد أن مرت تلك الليلة بسلام، فاستيقظت لأجد الفتاة لاتزال نائمة.
فنهضت وذهبت أولا أغسل وجهي بالماء، ثم توجهت إليها ببطء كي أوقظها، ولكن ما إن اقتربت منها قليلا ورأيت وجهها النائم عن كثب حتى دخلت في حالة لانهائية من الشرود رغما عني، تبدو كالملاك، نائمة في سلام ولكن حاجبيها قاطبان دلالة على اضطرابها الداخلي، أعلم أنها خائفة، فعنادها ليس سوى درع تحتمي به كي تستطيع مواجهة العالم، لا أعلم لما أشعر أنها ذات روح مختلفة عنا، لدي احساس أنها لم تجرب العناء من قبل، هي لا تدرك أن الخوف قد سيطر على ملامحها بالكامل لكنها مع ذلك تتحايل وتثبت العكس.
إنها كلوحة فنية معبرة حاملة كثير من المعاني، وكأنها تريد البوح بما في داخلها من ألم وأسى.. ما هي حكايتك أيتها الفتاة ومن أين ظهرتِ لي؟. لكن لا تقلقي أبدا طالما انا موجود لن يمسك الضر وستبقي بأمان معي..
وفجأة بدأت تفتح عينيها لتجدني أمامها مباشرة، مما جعلها تنتفض قائلة: ماذا تفعل هنا؟!
وقتها شعرت بتشتت كبير فقد باغتتني وأنا في منتصف شرودي، لهذا ابتلعت ريقي وأجبت متلعثما: لا.. لا شيء، كنت سأوقظك كي نرحل.
فأخذت تلهث مجفلة معدلة من غطاء رأسها، وذهبت أنا وأحضرت لها الماء حتى شربت وارتوت.
- هل سنذهب أم تحتاجين مزيدا من الراحة؟
- كلا أصبحت بخير، هيا لا يجب ان نضيع الوقت.
وقتها لم أجد حَرَجا في أن أطلب منها أن تعطيني يدها كي أساعدها على النهوض، ولكنها رفضت رفضا تاما بالرغم من كونها في حالة حَرِجة وتحتاج إلى المعونة.
لتحاول الوقوف مستندة إلى الشجرة ولكن ما كادت تثبت قدميها بالأرض حتى انزلقتا وتهاوى جسدها إلى الأرض مجددا. للأسف لم أستطع اللحاق بها، فباتت تتأوه في صمت محاولة اخفاء ألمها.
حينها مددت يدي إليها مرة أخرى وفي عيناي نظرة رجاء عميقة، لتستسلم بالنهاية وتعطيني يدها وعلى وجهها بعض الامتعاض، فقد لاحظت أنها لا تحب ان يلمسها رجل غريب.

تبدو أقرب للتدين بالرغم من عنادها وأسلوبها الجاف، هي فتاة ذات حسم ومبادئ ثابتة وهذا ما أدهشني بها حقا.
لتنهض ببطء مستعينة بيدي، فقد حاولت قدر الإمكان أن أساعدها دون أن تشعر بي، فبدأنا نمشي بخطوات هادئة وكان الحياء جليا على وجهها بشدة، لم تفارق عيناها الأرض، إلى أن وصلنا حيث يكون الفرس، فساعدتها في الصعود إليه ثم صعدت أنا من بعدها، لتبدأ رحلتنا من جديد..

بالقصر:

أعدت تركان عشاءا فاخرا او بالأصح مصيدة فاخرة للسلطان، فخطتها هذه المرة أن تدعو السلطان على العشاء كي تستدرجه إلى موضوعها المراد، لم تعد تحتمل ذلك الوضع أكثر من هذا الحد ووجدت أنه لا مفر من العودة إلى تنفيذ خطتها الشيطانية والتي تبدأ بتملق واستدراج وتنتهي بقتل ودم.
دلف السلطان إلى الغرفة، فأشارت بيدها إلى الخادمات كي يخرجن ومن ثم أغلقت الباب.
فتقدم السلطان إلى المنتصف ورأى تلك الطاولة الضخمة الذاخرة بالأطعمة الشهية التي يفضلها، ولكن لم يؤثر فيه ذلك المنظر بمكيال ذرة.
لتلحظ هذا تركان، مما قالت محاولة فتح شهيته: انظر مولاي لقد أعددت لك جميع المأكولات التي تحبها.
أومأ برأسه ثم جلس ليأكل في برود، حينها حاولت تركان أن تجتذبه بكلامها المعسول، مبتدئة: أعلم أنك متعب هذه الفترة.. لذا أردت أن أروح عنك ألمك وحزنك.
- اشكرك تركان لكن لا شيء سيروح ألمي وحزني سوى الاقتصاص من قتلة ابنتي.
زمت شفتيها منزعجة هي تريد بقدر الإمكان أن تنسيه ذلك الأمر وهو لا يعطيها فرصة، ثم قالت: بالطبع يا مولاي، لكن هناك امور أخرى في الحياة يجب ان نعيرها اهتمام.
نظر إليها بعدم فهم لتكمل: أراك هذه الفترة منشغلا بتلك القضية فقط لا غير وباقي شئون السلطنة لم تعد تمنحها الاهتمام الكافي كالسابق.
حينها بدأ يتراود لديه ما يجول بخاطرها، فرد بحسم: ولكن أعتقد أني لن أنتظر من أحد أن يأتي ويخبرني بما يجب أن أفعل ولا أفعل بسلطنتي.
لتشعر انه يحجمها في نقطة معينة، ثم ردت: حاشى لله يا مولاي انت بدون شك أعلم بسلطنتك من أي احد.
- جيد.. ولما تقولين ذلك إذا.
ازدردت لعابها وقالت: بصراحة يا مولاي أرى أنك أهملت ابنك الأمير ركن الدين كثيرا ولم تمنحه الفرصة الكافية.
ظهرت على شفتيه شبح ابتسامة لكونه نجح في الوصول إلى بنات أفكارها، لتكمل: أنا أم يا مولاي وبالتأكيد تهمني مصلحة ابني.. حتى وإن كان قد أخطأ، ألست أنت والده والداعم الأول له؟، لما لا تسامحه وتعطيه فرصة أخرى.
ابتسم مستهجنا ثم قال: ولهذا أعدتِ تلك الوليمة.
وفجأة قلب الطاولة بما عليها من طعام، ثم ذهب إليها وقبض على شعرها بشدة جعلتها تتألم، فصاح في وجهها وكأنه بركان وانفجر: تريدين مني أن أترك قضية ابنتي المقتولة والتفت إلى ولدك العديم الفائدة ذاك! أتعرفين لولا أنه من صلبي لكنت ألقيت به في السجن المظلم إلى الأبد.. إن أمثال ولدك ليس لهم سوى الذل والمهانة طوال حياتهم حتى الخدم أفضل منهم مكانة... لذا أحذرك يا تركان إن حاولتِ تخطي

حدودك معي وفتح هذا الموضوع المشؤوم مرة أخرى، كني على يقين أنك ستستيقظي يوما وتجدي نفسك وابنك ملقيين في الشارع كالمشردين!
ثم قام بتركها بعنف وذهب، فسقطت متحسرة وسط تلك الفوضى تبكي وتنتحب، ولم تمر ثوان حتى فقدت الوعي تماما فارتمت مغشية أرضا، لتهرع إليها وصيفتها ومعها بعض الخادمات تحاولن إفاقتها.

راضية

وها قد مرت تلك الليلة وعدنا لإكمال رحلتنا من جديد..
خلال عدونا مكثت أفكر بذلك الجالس أمامي يقود الفرس، إني أستعجب لأمره كثيرا.. فتارة أراه يتهكم ويسخر مني وتارة أخرى أجده يساعدني وينقذني..
أعلم أني أعامله بغلظة ولكن هو من بدأ بهذا، فمنذ ذلك الحين عندما رأيته بالأسواق أول مرة وأنا لدي فكرة سيئة عنه، لذا كيف سأعطيه ثقتي بعد ذلك!
على كلٍ سأحاول من جديد تمالك أعصابي معه بالرغم من أني فشلت ولكن هذه هي الطريقة الوحيدة للخلاص من تلك الأزمة.
واستمر الفرس في عدوه الغير منقطع وكل منا منشغل في حاله، إلى أن لمحت في وسط الطريق مشارف مدينة بدأت في الظهور كلما اتجهنا نحو الأفق.
حينها تهللت أساريري وشعرت ببريق أمل، أخيرا وجدنا أناس يعيشون بهذه الأراضي، لأهتف بسرعة إلى الشاب: انظر هناك ناحية الأفق!
أجابني بينما كان ينظر مضيقا عينيه: أجل لاحظت.. يبدو أنها قرية صغيرة.
فأكملنا مسيرنا ناحية تلك القرية إلى أن أصبحنا على مسافة ليست ببعيدة منها، فأوقف الشاب الفرس، ثم هبط بمفرده
ذاهبا يتفقد المكان من بين الحشائش، أما أنا فبقيت اتطلع نحو هذه القرية علها تكون سبيل النجاة لنا، ثم لم يلبث الشاب حتى عاد سريعا.
- أعتقد أنها قرية صغيرة كما توقعت، على أي حال لابد أن نلتجئ إليها مؤقتا حتى نجد طريقة نهتدي بها إلى وجهتنا.
فبدون مقدمات وافقته، ثم امتطى الفرس مرة أخرى في طريقنا إلى هناك.
وعندما وصلنا إلى عتبة القرية وجدتها عبارة عن مجموعة من المخيمات، تبدو كمجتمع صغير منعزل عن العالم، ليأتي إلينا رجلان واللذان بدا كحراس.
- من أنتما ومن أين جئتما؟
رد الشاب بتودد: نحن مسافران وضللنا الطريق، هل من الممكن أن نلتجئ إلى مخيمكم مؤقتا؟
نظر إلينا الحارس نظرة مريبة ثم ذهب فجأة وبقي معنا الحارس الآخر، فهمست إلى الشاب: مهلا إلى أين اختفى هذا الرجل؟
- اصبري وستعلمين.
لأنظر إليه بضجر.
وبقينا ننتظر إلى أن عاد ذلك الحارس ولكن كان معه رجل ستيني يبدو سيد هذا المخيم، فهبط الشاب عن الفرس في ما بدا احتراما له، ثم بدأ الرجل يتكلم.
- عرفت أنكما مسافران ضللتما الطريق وتريدان البقاء في مخيمنا لفترة.
رد الشاب: صحيح.

- حسنا لا يوجد مشكلة لكن بالتأكيد تعرف أن لكل شيء مقابل.
ظهر التوتر على وجه كل منا ليكمل الرجل: يوجد هنا مخيمات انشأناها للمسافرين الرحَّالة مؤخرا، ستدفع ثمن اقامتك أنت وزوجك بالإضافة إلى الطعام والشراب.
ليزداد التوتر فمن أين سنحضر المال!، وقتها فطن ببالي أن أخلع قلادتي وأعطيهم إياها عوضا عن النقود لكني تراجعت في اللحظة ذاتها.. فهذه قلادة أمي كيف سأفرط بها بهذه السهولة!، لذا قمت باخفائها خلسة داخل ردائي حتى لا يلاحظها أحد.
أثناء ذلك وجدت الشاب يقوم بخلع القلادة الفضية التي تطوق رقبته ويقول: معذرة سيدي، ليس بحوذتي نقودا الآن، هل يمكنك أخذ هذه القلادة بدلا من النقود؟
تناولها الرجل منه وبات يمعن النظر فيها لفترة ثم قال: وان اكتشفت أنك محتال وأن هذه القلادة ليست من الفضة.
- يمكنك فعل بي ما تشاء سيدي.
فأخذ ينظر إلينا بتحدٍ بينما كان الشاب واقف في ثبات، ثم قال الرجل: حسنا جهز له خيمة هو وزوجته.
استوقفهم الشاب بسرعة: لا، نريد خيام منفصلة.
نظر إلينا الرجل في ريبة ثم قال: لا يوجد خيمة منفصلة لفرد واحد إما خيمة واحدة لزوجين أو مجمعات الخيام الخاصة بالذكور والإناث.
- حسنا سنختار مجمعات الخيام.
عاود النظر إلينا بريبة أكثر ثم أمر الحارس بتنفيذ طلبنا، وبعدها قال لنا: ستذهبان الآن معه كي يعرفكما على مكان إقامتكما.
وبالفعل بدأنا نسير مع الحارس كما أسميه، فكان هو والشاب يمشيان أما أنا فكنت لاأزال فوق الفرس، لأجول ببصري بين أركان هذا المكان، الناس هنا مظهرهم مختلف كثيرا، وكأني سقطت في بلد آخر لم أره من قبل.. إنهم يشبهون بعضهم البعض في كل شيء حتى في الملبس!، يبدو أنهم مترابطون إلى حد كبير.
ثم وجدت الشاب يسأل الحارس: أخبرني يا هذا في أي نطاق يقع هذا المخيم؟
- إنه يقع ضمن اطراف مدينة جاناكبوري التابعة لسلطنة دلهي.
دلهي!
وما إن سمعت هذه الكلمة السحرية حتى بدأ قلبي يخفق بشدة، إننا بالفعل في دلهي!
- وهل يوجد لديكم وسائل مواصلات للمدن الأخرى؟
- يوجد ولكن للمدن التابعة لدلهي فقط.
الحمد لله، لقد وجدت طريق العودة أخيرا!، لا أصدق أني الآن بأرضي، كم اشتقت إليك يا دلهي.
ثم وصلنا إلى نهاية الطريق عند تلك المخيمات، ليغادرنا الرجل ونبقى كلانا بمفردنا بين هؤلاء البشر، ففي هذا المكان الناس مختلفون على عكس بداية الطريق وهذا بالتأكيد لأنهم مسافرون مثلنا، ثم وجدت الشاب يقول: سنفترق الآن، سأذهب أنا إلى مخيم الرجال أما أنتِ فستذهبين مع النساء.
أومأت برأسي، ثم حان الوقت كي اهبط من أعلى ذلك الفرس، فهبطت هذه المرة بمساعدته ثم قال لي: يجب أن تبحثي عن ا
أحد خبير يطمئن على ساقك، بالتأكيد ستجدي أحدا في هذا المخيم الواسع.
أومأت مرة أخرى ثم قلت له: وماذا سنفعل بعد ذلك؟

- اذهبي أولا إلى المخيم واطمئني على ساقك وبعدها سنرى هذا الأمر.
عندها قام بمناداة امرأة تبدو في سن جدتي كانت قادمة من المخيم ثم طلب منها بلطف أن تعتني بي بعد أن أخبرها بحالتي فوافقت باسمة الثغر، ثم أمسكت بيدي وبدأت تمشي معي خطوة بخطوة في حين أنه كان واقف يتابعني إلى أن دخلت إلى المخيم.
وقتها شعرت بغصة في حلقي بعد أن افترقت عنه، لا أعرف لماذا على الرغم من أني أتمنى التخلص منه سريعا، ياله من شعور متناقض حقا!
لأسأل السيدة الطيبة عما إن كان هناك حكيمة في ذلك المخيم، ولحسن حظي اني وجدت، فذهبت إليها على الفور كما وصاني الشاب أو.. ياقوت.

بالقصر:

كانت الأوضاع كما هي لم تتغير، السلطانة لاتزال راقدة بفراشها وحفيدتها والوصيفات من حولها واقفات مكتوفي الأيدي، الكل عاجز عن تفسير حالتها حتى الحكماء أنفسهم، فمنذ ذلك اليوم ولسانها لم ينطق بكلمة، أقصى ما تستجيب له هو شرب الماء وبعض من الطعام لا يذكر.
فحقا مرض السلطانة أحدث فارقا كبيرا بالقصر، البعض سعد بهذا لكونها لم تعد تصيح وتفرض أوامرها عليهم، أما حفيدتها والمقربون لم يصبهم سوى الهم والشقاء، فالسلطانة والأميرة كانا روح القصر، فحتى جدالهما وتعاركهما سويا كان يعطي للقصر مذاقا مختلفا، أما الآن بعد أن انطفأت شعلة الأميرة انطفأت السلطانة معها ولم يعد ما يستثير النفس واللهفة، أصبح القصر كئيبا رتيبا، وكأنه بيت مهجور بلا أرواح.
وكما اعتادت شادية كل يوم تأتي وتمكث بجانب جدتها على أمل أن تتكلم أو تحرك شفاها، فأتت في ذلك اليوم وجلست بجانبها ثم بدأت تقول: كيف حالك اليوم جدتي؟، لا أعلم ان كنت تسمعينني أم لا ولكن ألم يحن الوقت بعد كي تحدثينا؟. القصر كل مدى يتحول إلى كهف مظلم.. متى ستنهضين وتزيلين كل هذا؟. اشتقت إليك يا جدتي.
لتبدأ وصلة البكاء التي اعتادتها، وعلى إثرها تأتي عائشة وكاكول للتخفيف عنها وتنصحنها بأن هذا غير مستحب لجدتها، ولكن جاء هذا اليوم ليحدث ما لم يتوقعه أحد، إذ تنطق السلطانة أخيرا بصوت مبحوح: راضية.
رفعت شادية رأسها عن التخت في ذهول بينما بات الباقية غير مصدقين ما يحدث، ثم كررت السلطانة الاسم بنبرة باكية: راضية!
- جدتي!!
- راضية!!
وعندها أخذت السلطانة تنشج في البكاء بغزارة شديدة فقد كانت هذه أول مرة تبكي من بعد موت راضية، لتحتضنها شادية بين ضلوعها مواصلة البكاء معها، مما أدى إلى بكاء جميع الواقفات بما فيهن عائشة وكاكول، فحقا كان المنظر مؤثرا لدرجة غير محتملة، فقد أخرجت السلطانة دموعها المكبوتة أخيرا، وكأنها بحر اهتاج بفيضانه.
ليستمر البكاء والنحيب بلا توقف، ولكن الشيء الجيد في الأمر أن السلطانة قد عاد إليها صوتها وهذا حتما دليل على شفائها عما قريب.

راضية

مر يوم وجاء يوم جديد، لا أعرف ماذا ينتظرني ولكني متفائلة لحد كبير، فكوني بدلهي هذا يعطيني الأمان الكافي.
وبعد أن اطمأننت على ساقي وأصبحت قادرة على الحركة قررت أن أخرج وأبحث عن عمل؛ فأنا بحاجة إلى المال بالإضافة إلى ديني للشاب بنصف ثمن القلادة.
فخرجت في الصباح المبكر بعد أن ارتديت ثوبا جديدا منحتني إياه إحدى الفتيات الطيبات، ثم بدأت أجول هذه المخيمات ابحث هنا وهناك، وللأسف مكثت ابحث لوقت طويل، فالجميع ليس لديهم وظائف متعللين بنقص المال لديهم، وكوني غريبة عنهم جعل الناس أكثر اعراضا ورفضا.
فبقيت على هذا النحو إلى أن ضاع نصف النهار، لأجد دكانا صغيرا يبدو لي كمغزل للأنسجة، حينها شعرت ببعض الفرح قد تسلل إلي فأنا ماهرة بهذه الحرفة حيث جدتي من علمتها لنا.
ثم اتجهت نحو ذلك الدكان راجية أن تكون لي فرصة هناك، فوقفت عند الباب منتظرة أن يأتيني أحدهم، وبعد فترة وجيزة أتتني سيدة حسناء تبدو في العقد الخامس من عمرها.
ابتسمت إلي وقالت مشرقة الوجه: كيف أساعدك؟
- جئت كي اسأل عما إن كان يوجد لديكم وظائف خالية.
لأجدها تتفرس هيئتي ثم قالت: أنتِ لستِ من هنا صحيح؟
أجبتها بعد أن شعرت براحة معها: أجل صحيح.. في الحقيقة أنا مسافرة قد ضللت طريقي لذا جئت كي ابحث عن عمل اقتات منه خلال رحلتي.
- هممم.. حسنا يمكنك العمل ولكن الأجر هنا على حسب جودة انتاجك.
قلت باندفاع غير مسبوق: لا لا تقلقي أنا ماهرة بهذه الحرفة.
ضحكت لاندفاعي قائلة: سنرى.
عندها شعرت أن الحياة بدأت تدب داخلي من جديد، فبت احمد الله أني وجدت عملا أخيرا، حينها عزمت على أن ابذل قصارى جهدي في ذلك العمل حتى تعطيني السيدة أجرا كريما يسد حاجتي.
بدأت اعمل بنفس راضية وإرادة وصبر، غير أن تلك السيدة كانت طيبة معنا ودائما ما تحفزنا على العمل والمثابرة.
وإلى الآن صار لي ثلاثة أيام بهذا المشغل، اذهب مع طلوع النهار وأعود مع غروب الشمس، وكنت كلما نلت أجرا ادخر جزءا لنفسي والجزء الآخر احتفظ به للشاب والذي بالمناسبة لم أره أبدا خلال هذه الأيام، أين اختفى هذا، أيعقل أن يكون رحل؟. لا أعلم.. على كلٍ اعتقد أنه لم يعد هناك شيء يربطني به سوى بعض النقود والتي قاربت على تجميعها ولكن إن كان قد ذهب فهذا يدل على أنه ليس بحاجة إليها وحينها لن يكون عليّ حرج.
ثم جاء اليوم الرابع لي، عاودت الكرة وذهبت مع طلوع الشمس ولكن هذه المرة لم اعد مع الغروب، فقد أنهتنا السيدة اليوم مبكرا لأن لديها مناسبة هامة مما جعلها تمنحنا إجازة في اليوم التالي، لأجد الفتيات قد فرحن بهذا ولكني لم افرح مثلهن ففي هذا اليوم الضائع لن أنال أجرا وبالتالي سيقلل هذا من سرعة تجميعي للدين.
فخرجنا مبكرا من المشغل وكنا وقتها في وسط النهار، حينئذ لا أعلم من أين راودتني تلك الفكرة، حيث وجدت عقلي يعرض علي أمرا افتقدته كثيرا وهو أن استغل ذلك الوقت في شيء مفيد، لما لا أذهب إلى مكان فارغ واتدرب على القتال بالسيف.

شعرت حينها بطاقة غريبة تعتريني وشيء ما يدفعني إلى الذهاب والقيام بهذا. وبلا تردد ذهبت إلى المخيم وسحبت سيفي الذي قد استعرته، ثم وضعته بالغمد وانطلقت أعدو إلى سبيلي.
خرجت من المخيم وبداخل رأسي المكان المراد الذهاب إليه حيث كنت قد رأيته أول مرة خلال بحثي عن العمل، ولحسن حظي أن ملابسي الجديدة تشبه ملابس التدريب مما سيسهل الحركة.
وبعد فترة وصلت أخيرا إلى ذلك المكان.
أرض واسعة منعزلة عن العالم تحيطها الكثير من الأشجار زاهية المنظر، بالإضافة إلى الطيور المختلفة بألوانها، الأجواء تبدو صافية خالية من الضوضاء وكأنك انفصلت عن تلك المخيمات بالكامل فأنا لا افهم الغرض من ترك هذه الأراضي الجميلة خالية.
وبعد أن تأكدت من عدم وجود أي بشري، سحبت سيفي لأبدأ التمرس على القتال المنفرد، فكم اشتقت لأوقات التدريب واللحظات التي أقضيها مع المعلمين في القتال.
ثم اتجهت ناحية الشجرة وبدأت أمارس عليها تدريبي.
فاستدرت مرة واحدة ومن ثم وجهت السيف مباشرة إليها، لأجد بعد ذلك يدا ممسكة بسيف قد احاطت بعنقي فجأة.. يبدو أن التدريب سينقلب إلى قتال حقيقي.
وفي لحظة قمت بلكم حامل السيف في بطنه ومن ثم فعلت معه نفس الحركة التي فعلتها بالسابق مع ذلك الخاطف. استطعت الافلات منه وأصبحت في الجهة المقابلة له، لكنه بدا غريب المظهر، حيث كان مرتديا شال أسود طويل يغطي وجهه وجسده بالكامل، فلم أستطع التعرف على شكله ولكن لم اكترث لهذا، لأجده مقبلا علي بسيفه فتفاديت ضرباته المتلاحقة وبدا لي أنه محارب ذو مستوى ضعيف في القتال، لذا لم أشأ أن أجرحه بالسيف واكتفيت بصد ضرباته لربما كان من سكان المخيم حينها سأكون في ورطة كبرى.
واستمر كلانا على هذا النحو يحاول ضربي وانا أصده، إلى أن شعرت في لحظة أن مستواه في القتال بدأ يتطور بشكل مخيف، طريقته قد اختلفت تماما عن ذي قبل حتى أصبح صدي لضرباته السريعة غير كاف، وفجأة أجده بحركة واحدة غير ملحوظة قد أطاح بسيفي بعيدا.
ازدردت ريقي متراجعة، كيف حدث هذا؟!، إن إطاحة السيف بالذات هي أكثر الحركات التي تدربت عليها، لقد اعتقدت أن بعد كل هذا التدريب لن يستطيع أي أحد إطاحة سيفي مهما إن كان!
وبعد أن أصبح بيني وبينه مسافة متوسطة، رأيته قد ألقى بسيفه أرضا ثم قام بالكشف عن وجهه.. ماذا!، أنت!!
- يالها من مفاجأة صحيح؟
وبدأ يصفق بينما كنت واقفة مشدوهة غير مصدقة ما قد تم، ثم قال: بصراحة يا فتاة لم أكن لأتوقع أنك ماهرة هكذا في القتال.
- متى.. متى ظهرت؟. ثم كيف أطحت سيفي بهذه السهولة؟!
اقترب مني وقال بابتسامته الماكرة: هذا سر المهنة.
لأراه مقبل على الرحيل، فبعد أن مشى بضع خطوات وولّى لي ظهره ركضت نحوه ثم استوقفته بقولي: أريد ان اعرف هذا السر.
ضحك بسخرية ثم قال: سذج كثيرا هؤلاء الفتيات، هل تظنين أن الأمر بهذه البساطة؟
قلت باستعجاب: ماذا يعني؟

- أقصد أن تلك الحركات التي رأيتها الآن سرية جدا ونادرة لن تجدي أحدا يعلمها إلا أقل القليل أو ربما لن تجدي مطلقا.. وبالتأكيد أنا لن أعلمك إياها بهذه السهولة إلا إذا كان أمامها مقابل مادي قوي جدا..
وداعا.
تركني ومشى بضع خطوات أُخر لأستوقفه مرة اخرى: انتظر.
توقف فذهبت إليه وقلت: لقد وجدت عملا خلال الأيام الماضية يمكنني أن أدفع لك.
ضحك متهكما ثم قال: وهل عملك هذا سيفي بالمقابل؟
- أجل، يومان على الأكثر وستكون النقود عندك.
نظر إلي بتحدٍ مستعجبا من ثقتي، ثم قال: حسنا.. سأعلّمك هذه الحركات ولكن هناك شروط.
تسلل إلي الغضب وقلت بنبرة غليظة: ألم أقل لك يومان وسأعطيك النقود؟!
- أجل، بجانب النقود هناك شروط أخرى.
زفرت متضجرة لعجرفته، ثم بدأ يقول ملقنا: أولا يجب أن تتحدثي معي بأدب واحترام.. بمعني أن ما قمتِ به الآن من زفرات وغضب منافٍ للشروط.
لأجز على أسناني في غيظ، فأكمل طائفا حولي: ثانيا التركيز الشديد.. لابد أن تكوني حادة البصر وقوية الاستيعاب فأنا لا أعمل مع الأغبياء.
لقد زودها حقا!!
ثم اقترب مني بشكل ملحوظ وقال ناظرا إلى عيني بالتحديد: ثالثا وأخيرا، العناد.. أنا لا أسمح بالعناد أبدا في عملي، ويجب عليكِ حتما طاعتي الطاعة الكاملة في كل شيء.. اتفقنا؟
بادلته نفس ذات النظرة وقلت: اتفقنا.

بالقصر:

كانت تركان طريحة الفراش بغرفتها، فمنذ أن فقدت وعيها هي قد دخلت في حالة اكتئاب حادة جعلتها تمكث في غرفتها لأيام، لا يدخل إليها أحد سوى الخادمات وابنها.
وفي ذلك اليوم كانت الوصيفة والخادمات يحضرن لها حساء الشفاء. تناولته من الخادمة ومن ثم بدأت تحتسيه، ليطرق إلى مسامعها همهمات بعض الخادمات حيث كانت تقول إحداهن: ألم تسمعي بخبر شفاء السلطانة الأم، يقولون أن عاد إليها النطق وبدأت حالتها تتحسن.
وبدون مقدمات قامت تركان بطرح قدر الحساء أرضا ومن ثم وثبت من فراشها تصيح هائجة: ماذا قلتِ؟!!
ارتعب الجميع من نهوضها المفاجيء، بينما أكملت: من الذي قد شُفي!!
وسرعان ما اتجهت نحو الخادمة وقامت بخنق رقبتها، لتحاول باقي الخادمات منعها، فنجحت فاطمة في ذلك وأبعدتها عن الخادمة التي كادت أن تفقد حياتها بين كلتي يديها ثم عادت تصيح بأكثر جنونية: اذهبوا من هنا!!!
كررت فاطمة جملة سلطانتها وأخرجت جميع الخادمات، ثم ذهبت لتهدئتها بينما سقطت هي أرضا وأخذت تبكي بحرقة شديدة.
- اهدأي يا سلطانة أرجوكِ، صحتك تتدهور يوما بعد يوم.
- ماذا بيدي أن أفعل يا فاطمة، ضاع كل شيء في لحظة.. فبعدما أصبحت أنا السلطانة تركان وامتلكت جميع المقاليد والصلاحيات غدوت الآن مهددة بالطرد أنا وابني.. لقد عمى السلطان عني لم يفكر حتى في الاطمئنان علي.. لا أعلم ما الذي غيره.

- أتوسل إليك مولاتي.. انسي تلك الأمور الآن واذهبي وارتاحي إن صحتك أهم.
- انسى! تريدينني أن انسى، كيف؟! إن ابني الأمير ركن الدين سيأخذ حقه الضائع كاملا!، اقسم لك يا فاطمة أنه لن يكون هناك سلطان على وجه الأرض سوى ابني أنا حتى لو كلفني ذلك قتل الجميع!. لقد خُلق ابني ليكون سلطانا وسيظل سلطانا رغما عن أنف أي أحد وإن كان السلطان نفسه!
ثم قالت في نفسها بتوعد: انتظروا عذابي الأكبر يا سكان القصر.. فقد اقترب أجلكم،و أولكم.. السلطان.
طرق الباب فجأة بينما كان السلطان متواجدا بغرفة مكتبه، أجاب: ادخل.
يدلف غياث الدين إلى الغرفة، فنظر إليه السلطان نظرة هامشية ومن ثم أعاد توجيه بصره إلى الأوراق بيده.
وظل غياث الدين واقفا لثوانٍ والذي بدا على وجهه علامات الارتباك، ليعاود السلطان النظر إليه قائلا: ماذا بك واقف غياث الدين، اجلس.
- اعذرني مولاي ولكن الاخبار التي معي الآن قد تقلب موازين القضية رأسا على عقب.
هتف السلطان متلهفا: اجلس واحكي على الفور!
جلس وبدأ يتكلم: بعد تحرياتنا الدقيقة وبحثنا المستمر اكتشفنا أن السر يكمن في هذا الرداء.
أشهر الرداء بيده أمام السلطان والذي رد: أجل، هذا نفسه الرداء التي كانت ترتديه ابنتي عند خروجها.. لكن ما علاقته؟
- تفضل يا مولاي.
تسلم السلطان منه الورقة التي كانت معه ومن ثم بدأ في قراءتها لتلمع عيناه بعد فترة عند آخر الكلمات وترتسم الدهشة على وجهه، ثم قال بعد أن انتهى: أين عثرتم على هذه الورقة؟
- لقد وجدناها بغرفة الأميرة راضية يا مولاي.
أعاد النظر إليها مليا ليقاطعه غياث الدين: كانت هذه آخر رسالة قد بعثتها المدعوة هدى صديقة الأميرة وأعتقد أن جلالتك لاحظت الكلام المكتوب بخصوص هذا الرداء.
- وهذا يعني أن الجثة من الممكن أن تكون لهدى وليس لراضية، خاصة أن هدى مختفية هي الأخرى بشهادة أهلها.
- بالضبط يا مولاي.
ساد الصمد لثوان ثم قال السلطان: ياله من أمر غريب.. ولكن إن كانت الجثة ليست لراضية ما مصلحة القاتل من حرقها؟
- وفقا للتحريات من المرجح أن يكون القاتل قد أخفى جريمته الخطأ بحرق الجثة لمحو معالمها وكان غرضه الحقيقي قتل الأميرة.
استعجب السلطان لهذا ثم قال: ولكن.. من أين عرفتم ان ابنتي هي المعنية بالقتل؟
- طريقة القتل هي من دلتنا يا مولاي، فإن كانت تلك الجثة للأميرة حقا ما كان القاتل اضطر لحرقها وتشويه معالم وجهها بكل هذه الوحشية التي جعلت من الصعب التعرف على هوية القتيل.. ثم إن تلك الطريقة للقتل ليست رائجة في مجتمعنا وإنما معروف أن القاتل يحب دائما أن يرسل الضحية إلى أهلها هي غارقة في دمائها وليس في رمادها.
حينها دخل السلطان في حالة من الذهول جعلته شاردا لبعض من الوقت ثم علق غياث الدين: مولاي أرى أن فحص الجثة سيساعدنا كثيرا في حل هذا الأمر خاصة أن صاحبة الجثة كانت متزوجة وأعتقد أن هذا سيكون دليل قوي على أنها ليست الأميرة.

قطعت هذه الجملة شرود السلطان ونظر إلى غياث الدين مطرقا ثم قال: فكرة جيدة، حسنا يجب أن نتخذ جميع الإجراءات سريعا.. آمر باحضار الطبيب الشرعي وجهز الرجال سنتوجه إلى مقابر العائلة.

ثم نهض السلطان وبداخل رأسه مئة سؤال، لقد أصبحت القضية مبنية فوق احتمالين فقط لا غير، إما أن تصبح تلك الجثة لراضية أو تصبح لهدى ووقتها سيحتدم الأمر ويشتد أكثر حيث ستنفتح قضية جديدة بخصوص اختفاء الأميرة لتستمر عجلة البحث بلا توقف حاملة معها أطنان من القلق والاضطرابات.
وبعد ذلك بدأ يلملم أوراقه المبعثرة على المكتب وأخذ يرتبها بانتظام، فيسأله غياث الدين: لكن مولاي ياترى من سيكون له مصلحة في قتل الأميرة راضية؟
استوقف هذا السؤال ذهن السلطان، وأخذ ينظر إلى غياث الدين وهو مغلوب على أمره فقد كانت تلك قضيته الوحيدة والآن أصبحت قضيتين فوق عاتقه كحمل الجبل، ثم قال له بالنهاية: سنعرف عاجلا أم آجلا..

(٩)

راضية

وها قد بزغت الشمس وأتى يوم جديد، إنه اليوم السابع لي في هذا المخيم. استيقظت من نومي شاعرة ببعض الألم في مفاصلي.. حقا كان تدريب الأمس كفيل أن يعادل جميع التدريبات التي تدربتها في السابق.
لقد رأيت أشياء وعرفت أشياء لم أكن لأعرفها على الإطلاق، إن ذلك الشاب يحمل في جعبته الكثير والكثير، فهو بالحقيقة مدرب فنون قتالية يعمل بمدينة بهادورغاره،... اهٍ يال سذاجتي!، لقد خلته قاطع طريق أو لص ولكن يبدو أني أسأت فهمه حقا.
كم أشعر بالندم على معاملاتي السابقة له، فما حدث أمس قد غير فكرتي عنه تماما. لكني لاأزال متعجبة لأمره، فهو لديه من الخبرة ما يعادل خبرة شخص في السبعين من عمره، كيف استطاع حصد كل ذلك القدر من المعلومات في هذا السن؟، لقد شعرت في لحظة أنه يفوق مدربيني علما!
أما بالنسبة لي فكان الوضع مختلفا كثيرا، وكأني أول مرة أحمل سيفا بين يدي، ففي غضون نصف النهار تعلمت أشياء لم تكن عيناي لتراها من قبل، بالإضافة إلى أنه أطلعني على أسرار عدة في القتال منها طريقة إطاحة السيف والتي اندهشت فور معرفتها، فهو يعتمد على الأعصاب وردات الفعل حيث أنه مدرك لجميع أسماء الأعصاب ووظائفها غير أماكنها المختلفة بالجسم لدرجة أني حسبته طبيبا متخصصا!
حقا هو يستحق مقابل قوي كما قال لي والذي لا أعلم إن كنت سأفي بسداده أم لا ولكن إن أُتيحت لي الفرصة أن أكافئه بالقصر أمام الجميع فلن أتردد في هذا أبدا.
ثم نهضت عن فراشي وبدأت أعدل منه لأفاجأ برابطة الشاب تتدلي من الوسادة، لقد نسيتها تماما منذ أن نزعتها عن ساقي إثر اللدغة.. عليّ أن أردها إليه.
حينها فكرت في أن أخرج وأبحث عنه كي أعيدها إليه ربما كان بحاجة لها ثم الدافع الأكبر وهو أن اشكره على ما فعله معي أمس، فوضعتها في جيبي متحفزة ومن ثم ذهبت لتغيير ملابسي.
وبعد أن أصبحت جاهزة، خرجت من المخيم في طريقي إلى مخيم الرجال، فوجدت رجلا مسنا قادما منه إلى الخارج، استوقفته بقولي: معذرة يا عم، أريد أن اسأل عن رجل يدعى ياقوت بهذا المخيم.

أطرق يفكر محاولا تذكره ثم قال فجأة: أجل عرفته ياقوت.
ابتهجت ليكمل: لكن يابنيتي هذا الرجل قد غادر منذ طلوع الفجر.
لتقع عليّ الصدمة، فعدت أسأله بإلحاح: هل أنت متأكد ان اسمه ياقوت؟
- بالطبع متأكد، لقد ودعنا فرد فرد قبل أن يرحل.
شكرته في بؤس ثم أصبحت أشعر أن قدميي لم تعدا تقوا على الوقوف من فرط الصدمة، فاتجهت إلى أحد المقاعد العامة وجلست منكسة الرأس، أحاول أن أجمع شتات نفسي، وعندها بدأت الأسئلة تدور برأسي: كيف حدث هذا.. كيف رحل بهذه السرعة.. لما لم يخبرني وتركني وحدي في هذا المكان..
بدأ الحزن يتسلل إلي، وشعرت وقتها وكأنما أحد قد طعنك في ظهرك وغدر بك، أعلم أنه لا يعتبر غدرا وهذا حقه، هو ليس مضطرا لاخباري.. ولكن لم أكن أعلم ان رحيله سيفرق معي بهذا الشكل.
- أيتها الفتاة؟
ماذا!، انا أعلم هذا الصوت!
رفعت رأسي لأجده واقفا أمامي بكامل هيئته، فوثبت قائلة: انت لم تذهب!
نظر إلي مستعجبا ثم قال: أذهب إلى أين؟
- لقد سألت عنك قبل قليل أحد الرجال وأجابني أنك رحلت منذ طلوع الفجر.
ابتسم وقال: أجل، هذا ياقوت.
- ماذا؟
- سأخبرك هذا الرجل كنيته مثل كنيتي هو يدعى صالح ياقوت أما أنا فأدعى جمال الدين ياقوت.
خبطت رأسي في خيبة ثم قلت: ولكن كيف أخبرني الرجل بهذا؟
- أمر عادي، فأنا لم يبق لي في المخيم سوى أسبوع واحد فقط بينما ذلك الرجل فأعتقد أنه قد صار له عدة أشهر لذا من الطبيعي ألّا أكون معروفا.
- معك حق.
بقيت واقفة في ارتباك إلى أن سألني: صحيح لماذا كنتِ تبحثين عني؟
- لأعطيك هذه.
ناولته الرابطة بعد أن أخرجتها من جيبي قائلة: اعتذر لتأخري في ردها.
- لا مشكلة.
ثم مكثت واقفة مترددة لا أعلم ماذا أقول أو من أين أبدأ في حين أنه شعر بهذا، ليقول: لما أنتِ واقفة اجلسي.
جلست ثم جلس هو بالقرب مني مستأنفا شرب الحليب الذي كان بيده، عندها قلت بلا مقدمات: في الحقيقة السبب الآخر لمجيئي.. هو أنني أريد شكرك على ما فعلته معي بالأمس.
ليبتسم ويقول: أعرف.
نظرت إليه باستعجاب لقد ظننته سيقول لي شكرا أو أي شيء من هذا القبيل لكن تجاهلت الأمر، وبعد أن أخذ رشفة من الكوب قال: أتريدين كوبا من الحليب؟
- شكرا لا أريد.
فعاد يكمل شرابه إلى أن انتهى منه ثم قام بوضع الكوب بجانبه على المقعد، ليقطع الصمت بقوله: أخبريني ما هو ذلك العمل الذي عثرتِ عليه هنا؟
أجبت: إنه مشغل لغزل الأنسجة.

- غريب جدا، أول مرة أرى مقاتل يهتم بغزل الأنسجة.
- ليس اهتماما كلي.. ولكن تعلمت هذا الشيء في صغري.
- حسنا.. ومتى تعلمتِ فنون القتال؟
ابتسمت لكونه ذكرني بطفولتي ثم قلت وعيناي هائماتن نحو الأفق: كنت وقتها بعمر الثالثة عشر.. كان شغفي لتعلم الفنون القتالية لا يضاهى، على الرغم من رفض عائلتي لهذا.. فقد كانت ومازالت بداخلي فكرة واحدة لم تتغير وهو حلمي بذلك اليوم الذي أقف فيه على أرض المعركة ومعي سيفي أحارب صفوف الأعداء.
لينظر إلي مطرقا وكأنه قد دخل في حالة شرود عميقة، فقلت: ماذا؟
- لا شيء.. لكن كلامك أثار انتباهي كثيرا.
- كيف؟
رد وهو لايزال يرنو إلي: أنك فتاة ومن المفترض أن يكون أقصى طموحك الزواج أو الاعتناء بنفسك أو أي شيء من هذا القبيل.. ولكن لم أر فيكِ أي من ذاك، بل رأيت ما لم أره في أي فتاة أخرى من قبل.. أنتِ نادرة جدا.
اتسعت حدقة عيني ووجدت قلبي يخفق، بالإضافة إلى بعض الأحاسيس والاضطرابات الغير مفهومة، ثم طرفت بعيد عنه وقلت محاولة تغيير الموضوع: صحيح لقد حدثتك عن قصتي مع فنون القتال والآن جاء دورك كي تحدثني عن قصتك أنت أيضا.
ضحك قليلا ثم قال: إنها قصة طويلة يطول شرحها.
- لا يهم، لن أغادر حتى تخبرني.
- لهذه الدرجة!
- أجل.
ثم نظر بجدية أكثر وقال بنبرة مهزوزة: ولكن لا أعرف كيف سيكون ردة فعلك بعدها.. هل أنتِ متأكدة من أنك تريدين سماع القصة؟
رددت باستعجاب: ماذا بك!، يبدو أنك خائف إن أخبرتني بالقصة وعرفت أسرار مهاراتك القتالية أصبح أفضل منك.
ضحك ساخرا وقال: إن الصورة التي بمخيلتك ليس لها أي صلة بالقصة.
- ومن أين عرفت أن ليس لها صلة.
نظر إلي وقال: لأنه ببساطة واضح على وجهك.
رفعت حاجبي في عجب ليكمل: أنتِ الآن تعتقدين أن ثمة مدرب محترف هو من علمني كل هذا وأني خُلقت في بيئة تهتم بالفنون القتالية والأمور الحربية، أليس كذلك؟
أجبت مستنكرة: أعتقد أي أحد لو كان في مكاني لفكر بمثل هذه الطريقة.
لأراه قد أبعد وجهه عني ونظر ناحية الأفق ثم قال بنبرة يشوبها بعض الحزن: ولكن الحقيقة ليست كما يظن الآخرون.
عندها بدأت أشعر أن هناك خطب ما معه خاصة بعدما تحول وجهه من الضحك والسخرية إلى الكآبة والوجوم، فاعتدلت في جلستي وبت مرتقبة ما سيقوله، ليردف: منذ اثنين وثلاثين عاما في مدينة كيرلا أقصى الجنوب، ثمة ميتم صغير يقع بين الغابات.. لقد عُرف هذا الميتم على مر السنوات الماضية بممارساته للأعمال المخالفة للقانون، حيث أنه لم يكن ميتما حقيقي.. بل سوق تجاري يأتي فيه الآباء

لبيع ابنائهم بمبالغ طائلة والذين في الغالب يكونون ناتجين عن علاقات غير شرعية.. وكان العمل يتم في سرية تامة بعيد عن أعين الحكومة والأمراء، أما بالنسبة لأصحاب الميتم فكانوا عبارة عن عصابة متخفيين في هيئة فعال خير يأخذون الأطفال ويعدونهم ليكبروا ويصبحوا فردا من أفراد هذه العصابة.. وأنا كنت واحدا من هؤلاء الأطفال.
ساد الصمت للحظات ثم عاد يكمل في مرارة: كنا عبيدا عندهم، كانوا يعاملوننا ببالغ القسوة ولا ينعتوننا إلا بأبناء الحرام.. لقد ربوا بداخلنا الرعب والخوف، زرعوا فينا الغلظة والفظاظة مثلما زرعوا بأنفسهم.. أتذكر ذلك المشهد وقت كنت في الخامسة من عمري.. وأنا واقف بطابور الصبية انتظر دوري في السير على الجمر.. مازلت أتذكر نفسي أسير فوقه ولهيبه المشتعل يمزق جلدي.. كنت غارقا في بكائي وكلما حاولت التملص أجد السوط ينهال فوق ظهري..
أيضا كانوا يجبروننا على أكل الطيور هي حية.. يجعلوننا نشاهد مشاهد الاغتصاب والفجور ونحن لانزال أطفالا كي نتعلمها.. وعندما كبرت قليلا وصار عمري عشر سنوات قاموا بضمي إلى فرق تنفيذ العمليات ومن هنا تحولت حياتي إلى جحيم مطلق.. فبيدي هذه ارتكبت جميع الجرائم، أولها كان سرقة ثم اغتصاب ثم قتل.. سلبوا مني طفولتي وحرموني حقي في العيش كأي طفل، لأنشأ عبارة عن جسد بلا روح، لا أعرف معنى الرحمة أو اللين.. وبالمناسبة يعقوب كان واحدا منا ولكن لم نتفق أنا وهو ابدا.. ليشاء الله أن يكتب لي الهداية ويخلصني أخيرا من هذا الكابوس، فعندما كنت بالثامنة عشر ذهبت لتنفيذ إحدى عمليات السرقة، فاقتحمت البيت المراد سرقته ثم دفعت الباب بقدمي لأجد رجلا عجوزا جالسا في وسط الحجرة يقرأ في المصحف، وقتها نظر إلي بلامبالاه مما أشعل النار بداخلي وصحت به أن يذهب لإحضار كل ما لديه من مال وذهب وإلا أنهيت حياته، فعاد يواصل قراءة القرآن وكأني أمامه مجرد هواء، حينذاك كررت تهديدي لكن كان ذلك بلا جدوى.. وفي لحظة ما شعرت برجفة غريبة تسري بجسدي حالما بدأ يتلو القرآن بصوت عذب لم أجد في حلاوته نظير، مما جعلني لاإراديا اقترب منه شيئا فشيئا إلى أن أصبحت أمامه مباشرة.
فجلست تلقائيا أستمع إلى تلاوته العذبة، ومن وقتها وأنا أصبحت إنسانا مختلفا، لقد كان الشفاء على أيدي ذلك الشيخ والذي شعرت في لحظة أنه ملاك أُنزل إلي من السماء في الوقت المناسب.. ومنذ تلك الحادثة وقدمي لم تطئ ذلك الميتم أبدا بل قررت أن أفر إلى الشمال وأبحث عن عمل شريف أعيش منه، فعملت أولا بأحد الاسطبلات لكون لدي معرفة سابقة بمعالجة الخيل ثم عدت اتنقل من مكان لآخر وبالنهاية استقررت ببهادورغاره أعمل مدرب للفنون القتالية كما قلت لكِ.. هذه هي قصتي.
بات ينظر إلي منتظرا مني أي ردة فعل لكني كنت عاجزة وقتها عن الرد وبقيت صامتة وكأن لساني قد شُل عن الحركة، فبعد أن حكى لي هذه القصة أصبحت لا أعلم أأتعطاف معه لكونه عاش طفولة قاسية، أم انهض الآن واتركه لأنه كان مجرما، أم أثق به وأقف بجانبه لأنه عرف خطأه واهتدى إلى طريق الصواب؟، ثم وجدته يقول: أعرف ما تفكرين به.. أنتِ الآن تقررين بأي طريقة ستتعاملين معي بعد ذلك.. وهذا حقك.
نظرت إليه بدهشة إنه خبير جدا بقراءة الأفكار!، ثم قلت له: وماذا تتوقع مني؟
- لا أعلم، من المفترض أن توجهي هذا السؤال إلى نفسك.
نظرت مطرقة ثم سألته: هل يمكن أن أسألك سؤالا.
- سلي.
- هل أنا أول من تحكي له هذه القصة؟

نظر إلي مستعجبا ثم قال: وهل هذا سيفرق معكِ؟
- ربما.. يبدو لي هذا.
- حسنا سأجيبك.. أجل أنتِ أول من يعرف بهذه القصة.
- ولكن.. لما أخبرتني أنا دونا عن غيري؟
نظر إلي عيني وبدأ يقول: ليس لكل الأسئلة جواب.. هناك أشياء لا نستطيع البوح بها.. مثلك بالضبط.
نظرت إليه بعجب وقلت: ماذا تقصد؟
ضحك ضحكته المعتادة قائلا: أتظنين أني لا أعلم ذلك السر الذي تخفينه.
حينها ارتعبت وانتفض جسدي، أيعقل أن يكون علم بحقيقتي؟، ثم قلت بغضب: ماذا تقول يا هذا؟، عن أي سر تتحدث؟!
عاود الضحك وقال: ألازلت مصرة أنه لا يوجد سر؟
ثم أخذ يحملق في عيني بشكل غريب ومخيف بعض الشيء وكأنه يستدرجني لقول كل ما بداخلي، فأبعدت عيني عنه على الفور ونهضت قائلة: أنت حقا غريب الأطوار!
لأذهب في طريقي، بينما بقي هو جالسا، ثم وجدته يهتف من خلفي: إلى اللقاء يا صاحبة السر.

بات السلطان واقفا يتصبب عرقا، يفرك يده بين أصابعه في توتر بالغ منتظرا الطبيب الشرعي إلى أن يخرج ويخبرهم بما قد تم، حينها حاول غياث الدين تهدئته بقوله: خير إن شاء الله مولاي.
لكن السلطان لم يكن ينصت سوى لأصوات عقله المتلاحقة، فظل يأتي ويروح ذهابا وإيابا وكلما طالت المدة ازداد توتره، إلى أن خرج الطبيب مع مساعديه أخيرا بعد انتظار، ليهرع إليه السلطان متلهفا وقلبه كاد ينخلع عن صدره.
- أخبرني ماذا وجدت.
- إن الحروق لم تكن جسيمة بالجزء السفلي من الجثة، لذا استطعنا الكشف عن الاعضاء ووجدنا انها كانت متزوجة، وبهذا تكون الجثة لغير الأميرة يا مولاي.
تنفس السلطان الصعداء ثم قال: اسمعوني جيدا، إن ما حدث الآن هو سر بيننا لا يجب أن يعرف أي أحد بهذا ولا حتى أفراد الأسرة الحاكمة.. إن الأميرة الآن ضائعة وسندبر أمر البحث عنها في الخفاء من دون أن يلحظ أحد داخل أو خارج القصر.
ثم قال بنبرة متوعدة: وإن علمت بافشاء أحدكم لهذا السر كونوا على يقين أن رءوسكم ستُقطع أمام جميع الناس بالساحة العامة.
ازدرد الطبيب ريقه هو ومن معه في ذعر، ثم استأذنوا وغادروا المكان، حينها أمر السلطان بعض الجنود بإعادة الجثة إلى المقبرة، ثم أمر البعض الآخر بتنظيف المكان حتى لا يبقى أي أثر يستدل به أحد على طريقهم، فقال غياث الدين: حمدا لله يا مولاي، لقد أتت التحقيقات بثمارها.
نظر إليه السلطان بابتسامة منكسرة ثم أطرق يفكر، ليضع غياث الدين يده على كتفه في محبة ويقول: سنجدها يا مولاي لا تقلق.
أطبق السلطان يده على يد غياث الدين قائلا: إن شاء الله غياث الدين.. إن شاء الله.
راضية:

اليوم عدت إلى العمل، فمع طلوع الشمس كنت منتظرة أمام باب المشغل إلى أن تأتي السيدة وتفتحه مما أثار تعجبها، فقد عزمت على أن أضاعف عملي كي تمنحني قدرا وفيرا من المال أستطيع أن أسدد به ذلك الدين، بجانب تكاليف الارتحال، وبهذا كنت أولى الحاضرات.
وبدأت أعمل بجد ونشاط ملحوظ لدرجة جعلت الجميع ينتبه إلي، فكانت يداي تعملان كمكينة بلا توقف إلى أن انتهيت من خمسين قطعة خلال نصف النهار فقط وهذا ما أثار دهشتهم، فبقيت اعمل واعمل إلى أن بلغت درجة التعب والإعياء، حينها توقفت يداي عن العمل تلقائيا وشعرت أني سأفقد وعيي إن لم أنل قسطا من الراحة، مما لاحظت ذلك السيدة وسريعا رأيتها مقبلة إلي.
- ماذا بك راجيني؟
قلت محاولة إخفاء التعب: لا شيء.. سأكمل العمل.
- كلا أنتِ عملت كثيرا اليوم ويجب أن ترتاحي.
أخذت بيدي ومشينا تجاه إحدى الأرائك.
- اجلسي هنا وارتاحي.. أنا لا اعلم لما لا تعملين بشكل طبيعي كباقي الفتيات، لما هذا الشغل المضاعف؟!
شعرت ببعض الحرج ولم أستطع الرد ثم وجدتها دنت مني قليلا وقالت بصوت خفيض: هل تحتاجين إلي مزيد من المال؟، إن كنتِ كذلك فلا..
لأقاطعها بقولي: كلا سيدتي، إن كل ما في الأمر أن هذه طريقتي في العمل.. أنا دائما ما أحب أن اجتهد في عملي.
نظرت إلي متفهمة ثم رحلت وبقيت أنا ممدة على الأريكة بعد أن أسندت رأسي إلى الخلف، أطالع السماء من وراء النافذة بجانبي، وكعادة أي انسان ما إن ينظر إلى وجه السماء حتى تبدأ الأفكار تراوده..
لقد رأيت الكثير والكثير في هذه الرحلة، بالرغم من المصاعب التي واجهتها والعقبات إلا إني تعلمت أشياء كثيرة، إن الحياة حقا خارج القصر مختلفة بالمعنى الحرفي، كنت اسمع عن مرارة العيش والذل والهوان ولكن في هذه الرحلة جربت أشكالهم بكل معانيها، الآن فقط عرفت كيف يعيش الناس، ومع هذا فإن حياتهم بسيطة مليئة بالحب والتراحم، فقراء لكنهم سعداء.. إن حقا السعادة لا تقدر بثمن، فيمكن أن تكون حزينا بالرغم من كثرة مالك ولكن.. يمكن أن تكون سعيدا بقلة مالك وكثرة أحبابك، أجل.. السعادة الحقيقية تكمن في وجود أشخاص تحبهم ويحبونك، السعادة تكمن في وجود نفوس طيبة خالية من الخبث والحقد، وهذا ما
كنت أحتاج إليه حقا..
أما ياقوت فهو حالة متفردة، إنه رحلة بأكملها.. شخصية مختلطة بمزيج غريب لا أستطيع فهمه، على الرغم من أني أجيد تفرس الناس فقط من وجوههم إلا إن هذا الأخير لم يستطع حدثي كشفه.. فلم يسبق لي أن رأيت أحدا بهذه الصفات، أحيانا أجده واضح وصريح وأحيانا أخرى أشعر وكأنه كهف مظلم مليء بالألغاز والغموض، ومع ذلك حكى لي قصته كلها وهذا ما يجعلني متعجبة لأمره، والأعجب أنه لم يخبر أحدا بها سواي، كيف هذا؟!. أهو واثق بي إلى هذه الدرجة، أم كل ما حكاه لي مجرد تخاريف من وحي خياله؟. لا أعلم حقا.
ولكنه بالتأكيد لن يمر عليّ مرور الكرام، لقد أثر في كثيرا، غير أنه علمني أشياء بخصوص القتال، فقد غير في طريقة تفكيري، جعلني أنظر إلى الحياة من منظور مختلف.

وفي لحظة ما بدأت أشعر تجاهه شعور لا افهمه، شعور غريب أول مرة أشعر به، فلم يسبق لي أن تأثرت بأحد لهذه الدرجة.. عندما يبتعد عني أشعر وكأني هشة منكسرة ولكن في وجوده أشعر بأمان ودفء كبير، فكم من مرة انقذ حياتي وبدونه لكنت أصبحت في عداد الموتى.
أيعقل أن أكون..
وحينها تذكرت ذلك الموقف مع عائشة:
- إن الزواج علاقة نقية مليئة بالحب والمودة ليس السيطرة والتقييد كما تقولين.
- أنا لا أفهم في هذه الأشياء.
- ولن تفهمي أبدا إلا عندما تقعين في الحب.
- أقع في الحب.
- أجل.. ألا يمكنك الوقوع في الحب يوما؟
- لا.. لا أعتقد هذا.
- ولما؟، أي شخص يتمنى أن يقع في حب أميرة جميلة مثلك.
- حسنا.. لكن الحب ليس كل شيء، هناك الكثير من الأشياء التي أهم من الحب.
- لا أعلم ماذا أقول لك يا سمو الأميرة.
أحقا هذا هو ما يحدث معي الآن؟! لا لا لا.
ثم أخذت أضرب على وجهي كي أفيق من هذا الوهم، وعندها عزمت على أن انهض وأكمل عملي.
وبعد مرور خمسة أيام أخر، كان قد أصبح لي في هذا المخيم ما يقرب من أسبوعين، وعشرون يوما بعيد عن القصر.
قررت بالنهاية أن أرحل بعد أن جمعت المال الكافي للسفر والأهم دين ياقوت.
جهزت أغراضي والمال المدخر ثم قمت بوضع الشال الأسود فوق رأسي.
خرجت من المخيم بعد أن ودعت من فيه وذهبت قاصدة مخيم الذكور، فاتجهت إلى أحد الرجال وسألته عن ياقوت فبعث من يناديه وبعد فترة قدم إلي، لكن عندما وجدت عيون الناس بالمخيم تراقبنا طلبت منه أن نذهب إلى مكان آخر بالقرب من موقف العربات فوافق ومن ثم ذهبنا.
حينما وصلنا كنا أمام إحدى العربات التي سأستقلها بعد قليل، فبدا أنه مستغرب لمظهري ليسألني: ماذا يجري؟، ولما تبدين هكذا.
ابتلعت ريقي وقلت مجبرة: قررت أن أعود اليوم إلى دلهي.
نظر متفاجئا ثم قال: ولكن لما لم تنتظري لنذهب معا، لقد عرفت طريقا آخر يقودنا إلى بهادورغاره بدلا من الذهاب إلى دلهي.
- لا ياقوت أنا لن أذهب إلى بهادورغاره.
ومن هنا وقعت على وجهه الصدمة فلم يستطع الرد بعدها وبات ينظر إلي نظرات اتهام يشوبها الحزن فقلت له باسمة محاولة تبديد الاختناق بصدري: اذهب أنت إلى عملك وحياتك.. بالتأكيد طلابك ببهادورغاره ينتظرونك.
- لكن.. اعتقدت سنكمل طريقنا معا كما بدأناه.
ليزداد غرز الشوكة في صدري ويزداد الاختناق، حاولت تمالك نفسي ثم قلت: ياقوت افهمني.. أنا بحاجة للذهاب إلى دلهي.
- سآتي معكِ!

- ماذا تقول؟!. أرجوك يا ياقوت لن تستطيع المجيء معي يجب أن أكمل بمفردي.. أرجوك!
وجدته قد انكمش قليلا ثم قال: حسنا.. لن أضغط عليكِ، أتمنى لك رحلة موفقة.
ابتسمت إليه وعيناي تكاد تفيضان بالدموع ثم تذكرت سريعا الدين، فقلت له بعد أن أظهرت صرة النقود: صحيح.. أعذرني في تأخري لرد المقابل.
مددت يدي إليه كي يأخذ الصرة ولكنه قد أبعدها وقال: ابقيها معكِ ربما تحتاجينها في طريقك.
- كيف هذا؟، إنه حقك!
- وأنا لن آخذها.. ابقيها معك.
عجز لساني عن الرد حينها وبت محملقة به في دهشة ثم وجدته يضع يده في جيبه ليخرج قطعة ذهبية تبدو ثمينة، فقال مناولي إياها: خذي.
- ما هذا؟
- قطعة ذهبية كنت قد ربحتها في إحدى المسابقات.
- ولكن.. لما تعطيني إياها؟
- لأنك يجب أن تعديني بشيء هام.
نظرت مرتقبة ليكمل: عديني أنك ستحتفظين بها وستبقينها معك أينما ذهبتِ ولن تفرطي بها أبدا.
ثم أمسك بيدي وقام بوضع القطعة الذهبية بين كفي وأطبق عليها أصابعي، بقيت أرمقه قليلا ثم قلت بعد ذلك: أعدك.
لكن قبل أن أذهب استوقفني شيء ما بات في ذهني لأوقات طويلة، فقلت له: ولكن قبل أن أرحل لدي سؤال واحد فقط.. لما تفعل معي كل هذا من دون مقابل؟
رأيته قد سكت قليلا وأومأ برأسه ثم رفعها وقال: لأني أحبك راجيني.
فغرت عيناي في صدمة وبدأت تعلو ضربات قلبي.. لا أصدق أن كل ما قالته عائشة يتجسد الآن أمام عيني بالصوت والصورة! ولكن يالأسفي يا ياقوت لقد اخترت الشخص الخطأ تماما.
فمكثنا نطيل النظر ولم ينطق أي منا بكلمة.. مكثت أنظر إلي عينيه الثاقبة ومشاعري كلها قد اختلطت في آن واحد، من ناحية يجب علي الذهاب والعودة إلى بيتي ومن ناحية أخرى لا أريد أن أتركه أريد أن أكمل معه الطريق، لقد أصبح يمثل لي الكثير مثلما أصبحت أمثل له.. ثم وجدت بعض الدموع قد تسللت من عيني خلسة ولم أنجح هذه المرة في كتمها.
وبقينا على هذه الحال إلى أن قطعنا صياح السائق حيث أنه النداء الأخير للركاب وبعدها تنغلق العربة، لأفيق من شرودي وانتبه للنداء.. فعاودت النظر إليه وقلت له تلك الجملة التي تنتهي بها أي حكاية.
- أراك على خير ياقوت.. وداعا.
استدرت ومن ثم توجهت إلى العربة، فصعدت إليها وجلست بجانب بعض النساء وكان هو لايزال واقفا أمام الباب. لتبدأ العربة في التحرك، فينظر إليّ النظرة الأخيرة رافعا يده مودعا بابتسامة منكسرة.
بادلته السلام بنفس الابتسامة والدموع لا تزال تتسلل.
فتسرع العربة من تحركها ويختفي عن عيني ياقوت...

بالقصر:

وبعدما جرت الأمور وانكشفت الحقيقة أصبح السلطان يلتقي برجاله في مكان سري لا يعلمه أحد، فلم يكن معه من الوزراء سوى غياث الدين
، وباقي الرجال مجموعة من الجنود المخصصين للبحث عن الأميرة.

كان يعقد ذلك الاجتماع السري في الليل متخفي في زي جندي حتى لا يشك به أحد، في حين أن عائلته وحراسه يحسبونه في ذلك الوقت نائما في غرفته.
وبعد أن فرغ الاجتماع وخرج الجنود في حذر دار الحوار بين السلطان وغياث الدين.
- هل أخبرت الناس بلقاء الجمعة يا غياث الدين؟
- أجل مولاي.. لقد قمنا بالترتيبات اللازمة وجهزنا الساحة العامة.
تنهد السلطان وقال: أعلم أني قصّرت مع شعبي خلال الأيام الماضية.. لا أستطيع أن أطيل في الغياب أكثر من هذا.
- لا عليك يا مولاي الشعب بالتأكيد يعلم الظروف الصعبة التي يمر بها سكان القصر.
صمت السلطان لهنيهة ثم قال في مرارة: وبصفتي السلطان يجب أن أظهر أمامهم بكامل قواي وصمودي.. فالسلطان في نظر العامة شخص جامد بلا مشاعر.. بما أن لديه كثير من الابناء فلن يفرق معه موت أحد منهم، لقد سمعت هذا بكلتي أذني وقتما كنت وزيرا لدا السلطان قطب الدين.. لا يعلمون أن السلطان هو أكثر شخص يتأثر في هذا العالم، لو حدث لأحد مكروه داخل البلاد فسيكون الذنب على عاتقه هو ولن يسلم من اتهامات الناس.
بدا غياث الدين متأثرا وبعد فترة من الصمت عاد السلطان يكمل: لن يفيد هذا الكلام بشيء.. فعملي كسلطان يحتم علي ذلك شئت أم أبيت.. هيا نذهب من هنا لا نريد أن نستثير الشكوك.
في جلسة عائلية كان هناك الأميرة شادية والأمير ناصر ومعهما السلطانة، بعدما تحسنت حالتها إلى نحو جيد، يحتسون الشراب، والوصيفات تقفن حولهن.
ظل الصمت مخيما لوقت ملحوظ ينتظرون أن تبدأ السلطانة بالكلام ولكنها كعادتها ظلت تحتسي شرابها في هدوء تام غير مكترثة لأحد.
نظرت شادية إلى عائشة بطرف عينها تسألها إن كان حان الوقت لفتح الموضوع المراد فأومأت عائشة إيجابا، ثم مرت ثوان لتعتدل شادية في جلستها وتقول بنبرة واضحة: هل عرفت يا ناصر أن السلطان سيقيم لقاء الجمعة بعد الغد؟
توقفت السلطانة عن الشرب فيما بدا أنها انتبهت لما قد قيل، ثم رد الأمير: أجل وسمعت أن الساحة ستُملأ عن آخرها وسيحضر عدد ضخم من الناس.
شادية: بالتأكيد سيكون مشهد عظيم.. لقد سمح السلطان لجميع الفئات بالحضور خاصة أنه أمر بتوزيع المال والصدقات على الفقراء واليتامى.
عادت السلطانة إلى الانشغال بشرابها دون المشاركة في الحوار، ثم جاءت الفرصة لتقول شادية: جدتي نحن سنذهب غدا لحضور اللقاء مع أبي.. نتمنى لو أن تشاركينا الحضور.
توقفت السلطانة عن الشرب تلقائيا ونظرت إليها نظرات حادة وكأنها ارتكبت خطأ فادح ثم قالت: أختك لم يمر على وفاتها أسبوعان وتريدينني أن أخرج إلى العامة وأجلس بينهم!
ازدردت شادية لعابها في ذعر هي وباقي الواقفين فأكملت السلطانة: ثم إن القصر من المفترض أنه في حالة حداد كيف سيقيم أبوكِ هذا المهرجان ونحن لانزال نرتدي الأسود؟!
ردت شادية محاولة تهدئة هذا الهياج: ولكن يا جدتي هذا ليس مهرجانا، لقد أمر السلطان بتوزيع الصدقات فقط من أجل روح أختي راضية.. غير أنه لا يستطيع أن يتأخر عن مطالب شعبه أكثر من هذا إنها مسؤولية كبيرة.

أجالت السلطانة بوجهها بعيدا وعلامات السخط والغضب تتملكنها ثم حاولت شادية معها مرة أخرى بقولها: أرجوكِ يا جدتي تعالي معنا حضورك سيزيد المكان بركة.
باتت السلطانة متخذة جانبا وشادية تحاول اقناعها بشتى الطرق إلى أن وافقت بالنهاية ليسعدوا جميعا لكنها قالت: ولكن لن أمكث المدة كلها سأحضر أول اللقاء فقط.
تقبلوا جميعا رغبتها وسعدت شادية لنجاح خطتها هي تريد أن تروح عن جدتها وترى أن حضورها لهذا اللقاء سيحسن من حالتها النفسية ويساعدها في الخروج من العزلة والانطواء.

راضية

وها هي تمضي بي العربة في طريقها المحتوم بين مسارات الغابات الضيقة، تتخبط بأوراق الشجر، سالكة طريقا يشبه ذلك الطريق الذي سرت به أول مرة.
والآن لقد انتهت هذه الرحلة، انتهت بكل شيء فيها حلوها ومرها، زرعت بداخلي كيانا آخر بشخصية مختلفة.. لقد أصبحت راجيني الفتاة الفقيرة المكافحة وفي نفس الوقت راضية الأميرة الغنية ابنة السلطان.. وها أنا عدت لأكون راضية من جديد ولكن بطابع مختلف.. طابع لا يعلمه أحد.
اهٍ يال قلبي المحترق.. صورته لا تفارق بالي أبدا.. تلك الكسرة على وجهه والتي شعرت بها تمزقني قطعا قطعا.. ينظر إلي نظرات كلها لوم وعتاب وكأنه يريد أن يقولها لا ترحلي..
كيف أقسم لك يا ياقوت أني لا أريد الرحيل.. كيف أقسم لك أني أيضا أحبك.. ولكن تأخر الوقت كثيرا وللأسف لقد اختار كل منا الشخص الخطأ ليحبه..
اعتقدت أني خلال عودتي سأكون في أقصى درجات السعادة ولن يكون للحزن مكان في صدري.. لكن لم أضع في الحسبان ما قد تم.. يبدو أن الهم سيظل يلاحقني شئت أم أبيت.
سأحاول النسيان رغم أنها كلمة مستحيلة ولكن يجب أن أحاول فلن يفيد الحزن بشيء وهذه الرحلة قد انتهت وقضي الأمر.. يجب أن أعود راضية القوية ذات القلب الشجاع المتأجج.. لن أسمح للحزن أبدا أن يثبط من عزيمتي فأنا مقبلة على حرب باردة والتي ربما تتحول إلى حرب دامية بالنار والسكين..

(١٠)

بزغ نهار الجمعة وتهللت نسائمه تعبق بذرات الهواء، كان قرص الشمس الذهبي يتوسط السماء، تتعامد أشعته البراقة على أروقة القصر المختلفة، فحقا كان لليوم طابع مختلف لم تشهده البلاد منذ وقت طويل.
لنجد الساحة العامة قد امتلأت عن آخرها ذاخرة بعدد هائل من الثروة البشرية، الكل واقف في صفوف منتظمة يستعدون لأداء صلاة الجمعة وعلى رأسهم السلطان وحاشيته، فبعد أن انتهى المؤذن شرع الرجال يقيمون الصلاة ثم بعد ذلك جلسوا يستمعون إلى الخطبة وأخيرا جاء الموعد المنتظر، كي يرتدي السلطان تاجه ويرتقي إلى المنبر وكان على أحد جانبيه يجلس السلطانة وشادية والأمير والجانب الآخر تجلس تركان.
وسرعان ما بدأت تعلو صيحات التبجيل من كل حدب وصوب محيين سلطانهم الذي فاض الشوق لرؤيته، فأخذت تتهافت الأصوات أكثر وأكثر والسلطان ماثل أمامهم مجبر على الابتسام ولو بالقليل، إلى أن رفع قبضة يده إشارة لوقف الهتاف.
عم السكون على القاعة مرة واحدة ليبدأ السلطان بعدها بتوجيه خطبته.

- بسم الله الرحمن الرحيم.. اليوم وبعد غياب طويل.. عدت من جديد لأقف أمامكم، أعلم أني انقطعت عنكم وعن أحوالكم، تأخرت عن حاجاتكم.. ولكن الله وحده من يعلم بتلك الظروف التي مر بها القصر.. لقد منحني القوة كي أقف أمامكم الآن في ثبات وأحدثكم.. أنا هنا اليوم فقط من أجلكم.. أنتم أهلي قبل أن تكونوا شعبي والجميع يعرف هذا.. لذا فقد قررت أن يكون هذا الجمعة مختلف وأقطع حبل الغياب وأظهر إليكم من جديد.. لقد سمحت اليوم بالتحدث الفردي، فسيكون لأي شخص من أي طائفة الحق في الحديث بخلاف المتحدث الرسمي، وأنا كلي آذان صاغية.

ثم صاح غياث الدين: من يريد منكم أن يتكلم فليتفضل برفع يده.

لم يلبِ أحد الدعوة نظرا لكونه أمر مستجد عليهم حيث لم يسبق لأحد العامة الكلام مع السلطان سوى رؤساء الطوائف.. فيبقى الصمت مخيما لدقائق، عندها عاد غياث الدين يهتف: إن الوقت يمر بسرعة من كان منكم يريد أن يتكلم فليرفع يده هذا آخر نداء.

ثم همس إلى السلطان: مولاي، أرى أن نلغي فكرة التحدث الفردي فالجميع لم يبدر منهم أي ردات فعل.. من الأفضل أن نتحدث إلى الرؤساء مباشرة لكيلا نضيع الوقت.

بدا السلطان مقتنعا بما قاله غياث الدين وعزم على أن يتحدث إلى الرؤساء مباشرة ولكن قبل أن يفعل فوجيء بيد ترتفع إلى الأعلى قادمة من وسط الصفوف فانتبه غياث الدين وتحولت جميع الأبصار إلى تلك اليد.

ثم بدأ صاحب اليد يتسلل من بين الصفوف والجميع يرمقونه بدهشة إلى أن خرج عنها تماما متخطيا الرقعة المسموح بها للوقوف مما جعل غياث الدين يغضب، فبقي واقفا في تلك الرقعة الفارغة بمفرده أمام السلطان، مرتديا شالا كثيفا يغطي رأسه إلى أخمص قدميه فلا تظهر له ملامح، مما صاح فيه غياث الدين: يا هذا كيف تتخطى الرقعة المحددة لك؟! ارجع إلى حيث كنت وانزع عن وجهك هذا اللثام قبل أن تتحدث إلى السلطان.

بقي السلطان يرتقب باهتمام شديد والجميع لا يزالون يحملقون به، ثم مرت دقائق وهو مازال واقفا كالصنم كي يهم غياث الدين مندفعا إليه ولكن أوقفه السلطان، فقد شعر بشيء غير طبيعي ناحية ذلك الشخص مما دفعه لسؤاله: من أنت؟

ليبدأ بعدها ذلك الصنم بتحريك يده ممسكا بالشال الكثيف فيما بدا أنه يزيحه عن وجهه والكل يتابع في أشد حالات تحمسهم بالأخص السلطان.

انسدل الشال إلى الأسفل مفارقا الجسد وظهر ذلك الوجه الذي ارتعب منه الجميع فور رؤيته، فتقول بصوتها الجهوري المميز: انا راضية الدين ابنتك يا مولاي.

- مستحيييل!

تناثرت قطع الزجاج في كل حدب وصوب بعد أن أحدث تهشم المرآة صوتا مريعا يشي بحرارة واشتعال مهشمِها، فراحت تفتح أحد الخزائن لتتناول قنينة الدماء المعهودة وتقوم بتحطيمها هي الأخرى، ثم ما لبثت حتى ارتمت أرضا وبدأت تنتحب مرددة كلمة.. كذب!

فهى لم تصدق ما رآه ناظرها، كيف وقد شهدت يوم حضور جثتها!، كيف وكانت دمائها اللعينة بين قبضتيها!

ولكن حينها عاد إليها ذلك الإحساس الغريب، ذلك الإحساس الذي لم يفارقها منذ لحظة معرفتها بموتها. لقد كان يحدّثها قلبها دائما بأنها لم تمت، كانت تشعر بأن الصراع بينها لم ينتهي بعد..

عندئذ جاءها كل من ابنها ووصيفتها مهرولين، فبالتأكيد بعد هذا المشهد لن تكون حالة السلطانة تركان بخير أبدا، وهذا ما حدث.
- مولاتي!، لقد جرحت قدماك ويدك!
لم تعر الاهتمام لأي منهما وباتت تركل الأرض وسط حبات الزجاج حادة الحواف، فأسرعت فاطمة بالإسعافات الأولية، لتبدأ تركان بكلمات تملؤها الحسرة: أرأيتم لقد كان شكي في محله.. كنت أعلم أنها لم تمت.. وها قد جاء اليوم الذي يؤكد فيه صدق شعوري هذا.
انفجر ركن الدين غضبا جازا على أسنانه قائلا: أنا لا أعلم إلى متى ستظل تلك المرجومة تمثل عقبة في طريقنا!
ثم أتت فاطمة بالأغراض اللازمة وبدأت تضمد جرحها قائلة: أرجوكِ يا مولاتي اهدأي الآن.. كل شيء وله حل، لقد نزفتِ الكثير من الدماء!
رمقتها تركان بسخرية يشوبها الألم ثم قالت: حل.. وهل هي تركت لنا أي حلول؟!، لقد انتهت جميع الحلول مع هذه المخلوقة.
ولما شعر ركن الدين بتواني أمه واستسلامها ثار في داخله الفزع مما صاح: ما هذا الكلام يا أمي!، كيف ستخضعين إليها بهذه السهولة.. لا يجب أن نتراجع أبدا.. راضية إذا تملكت صلاحيات كبيرة في السلطنة ستبيدنا يا أمي ستبيدنا!
لاذت تركان بالصمت، لم تعد تعرف كيف ترد أو تتكلم، فشعورها بقرب إبادتها حقا بدأ يتسلل إليها، وبلا شك راضية تعلم من حاول قتلها وإن كان غير ذلك فستعلم عاجلا غير آجلا.. لذا آثرت أن تهدأ أولا ولا تضيع من طاقتها وجهدها في الرد على ابنها التافه الذي تعلم بأنه إذا حدث لها أي مكروه سيغرق هو في الهوة ولن يجد للنجاة سبيل.. ولكن ليتها تلحق بالنجاة هي الأخرى.
راضية
لم أشأ وقت وصولي إلى دلهي أن أدخل إلى القصر مباشرة بهويتي الحقيقية.
فضلت أن أدخل بين الخادمات خلسة، دون أن يراني أحد خاصة الحراس.
وبالفعل نجحت في هذا، ثم عزمت على أن تكون وجهتي الأولى إلى عائشة فمن عندها بدأت الراحلة وعندها أيضا ستنتهي.
مكثت أبحث عنها بين جموع الخادمات متحاشية التواجد في أي مكان به حرس أو نفر من العائلة.
وبالنهاية عثرت عليها أخيرا، فما إن رأتني حتى ركضت إليّ تعانقني عناقا حارا وأخذت تبكي دموع الفرح، ثم بدأنا الحديث، خلالها لا أذكر سوى أن وجهي انقلب من الابتسام إلى الصدمة حينما قالت تلك الجملة: **هدى توفاها الله.**
وبقيت تقص علي كل ما حدث دون اقتضاب وبشكل متواصل، وأنا أمامها جامدة الملامح شُلت تعابير وجهي.
وما إن فرغت من حديثها، حتى بدأت تعابير وجهي تستعيد حركتها، فوجدتني انفجر باكية، أنتحب على تلك المسكينة التي قُتلت بدون ذنب، كانت أم لطفل أصبح الآن بلا أم.
أفدتني بروحها، ماتت هي كي أعيش أنا.
أقسم لك يا تركان أني لن ادعك حية على وجه الأرض، سأنال منك ومن سفاحينك!

وبعدها أخبرتني عائشة بأن الجميع يجب أن يعلم بعودتي وأني على قيد الحياة، فستكون هذه البداية لكشف حقيقة هؤلاء القتلة، فاقترحت عليّ أن أكشف عن نفسي أمام السلطان وجميع الناس يوم لقاء الجمعة بالساحة العامة.
ذاع خبر نجاتي من الموت وأن التي ماتت صديقتي رحمة الله عليها، في جميع أنحاء المدينة، كما أن السلطان أوكل بتعويض مادي إلى عائلة الفقيدة ورعاية خاصة لطفلها.
وحينما حل الليل رتب السلطان لجلسة عائلية حانية، اجتمعنا على إثرها ملتمين في قاعتنا المعهودة التي حملت الكثير من الذكريات الجميلة، وعادت الليلة لتحيا هذه الذكريات من جديد.
فبعد أن اتخذنا مقاعدنا، وجّه أبي السلطان إليّ حديثه بعطف: أرجو أن تكون ابنتي العزيزة قد أخذت كل راحتها قبل المجيء إلى هنا.
أجبت بود: مجرد رؤيتكم راحة لي يا أبي.
ليعلق ناصر بعفوية: أختي احكي لنا أين كنتِ؟، ولما ابتعدتِ عنا من دون اخبارنا؟ هل كنتِ غاضبة منا؟
تبعته جدتي ببعض الزجر: ناصر!، ما كل هذه الأسئلة، أختك لاتزال متعبة.
ضحكت أنا وقلت: حسنا حسنا سأحكي لكم كل شيء لا تقلقوا.
ولكن كدت أبدأ حديثي لولا انفتح باب القاعة، لأرى تركان داخلة إلينا وبسمة طويلة بين شدقيها، فبدأت تتقدم إلى داخل القاعة في مشية متعالية، وكأن الهواء الرطب الدافيء اندثر وساد الاختناق فور مجيئها، فتستأذن بالجلوس ويسمح لها السلطان.
وحينما جلست وجهت بصرها إليّ قائلة: جئت كي أبارك عودة الأميرة راضية.. حمدا لله على سلامتك أميرة راضية.
اكتفيت بهز رأسي أطالعها متوعدة في داخلي، ثم أطلقت تنهيدة قلت بعدها: سأحكي لكم الآن كل ما حدث.
وجدتهم ينظرون إلي بترقب خاصة تركان، لأكمل: كما يعلم بعضكم أني في ذلك اليوم خرجت إلى السوق لملاقاة رفيقتي رحمها الله.. وفي أثناء نزهتنا طلبت مني أن انتظرها في مكان ما ريثما تقضي بعض حاجاتها.. عندها كنت واقفة انتظر، إلى أن لمحت من بعيد بعض الرجال الملثمين يراقبونني في صمت...
بصراحة لم أعر الاهتمام الكامل وقتها ولكن بقيت على حذر، ثم لم تلبث دقائق حتى رأيتهم يتجهون حيث أقف.. فابتعدت بضع خطوات وكنت كلما ابتعدت يقتربون أكثر، لألحظ الخناجر اللاتي كانوا يخفونها تحت شيلانهم.. وبسرعة بدأت أركض هربا وهم من ورائي يركضون، فلم يكن هناك مفر سوى الهرب والنفاد بجلدي؛ حيث كنت مجردة السلاح ليس معي أي وسيلة للدفاع عن نفسي.
تابعت كلامي بعد أن تسلل إليّ شعور بعدم اقتناع السلطان بما أقصه عليهم، في حين أن تركان كان بادٍ عليها الغيظ ربما كانت تتوعد في سرها لسفاحينها الفشلة.
- وبالنهاية استطعت التواري عنهم والاختباء في إحدى العربات المسافرة والتي لم أكن أعلم إلى أين تقودني.
بدت المفاجأة واضحة على الجميع، ثم علقت شادية: ولكن من هؤلاء الذين حاولوا قتل راضية؟
نظروا مطرقين يفكرون بالأمر، فرددت أنا ناظرة إلى عيني تركان تحديدا: قريبا جدا يا اختي سنعرف.. فلا شيء يخفى في هذه السلطنة.. ولينتظر القاتل عقابه الذي يستحقه.

- وكيف كانت ردة فعل تركان عندما قلتِ ذلك؟
- لم تفعل شيئا ولكن بدا عليها الوجل.. بالتأكيد بدأت تفكر في خطة أخرى للخلاص مني.. لذا لا يجب أن نتأخر في إظهار تهمتها.
ثم أطرقت قليلا في سهوم، لتقطعها عائشة: بماذا تفكرين سمو الأميرة؟
- بصراحة يا عائشة.. أرى أن شهادتك بما رأيتِ لن تكفي لتكون خير دليل ضد هذه المرأة.. فكونك وصيفتي الخاصة يضعف كثيرا من موقفنا لاسيما أنه لا توجد أي أدلة واضحة ضدها.
ابتسمت عائشة في مكر وقالت: ومن قال أنه لا توجد أدلة.
رفعت راضية حاجبها في تساؤل، ثم أكملت عائشة هي تتناول شالا ملتفا: بالتأكيد اتخذت احتياطاتي.
فكت عقدة الشال الملتف لينفرد ويظهر بداخله إسوار أخضر رفيع بالإضافة إلى بعض أربطة الأحذية الرجولية المهترئة.
حينها جحظت عينا الأميرة في دهشة هي تعلم بأن وصيفتها ذكية ولكنها لم تكن تعلم أنها ذكية أكثر من اللازم، مما أضفى لعائشة شعورا منعش في نفسها، ولكن زالت علامات الدهشة بعض الشيء لتقول الأميرة في قلق: لكن أستفي هذه الأشياء بالأدلة؟
- سمو الأميرة عندما عدت إلى ذلك القبو لأبحث عن أي دليل، وجدت بداية هذه الأربطة البالية مما أشعرني بعدم الثقة من كفاية الأدلة.. ولكن حينما وجدت هذا الإسوار تهللت أساريري.. إن هذا الإسوار بمفرده يكفي كي يكون جميع الأدلة.
رمقتها راضية بعجب سائلة: ولما بالتحديد هذه؟
ردت عائشة في كياسة: لأن ببساطة تركان هي الوحيدة بالقصر من ترتدي هذا الشكل من الأساور.. هذا لأن منقوش عليها اسمها باللغة الفارسية، ولو ركزتِ في يدها فستجدينها دائما ترتدي كميات كبيرة منها في كلتي يديها، لذا يصعب على أحد أن يمتلك مثل هذه الأساور إلا إذا أوقعها صاحبها بنفسه دون قصده.
انفرجت ابتسامة راضية وقالت في ثناء: حقا عائشة أنت خير معين لي.. لا أعلم بدونك ماذا كان سيحدث أو ربما لما كنت أمامك الآن.
- حماكِ الله من أي شر سمو الأميرة.. إن الله قد اختارني لأقف بجانبك لأنه يعلم صدق نيتكِ وروحك الطيبة.. فالطيبون دائما تلازمهم الرعاية الإلهية أينما كانوا.
نظرت إليها راضية في تأثر بالغ ثم قالت مستأنفة موضوعهما الشائك: حسنا لنرى ماذا سنفعل..

راضية

غدا سيقيم أبي حفلا بمناسبة عودتي، ولكنه هذه المرة حفل صغير بداخل القصر، لا يُسمح بالدخول سوى للأقارب فقط؛ حتى لا يكون هناك غرباء مما سيزيد من نسبة الخطر.
لكن يا أبي الخطر يعيش معنا في نفس القصر وأنت لا تدري.. أو ربما تدري ولكنك لاتزال تبحث عن دلائل ترشدك.. لا تقلق فأنا سأريحك من كل ذاك.. إن معي خير دليل والذي أثق بأنه سيؤدي المهمة على أكمل وجه إن شاء الله.
أحب سكون الليل كثيرا.. فبعد هذا اليوم العصيب من تحضيرات وخطط يأتي الليل ليصفّي ذهني من جديد.. فعدت لطقوسي المعتادة، والتي لم أكن لأتخيل أن أعود إليها مرة أخرى.

حينما يحل الليل أجلس بجانب النافذة الكبيرة أطالع القمر والنجوم في تأمل وهدوء.. لكن، ثمة شيء جديد قد انضم لجلستي هذه.. تلك القطعة الذهبية التي تنوب عن شخص قد ظهر مع رياح الأيام ثم اختفى..
ياقوت.. أين تكون الآن؟. هل لازلت على سجيتك السليمة أم يا ترى روادتك أفكار من الماضي؟.
كلا.. قلبي يحدثني بأنك لاتزال كما أنت، ياقوت الذي أحببته وتعلمت منه أشياءا جمة.
أتعلم، مازلت أحافظ على عهدي لك، فقد باتت القطعة التي أهديتني إياها كجوهرة ثمينة بالنسبة لي، أضعها في مكان آمن بعيد عن أعين الناس وكأنها قطعة من قلبك..
أنا لا أعلم كيف ومتى أقول هذا الكلام الذي لم أعتده يوما، ولكنه حدث بالفعل على يديك أنت يا ياقوت..
هل لاأزال في ذاكرتك؟، هل تشعر بي كما أشعر بك.. لا أعلم ولكن الأكيد أن قلبي لا يزال ينبض باسمك.. أعرف أن ما أقوله مستحيل وإن علم أحدهم بمشاعري فستكون العاقبة كبيرة.. لذلك أنا أمقت تلك العادات.. أمقت كل ما يحول ويمنع مشاعر صادقة نابعة من قلب نابض بحق.
ولكن ماذا بيدي أن أفعل.. لم أكن أعلم أن ذلك الحب بقدر حلاوته فهو قاسٍ في أحيان كثيرة، لقد رأيت فيك كل الحنان والدفء على الرغم من مظهرك الخشن وملامحك الجادة.. ليتني أراك مرة أخرى..
هل سيجمعنا القدر ذات يوم؟، ليتني أعلم..

كما تجلس الأفاعي في جحورها كان تركان وركن الدين جالسين في الغرفة يساورهما الشك والقلق، خاصة تركان كانت لا تعرف كيف تتصرف، فقد أحست بأن الخطر صار وشيكا وأن كلمات راضية ما هي إلا انذار باندلاع حرب طاغية ستبيد كل من في طريقها، لذا فقد لجأت إلى حل أخير عله يكون مسعفها في آخر لحظة.
وفجأة طُرق الباب بشدة كبيرة مما قد أفاق تركان من شرودها، فصاحت: ادخل!
لتدخل فاطمة مهرولة وعلامات الذعر جلية على وجهها، مما صاحت بها تركان: ماذا بكِ ؟!
ردت هي تكاد تلتقط أنفاسها: كارثة كبرى مولاتي!
- انطقي ما في!، ماذا سمعتِ؟!
- راضية.. راضية وعائشة قد جمعتا أدلة ضدك وستواجهانك بها في حفل الغد.
نزلت الصاعقة على رأس تركان وشل دماغها، ثم نطقت بالكاد وحلقها مكتوم: وما هذه الأدلة؟
- تقول عائشة بأنها ذهبت إلى القبو الذي اجتمعتِ فيه مع الرجال الموكلين بقتل راضية؛ كي تبحث عن أدلة تؤكد وجودكم.. هي أشرطة أحذية بالية وإسوار.. بالضبط مثل الذي ترتدينه مولاتي.
نظرت تركان إلى الأساور التي تطوق رسغيها في خوف وبدأت تدقق النظر فيهم وتعدهم واحدة تلو الأخرى، وبالفعل وجدت أن هنالك واحدة مفقودة في اليد اليمنى من أصل خمسة عشر واحدة، هي تحفظ جميع مجوهراتها عن ظهر قلب، ولكنها لم تنتبه إلى تلك الأخيرة التي فُقدت.
فسكنت لهنيهة تحاول استيعاب ما يحدث معها ثم قالت: هذا معناه أن عائشة قد رأتني مع الرجال.
عندئذٍ أطرقت تتذكر ذلك اليوم، حتى خطر على بالها ذلك الموقف حينما كانت تتحدث مع الرجال وقع صوت اصطدام بالخارج، مما دفع أحدهم للخروج واللحاق بصاحب هذا الصوت والذي اتضح فيما بعد أنه عائشة!

ثم قالت بعد أن ربطت الأمور ببعضها البعض: الآن فقط عرفت.. يبدو أن راضية بدأت تعاملنا بنفس الطريقة التي نعاملها بها.. بالتأكيد عائشة هي من جعلتها تهرب خارج دلهي.. وراضية ظنت أنها تتصرف بذكاء حينما زيفت قصة هروبها لتبعد الأذى عن عائشة.
صاح ركن الدين في غيظ: اللعنة عليها وعلى وصيفتها.. يجب أن تقتليهما يا أمي!
تبعته فاطمة: وما العمل الآن مولاتي، كيف سنتصرف؟
قالت تركان: قلتِ أن عائشة هي من تمتلك الأدلة هي من سيشهد ضدي أمام السلطان في الحفل.
أومأت فاطمة إيجابا، لتتبعها تركان بنبرة لا تشي بالخير: إذن ليكن الأمر..
راضية
كانت أجواء الحفل مبهجة للغاية بالرغم من قلة أعداد الحاضرين وصغر المكان إلى حد ما، حيث جاءت فرق الرقص ودقت الطبول ورنت الخلاخيل.
فدخلت إلى القاعة مع جدتي واخوتي وسلمنا على أقاربنا والمعارف ثم اتجهنا لنستقل مقاعدنا الخاصة والسعادة تعلو وجوهنا جميعا، لكن سعادتي كانت من نوع خاص.. لن أخفي أن الأنوار والزينة بالحفل أدهشتني إلى حد كبير.. ولكن السبب الرئيسي لسعادتي هذه هو ما سيحدث بعد دقائق قلائل أمام الجميع.
بدأ الضرب على الطبول يصدح في أرجاء القاعة، والحاضرون بدوا في أقصى حالات تحمسهم لفرقة العروض الراقصة، فتقدم أولهم وطفق في عمل حركات بهلوانية غريبة ومضحكة في نفس الوقت، ثم أخذ يقذف الكرات ويمررها بين أرجله والجميع معه يصفقون، مما ذكرني بنفسي وانا طفلة حينما كنت ألعب تلك اللعبة مع الصبية بالأسواق..
لاحقا التم حوله باقي الفرقة وأخذوا يصطفون بشكل منتظم ويرقصون في تناغم تام دون أن ينشق عنهم فرد واحد.
واستمرت عيناي في متابعة تلك العروض الجذابة، مندمجة مع عبقرية انسجام الرقص مع الموسيقى، إلى أن جاءني المنبه بغتة..
لأنظر حولي وأفاجأ أن عائشة لم تأتِ بعد!
أين عائشة؟!، إن موعد وصول السلطان قد اقترب كثيرا هي مازلت غائبة، كيف هذا؟!
شعرت وقتها بالتوتر يعتريني ونسيت كل أشكال الموسيقى والرقص، فجعلت أتلفت حولي يمينا ويسارا علَّها واقفة مع الخادمات لكن كان ذلك بلا جدوى، مما تسبب هذا في جذب انتباه جدتي وأختي لكن حاولت أن اهدأ لهنيهة، إلى أن لمحت عيناي تلك الحية تدلف من باب القاعة.. مهلا ألم تكن موجودة منذ بداية الحفل؟
لأجدها تنتقي الجلوس في الصف المواجه لي مباشرة، تنظر إلي بالتحديد مبتسمة ابتسامة اعرفها جيدا!
لا!!
انتفض جسدي من على المقعد بسرعة وهممت مغادِرة لتوقفني أسئلة جدتي وأختي، فأجبت دون أن أطالعهم حتى: شيء هام.
ثم أجدني أنطلق هائمة متخبطة بالناس، غير عابئة بحديثهم، غير عابئة بنظراتهم.. عابئة بشخص واحد فقط..
كانت قد وصلت راضية بسرعة كبيرة إلى غرفة عائشة، لتجد الباب موصدا، فقامت بالطرق علَّها تطمئنها وتفتح لها الباب ولكن لم يستجب إليها أحد، لتحاول فتحه هي متأكدة من أن عائشة بالداخل، لكن الباب كان محكم الغلق، ثم أخذت لاهثة تركله بقوة عدة مرات جميعها باءت بالفشل، إلى أن قامت

باستجماع شتى طاقتها فعادت للخلف ومن ثم اندفعت بكامل جسدها الذي اصطدم بالباب اصطدامة قوية جعلتها ترتمي إلى داخل الغرفة، مما أخذت تتأوه بشدة.
لتقع عيناها على ذلك الجسد الهامد على الأرض، إنها عائشة غارقة في دمائها تطالعها بعينين واهنتين هي تلفظ آخر أنفاسها، فلم تلبث راضية حتى اندفعت نحوها متناسية أمر جروحها وملابسها الممزقة.
- عائشة! من فعل بكِ هذا؟!
ردت في عسرة هي تصارع أنفاسها: ت.. تركان.
فتقوم راضية بلكم الأرضية هي تبكي، تبعتها عائشة: لقد أخَذَت.. جميع الأدلة.. سامحيني يا أميرة.. لم أستطع مساعدتك هذه المرة.
- اطمئني يا عائشة.. الآن سأحضر الحكيمة وستكونين بخير.
ابتسمت عائشة في وهن ثم قالت: أنا قد انتهى دوري يا أميرة.. المعركة القادمة هي معركتك أنتِ.. واثقة بأنك ستستطيعي قهر تلك الشيطانة بمفردك.. لن تحتاجي إليّ بعد الآن.
اجهشت راضية في البكاء الغزير، لتكمل عائشة: لا تستسلمي أبدا يا أميرة.. لا تستسلمي مهما كانت الظروف.. عديني بذلك.
استمرت راضية تنشج بحرقة فتبتسم إليها عائشة وتنظر إليها النظرة الأخيرة مودعة، بعدها قامت بنطق الشهادة على مضض، كي تغفو عيناها إلى الأبد.
- لاااا عائشة! لا تتركيني وحدي أرجوكِ.. لا تتركيني!
أطبقت رأسها على رأس عائشة وأخذت تبكي بكاءا لم تبكه في حياتها، وكأنها ذرفت كل دموعها في تلك الليلة..
- هل قررت المغادرة حقا!
- اعذرني يا عم لقمان.. لقد عشت بينكم في هذه المدينة أياما لا تنسى.. ستظل محفورة في ذاكرتي مدى عمري.. ولكن يجب أن أتطلع إلى حياتي وما أريد.
سكت العجوز لهنيهة في ما بدا أنه حزين ثم عاد يقول متفهما: لا أعرف ما أقول سوى أن أدعو لك الله بأن يوفقك في حياتك.. أنت شاب حَسِن ومكافح.. بالتأكيد ستجد من ترتاح معها وتكن لك خير زوج، لتبنيا معا بيتا وتنجبا أولادا صالحين.
ابتسم وكأنه يتمنى أن يحدث آخر ما نطق به العجوز، ثم قال له: إن شاء الله يا عم.
وبعدها قام بتقبيل رأسه وهمَّ بالرحيل مغادرا تلك المدينة إلى الأبد..

(١١)

راضية
الآن وبعد موت عائشة عادت الغيمة السوداء لتغطي حياتي، ظننت أن كل شيء سيتحسن.. سيزول هذا الكابوس الذي حل علينا فجأة.. ولكن يبدو أنه لم يحن الوقت بعد..
من بعد موت عائشة عزمت على أن أقيم حدادا مع نفسي، ارتديت الأسود، ابتعدت عن كل الملذات والمتع، لازمت غرفتي، لم أخرج منها إلا في لحظة من الجنون والتهور، لم أكن وقتها في وعيي، حيث عمدت إلى خنجري الحاد وهرعت إلى غرفة تلك المشؤومة تركان لأقطع رأسها، بادرتها بسؤالي " ألن تكفي عن نشر شياطينك من يسترقون السمع حولي؟"، وبالطبع كان ردها بالرفض والإنكار بالرغم

من أنها تعلم جيدا أني كشفت حقيقتها القذرة، ليتني تهورت بحق يومها وقطعت رأسها اللعين، كنا سنتخلص من شأفة الشر إلى الأبد.
الجميع يستنكرون موقفي، يتساءلون كيف لأميرة أن تحزن على خادمة كل هذا الحزن لدرجة أنها عافت أشكال النعيم والترف!
أجل.. أنا أعيش كراهبة يحرم عليّ الضحك والابتهاج، فلا أحد يعلم ماذا كانت عائشة بالنسبة لي.. عائشة لم تكن مجرد وصيفتي بل كانت أختي ورفيقتي التي ألتجئ إليها وقت أزماتي، لم أجد في لين وطيب قلبها، خوفها الزائد عليّ ونصحها، رغبتها في أن تجعلني سعيدة دائما، كلها أشياء جعلتني أضعها في مكانة أخرى غير مكانتها المعروفة بين الباقية.
فلولا عائشة لما غدوت حية.. فقد ضحت بحياتها في سبيلي، تخلت عن عمرها ومنحته لي في المقابل.
لا تخافي يا عائشة، أثق بأنك في مكان أفضل الآن، لقد اختارك الله وأنت لاتزالي شابة صغيرة ليدخلك جنته مع عباده الصالحين، فالذين مثلك خسارة أن يكونوا في هذه الدنيا المليئة بالشرور والآثام.. لذا هنيئا لك الجنة.
والآن بقيت أنا ولم تلازمني إلا الوحدة، فمن أحببتهم بصدق تركوني، أولهم أمي ثم هدى ثم عائشة، بالإضافة إلى ياقوت والذي لا أعلم أين يكون الآن.
لا أعلم لماذا يجب أن يتركني كل من أحببتهم من قلبي، لم يبق سوى بعض من أفراد عائلتي: أبي وجدتي، شادية وناصر، والذين أصبحت أغشى أن يتركوني هم أيضا، فهم من بقي لي في هذه الحياة وفراقهم حتما سيكون نهايتي..
وبعد مرور ٦ أشهر ثِقال، أزمعت على أن أتحرر من سجن العزلة وأقتل الكآبة التي حاصرتني.
فخطر على بالي أن أقوم برحلة على الفرس في الحقول كبداية للعودة إلى حياتي الطبيعية.
وبالفعل تجهزت وارتديت ثوبا من أزهى الثياب عندي، ساعدني في تحضير نفسي خادمة قد عينتها جدتي وصيفة لي ولكن لازلت غير قادرة على الاعتياد عليها بعد.
وبعد أن أصبحت في كامل حُلتي، بقي أن أتوجه إلى فرسي **" حمزة "** فقد مر الكثير دون أراه، كنت أوصي بأن يتم الإعتناء به فقط.
لأدخل متلهفة إلى الإسطبل، أسرع الخطى إلى حيث يتواجد ركن حمزة، وما إن دلفت إلى الركن، حتى امتقع وجهي؛ فقد وجدت حمزة هزيلا راقدا على الأرض في مظهر لم أعتده يوما.
فأسرعت إليه وبت أتفقد حالته في ذعر، لأشتعل غضبا وأصيح في الخدم الواقفين: ما هذا الذي وجدته!، هل هذا ما وصتكم به على حمزة! إنه يتداعى!
رد أحدهم في وجل: أقسم لك يا سمو الأميرة أننا كنا دائمين في إطعامه ورعايته.. ولكنه كان لا يحب أن يأكل أبدا، كلما وضعنا أمامه الطعام نجده يعرض عنه ويرفسه بقدمه.
- ولما لم تخبروني؟!
- سموك لم نشأ أن نزعجك في حالة حدادك.. والتجأنا إلى الحكيم، لكن حمزة كان سيء المزاج للغاية، لا يقترب منه أحد إلا ويرفسه.
تنهدت في ضيق وأسى، ثم نظرت في عيني حمزة وكأني استشعرت بلومه وعتابه على إهمالي له وتركه كل هذه المدة بلا سؤال.. يبدو أني تناسيت أمر أن حمزة متعلق بي كثيرا لدرجة أنه مرض بسبب حزنه لافتراقي عنه.

لذلك أمرتهم بأن يحضروا حكيم القصر بسرعة لكن جاءني الرد بأنه مسافر وغير موجود بدلهي، ليعلق أحدهم: لكن سموك ثمة إسطبل لمعالجة الخيول بأسواق دلهي، يقال أن به أمهر الحكماء.
نظرت في عجب لكون أول مرة أسمع عن ذلك الإسطبل، ثم وافقت بالنهاية على الذهاب إلى هناك.
وبدأ الرجال يهيئون حمزة لوضعه داخل العربة.

بأسواق دلهي:

كان موكب الأميرة راضية يتقدم بين الأسواق الشعبية في مشهد رائع، فبدأ بعض العامة يهللون باسم الأميرة والبعض الآخر كان يطالعها بانبهار شديد، فقد بدت وقتها في أقصى جمالها وكأنها نجمة لامعة تشع نورا.
ولكن خاطرها لم يكن مع الناس المهللة، بل مع الذكريات التي حملها ذلك المكان، فبعدما كان مقرا لذكريات الطفولة الجميلة والتقاء الأحبة، أصبح علامة لذكرى سيئة جدا، هنا قُتلت صديقتها، ومن هنا هربت وتغربت بعيدا عن أهلها.
حقا لا أحد يعلم غدر الأيام، في ليلة وضحاها يمكن أن تنقلب الموازين رأسا على عقب، وتتحول الجنة إلى نار في لحظة.. ولكنه مقدر ومكتوب عند الله، ليس علينا إلا الإيمان به وحسب.
ليقطع شرودها تنبيه السائس..
- سمو الأميرة لقد وصلنا.
أجالت بعينيها تتفقد ذلك الإسطبل من بعيد، ثم قامت بالهبوط من أعلى الفرس في اتجاهها إلى هناك.
وما إن خطت قدمها ذلك المكان، حتى بدأ يهتف مالكه مرحبا بشكل أحسته مبالغا فيه، ثم أمرتهم باخراج حمزة وتجهيزه.
- ياله من يوم سعدنا.. سمو الأميرة راضية بنفسها تزورنا!
ابتسمت مجاملة ثم قالت: سمعت أن لديكم أمهر الحكماء لمعالجة الخيول.
انفرجت ابتسامة الرجل وقال: بالطبع سمو الأميرة لن تجدي أفضل من هذا المكان في دلهي بأكملها.. إن لدينا أمهر الحكماء على الإطلاق، لكن منذ فترة انضم إلينا حكيم جديد يختلف عن الباقية كثيرا، فهو..
وقبل أن يسهب في ثرثرته، قاطعته في شيء من الحزم: أتمنى أن تستدعيه الآن من فضلك.
انكمش الرجل قليلا ثم بعث إلى أحد صبيته يأمره باحضار الحكيم الجديد.
- سيأتي الآن لا تقلقي سموك.
بقيت تنتظر متأففة، لا يشغلها سوى مرض فرسها وليس ثرثرة فارغة وانتظار مزعج!
وبعد بضع ثوانٍ هتف الرجل: لقد حضر حكيمنا سمو الأميرة.
التفتت، لتراه واقفا أمامها بهيئته الفارعة وملامحه الجادة، إنه هو.. بعد طول غياب لاقته من جديد..
وقتها نسيت الجميع ونسيت أين هي من الأساس، باتت ترنو إليه في لهف وشوق كبير وكأنها دخلت إلى عالم آخر فور أن رأت عينيه.
في حين أنه كان يبادلها النظر ولكن هذه المرة ليس بلهف واشتياق بل بذهول وصدمة.. أجل لقد تأكد أنها هي راجيني، من كانت معه، عن طريق قلادة الهلال التي تتدلى من تحت غطاء وجهها الشفاف..
كانت دائما تساوره الشكوك بينها وبين الفتاة التي رآها أول مرة في باحة المسابقة، كان يظنها وهم ابتدعته مخيلته، ولكنه تيقن اليوم أن فتاة الباحة هي نفسها الأميرة راضية هي نفسها راجيني!
لكن.. لما كانت تخدعه كل تلك المدة؟! بالفعل كان يشعر بأن ورائها سرا ما ولكن ليس لدرجة أن تكون أميرة دلهي!

لما فعلت ذلك بعد أن أعطاها كل الثقة والحب! ما مصلحتها من خداع شخص فقير مثله!
انتقلت كل هذه الأفكار إلى رأسها، فقد أحست من نظراته وتعابير وجهه الصدمة التي حلّت عليه، تعلم أنها أخفت عنه هويتها الحقيقية وزيفت اسمها، بالرغم من أنه خارج إرادتها.. وإلى هذه اللحظة لم تكن تريده أن يعلم بهويتها ومن تكون، تريد أن تبعد عنه الخطر الذي مس أحبابها الراحلين، لن تتحمل أن تراه هو الآخر يتركها ويرحل.. ولكن للأسف لا شيء يبقى متوارٍ إلى الأبد.
وفي ظل تلك الأثناء كان الرجل يخاطبهما بحديثه عن مهارات ياقوت في معالجة الخيل، لكن الثنائي لم يكنا معه على الإطلاق بل في عالم آخر يخصهما وحدهما فقط.
إلى أن انتبه ياقوت حينما وجه الرجل إليه السؤال للمرة العشرين، فقال: معذرة سيد مالك، ماذا طلبت مني؟
نظر إليه الرجل في حيرة ولكن على أي حال هو يعامله باحترام كبير؛ حيث يجلب إليه العديد من الزبائن لكفاءته، فرد الرجل: كنت اطلب منك أن تأخذ فرس الأميرة راضية لمعالجته، واحرص على أن تختار أنظف الأماكن، إنها الأميرة ابنه السلطان التتمش!
نظر ياقوت في حنق فهو لا يحب جو المعاملات الملكية والواسطات، فانصاع إلي الرجل وقام بتناول الفرس إلى مكان معالجته معطيا ظهره إلى راضية، لم يشأ أن ينظر في وجهها من بعد صدمتها.
لتتبعه هي بمفردها إلى حيث يذهب بعد أن رفضت أن يلحق بها الحراس.

راضية

دلفت إلى مكان المعالجة بعدما دخل ياقوت، وبقيت واقفة أتابعه، في حين أنه ابتدأ عمله في فحص الفرس من دون حتى أن يطرف نحوي خطأً، حيث كان واضحا تعمده تجاهلي، وكأنه الوحيد بالمكان لا أحد معه.
حاولت أن أكتم كلماتي ريثما ينتهي من الفحص، وبعد دقائق قلائل وجدته يضع أدواته جانبا ويقول باختصار شديد، مركز بصره صوب الفرس والجمود يتسيد ملامحه: لقد انتهى الفحص.. يمكنك الذهاب الآن سموك وغدا على الأكثر سنبعثه إلى القصر.
ليهم بالمغادرة، ولكني صحت فيه من ورائه: انتظر!
توقف مكانه استجابة لي ولاتزال ملامحه جامدة، لأبدأ أنا حديثي.
- ما الأمر ياقوت؟!، لما هذه المعاملة؟. اعلم أني أخفيت عنك هويتي الحقيقية ولكني لاأزال راجيني التي تعرفها!
التفت إليّ أخيرا، وبدأ مخاطبتي بنبرة حازمة معقد الحاجبين: أنتِ لستِ راجيني! راجيني فتاة بسيطة ومكافحة.. ليست أميرة ذات ثراء فاحش يحيطها الخدم والحشم!
أجبته بنبرة أغلظ: لا تلومني على أصلي يا ياقوت.. لا أحد منا يختار كيف معيشته! لكنك يجب أن تعلم أن ليس كل السلاطين والأمراء أناس أنانيين كما يُصوَر لك.
رأيته يضحك متهكما ثم يقول: لستم أنانيين فعلا.. اعذريني يا أميرة لدي أعمال كثيرة اليوم.
وقبل أن يخطي عتبة المدخل، ناديت: إن كنت تراني حقا أنانية.. عندي أمر بسيط يجب أن أخبرك به وبعدها افعل ما شئت.

بالقصر:

في جو مشحون بالاضطراب ومناوشات العقل، يجلس السلطان في غرفة مكتبه الخاصة، وعلامات الانهماك بادية على وجهه، وكأنه خارج من معركة محتدمة للتو.
فاليوم قد اتخذ القرار المصيري الذي يتعلق بشدة بالسلطنة، لقد استُنفذ جُل تفكيره فقط للقيام بهذه الخطوة، ولكنها لاتزال حبيسة عقله فقط ولا أحد يعلم بها.
وبالطبع سيلجأ لأقرب شخص إليه يستطيع أن يأتمنه على هذا السر الكبير، وفي نفس الوقت يشاركه رأيه في تلك المهمة الصعبة.
طُرق باب الغرفة.. لقد جاء الشخص المنتظر.
- ادخل.
دلف غياث الدين إلى الغرفة وأمارات الحيرة والتساؤل جلية على وجهه، فيطلب منه السلطان بأن يجلس، ويبدأ بعدها الحديث.
- خير مولاي، لما طلبت حضوري؟
هز السلطان رأسه ثم بدأ يتكلم في تأنٍ: ثمة أمر كان يشغلني منذ وقت طويل.. في الحقيقة لم أكن متأكدا من صحة هذا القرار، لكن بعد بحث وتدبر في الأمر.. اكتشفت أنه القرار الأصوب على الإطلاق.
نظر غياث الدين في ترقب، ليكمل السلطان: لقد قررت أن أعطي ولاية العهد لابنتي راضية.
راضية
وبعد أن قصصت عليه الحكاية من بدايتها إلى نهايتها، وجدته قد انكمش قليلا وكأن صدمة من نوع آخر وقعت عليه، فصاح بي فجأة: ولما بقيتِ صامتة كل هذا الوقت؟! كيف يحدث معك كل هذا من دون أن تخبريني!
أجبته والدموع تكاد تفر من عيني: لأني كنت خائفة عليك!
جحظت عيناه اندهاشا وظل في ثورته، ثم أكملت بصوتي المتحشرج: ألم أقل لك أن صديقتيّ قد ماتا؟! إن كل من ساعدني مات يا ياقوت، وإن كنت ساعدتني وقتها، لا أعلم ماذا كان من الممكن أن يحدث.. لست مستعدة لخسارتك أنت أيضا.
هدأ هياجه بعض الشيء وأومأ برأسه في وجوم، ثم قال بحزم: وأنا لن اتركك من هذه اللحظة.. لقد جئت إلى دلهي من الأساس وتركت بهادورغاره فقط كي ابحث عنكِ.. أنتِ لا تعلمي كيف سيطرتِ عليّ وعلى كياني.. شعرت في لحظة أن الحياة بدونك شبه مستحيلة.. لذا لست غبيا حتى أضيعك من بين يدي مرة أخرى.
لتسري في جسدي رجفة غريبة، وكأن جاءت ريح رقيقة طيرت غبار الكآبة والألم في لحظة، جاءت لتحييني وتنعش قلبي من جديد.. لكن لم يكد يدم أثرها حتى عادت مرارة الخوف لتطغى عليّ مرة أخرى، فيسألني: ماذا؟
- أغشى إن بقيت هنا لن يدعونك وشأنك.. لا أريد أن يعلم أحد بوجودك.. تركان لن تتركك إن علمت أنك تساعدني.
رأيته يضحك قائلا: لما أشعر أنك تعاملينني كطفلك الصغير.
ضحكت في خيبة ثم قلت: وإن كان بإمكاني أن أواريكَ عن العالمِ أجمع، لفعلت.
توقف عن الضحك، ثم عاد يقول بثقة كبيرة يرنو إلى عيني بعمق: لا يهم.. أفضل أن أموت بجانبك على أن أموت وحيدا بين الغابات.. لقد جعلتِ لحياتي معنى.. أضفيتِ إليها لونا بعدما كانت سوداء

قاتمة.. إن كنتِ تعتبرين ذاك اليوم الذي اختُطفنا فيه يوما لعينا، فأنا اعتبره أسعد يوم بحياتي.. هذا لأني قابلتك.
انفرجت ابتسامتي تلقائيا واحتقن وجهي خجلا، فما أكاد انظر إلى عينيه ذات اللون الأخضر مع العسلي، حتى لا أقوى على إطالة النظر أكثر.. فبالنهاية يغلبني الحياء.
ليطرق إلى مسامعنا فجأة نداء مالك الإسطبل، بعدما أحس بطول المدة التي قضيناها.
فعاد ياقوت نحو الفرس بسرعة قبل أن يزيح المالك الستار الخفيف المنسدل على مدخل الركن، وبقيت أنا في مكاني.
دلف المالك مذعورا قائلا: ما الأمر سمو الأميرة، ما الأمر ياقوت؟!، هل الفرس لديه أمر خطير؟!
أجاب ياقوت مبتسما: لا تقلق سيد مالك.. فقط أتعبنا قليلا إلى أن هدأ وأعلمنا بما عنده.
وقتها فهمت ما يقصد، فقد قالها موجها بصره إليّ، لأنظر إليه في تأنيب دون أن أتحدث.
ثم عاد يقول الرجل: هل سيحتاج إلى فترة علاج كبيرة؟
أجابه: كلا سيدي، في الغد سنبعثه إلى القصر إن شاء الله بعد أن يكون في أفضل حال.
بعدها هممت بالرحيل، لأشكر الرجل على حسن معاملته، واشكر ياقوت أيضا..

في حديقة القصر:

كانت تركان تتجول مع وصيفتها بين جموع الأزهار المصطفة وكلها حيوية ونشاط، فمنذ أن سكنت راضية غرفتها وسلكت طريق العزلة، عادت تركان لحريتها من جديد بالضبط كأيام موت راضية.. فقد عافتها من عناء البحث عن تدبير الخطط لقتلها، ومنحتها هدنة لترخي فيها أعصابها قليلا.
قالت هي تقطف إحدى الأزهار الحمراء: أتعلمين يا فاطمة، ما هو أجمل شيء في هذا القصر.
هزت فاطمة رأسها نفيا، فأجابت الأخرى: تلك الوردات الحمراء هذه.
ثم بدأت تمشي بعض الخطوات هي لاتزال تمسك بالوردة الحمراء محملقة بها، فقالت: على الرغم من كرهي الشديد لسكان هذا القصر، إلا إن كل ما يخطف انظاري فقط هي هذه الوردات الحمراء.
نظرت فاطمة بعجب ثم قالت: ولكن، لما الوردات الحمراء بالتحديد؟
ضحكت تركان ضحكتها المعهودة ثم أجابت: مازلتِ لا تفهمينني بعد يا فاطمة.. إن تلك الوردات خاصةً لونها الأحمر يشعرني بلذة غير عادية.. وكأنه يستحثني على الإسراع لسفك الدماء.
امتقع وجه فاطمة من هول الكلام، ثم أكملت تركان: بالتأكيد هذه الوردات الحمراء تمثل للآخرين الجمال والحسن.. لكنها تمثل لتركان شيئا آخر..
قالت فاطمة في ترقب: مولاتي.. هل جد جديد أم ماذا؟
استدارت إليها تركان ثم قالت: كل أمر وله أوان يا فاطمة.. لا تتعجلي.
سألتها فاطمة: ولكن يا مولاتي.. ألا يجذبك السلطان أيضا؟
ابتسمت تركان ثم ردت هي تكمل السير: بلى.. بالطبع يجذبني.. ولكن إن كان هذا على حساب مصلحتي، فسأكتفي بهذه الوردات فقط.
لتنتشي تلك الوردات بين يديها بطريقة غريبة، وكأنها تتعاطاها، في حين أن فاطمة كانت ترمقها بعجبٍ يغلبه الخوف.
وفجأة لمحت من بعيد وراء سور الحديقة المثقب ظل راضية يعبر من البوابة، لتسرع بالقول إلى سلطانتها مشيرة نحو ما ترى: مولاتي!، انظري هناك!

التفتت تركان، ولأول وهلة صدمت بما قد رأت، إنها راضية تمشي متبخترة، والابتهاج جليٌ على محياها، بالإضافة إلى فستانها الوردي اللامع الذي يتطاير مع الهواء.. أهذه نفسها التي كانت تنتحب وتبكي أمس!
- متى خرجت هذه؟!
ردت فاطمة في وجل: لا أعرف مولاتي، إني أول مرة أراها معكِ للتو.
شعرت تركان بالإستفزاز والغيظ يعتريها كلما رأتها تضحك وتتمايل، مما قالت: وما بها تضحك وتترقص هكذا! ألم تكن تبكي على وصيفتها الحمقاء منذ يومين؟!
- من الواضح مولاتي أنها فكّت عزلتها.. لكن لا أعلم ما سر تلك السعادة الغامرة التي هي عليها الآن!
عاودت متابعتها وبداخلها حرائق متأججة، هي لم تفك حصار عزلتها وحسب بل تراها ترقص وتتباهى بفستانها المتلألئ، وكأنها عروس ليلة زفافها، مما شعرت أنها تتعمد إثارة استفزازها.
حينها قامت بتكوير الوردات الحمراء بين قبضتها في غضب ملحوظ، مما أودى بها للذبول والموت.
ياقوت
تلك الليلة كانت من أعسر الليالي في حياتي، لم يتوقف عندها عقلي عن التفكير.
فبعدما أنهيت عملي وانقضى اليوم، عدت كي أضع رأسي على الوسادة، ومنذ ذات اللحظة وهذا الأمر لم يبرح بالي أبدا.
لم أكن منشغلا بفرحة لقائها وتحقق مراد مجيئي إلى دلهي بقدر تلك الصدمة التي اكتشفتها اليوم.
إنها أميرة هل أنت مجنون؟! كيف لأميرة أن تنظر إلى عبد فقير مثلك؟! حتى إذا كانت تحبك، هل سيوافق أهلها بهذا الأمر؟! بالتأكيد ستتزوج من أمير غني مثلها.
وتنهال فوق رأسي ملايين وملايين الأفكار، وأنا وسطها واقف حائر لا أعلم ماذا أفعل!
يالها من حياة قاسية!، لا يوجد شيء كامل في هذه الدنيا..
لقد خلت أني سآتي لأجد راجيني الفتاة البسيطة في انتظاري، لأتزوجها وينتهي كل هذا الأمر.. ولكن الحياة ليست بهذه البساطة أبدا.
وفي ذلك الوقت فقط شعرت أني أمقت هذا الذي يدعى الحب، فهو يعذب صاحبه أكثر مما يريحه،.. إن حقا الناس تحب لتشقى لا لتسعد..
لم أتخيل يوما أن تأتي عليّ لحظة اجدني فيها أنتحب وأقول مثل هذا الكلام! كنت دائما أرى نفسي ياقوت قوي الشكيمة، ذا القلب المتحجر، لا يهزه أحد.. ولكني أجد نفسي أمامها أوهن الواهنين..
ماذا فعلتِ بي أيتها الأميرة!
وبرغم كل هذا لن أستطيع أن أتوقف عن حبكِ ابدا.. حتى وإن كنتِ لغيري أو قتلوني في سبيل إبعادي عنكِ.. سأنفذ وعدي لك، سأظل بجانبك أحميكِ، وهذا يكفيني..
لم أنم في تلك الليلة إلا سويعات قليلة جدا، وعندما حل الصباح، وجدتني أنتفض وأتجهز للذهاب، لم أطق الانتظار أبدا.
لقد قررت أن أذهب إلى القصر وأبعث الفرس بنفسي، مما أثار استغراب المالك وباقي العاملين بالأسطبل ولكني لم أكترث لنظراتهم وانطلقت أعدو في سبيلي إلى ذلك القصر.
وعندما أصبحت على بعد بضعة أمتار من بوابة القصر الكبيرة، توقفت في مكاني قليلا أطالع ذلك الصرح الضخم.
عندئذ تذكرت شعوري حينما كنت ذاهبا إلى المسابقة ومن داخل العربة لمحت القصر من بعيد..

واليوم ها أنا واقف أمامه وبصدد الولوج إليه بعد قليل.
لأتابع التقدم إلى أن وصلت نحو البوابة، كي أجد حارسين يقفان كالأصنام.
وبالطبع سألني أحدهم من أكون، فأجبت وكان الفرس بحوذتي.
حينها رأيته يطرق على البوابه، ففتح له احدهم بالداخل، ورأيت الآخر يخبره عني.
ثم خرج الحارس الداخلي، وبدأ يتفحص هيئة الفرس حتى يتأكد من صدق قولي، ليسمح لي بعدها بالدخول وتنفتح البوابة الضخمة على مصراعيها في شكل أثار دهشتي كثيرا، ثم أمر أحدهم باعلام الأميرة بقدومي.
عبرت من البوابة ودخلت مع الفرس، كي ألقى نفسي أمام ساحة فسيحة شديدة الوسع، تتوسطها نافورة بيضاء ينبع منها الماء في شكل بالغ الروعة، بالإضافة إلى الوردات الزاهية التي تحيط بتلك النافورة.
ثم انتبهت إلى ذاك البناء البعيد الذي لم أر شيئا في ضخامته!
كان عبارة عن خمسة طوابق، تربطهم سلالم رخامية تشبه في التواءاتها جسم الأفعى.
بعدها انتقل بصري عن يميني إلى حديقة غنّاء محاطة بسور كبير مثقب، وعن يساري إلى حقل في ما بدا لي أنها اسطبلات الخيول. لأبقى أتأمل هذه المعالم مشدوها، وكأني بالجنة ذاتها!
وفجأة سمعت صوتا يهمس من خلفي: ما رأيك؟
التفت مجفلا بعدما انقطع شرودي، وكانت الأميرة.
ماثلة أمامي بفستانها الذهبي البراق، وخصلات خفيفة من شعرها تتدلى عن غطاء رأسها في حياء، غير بسمتها التي بادرتني بها بغتة.. بالتأكيد هي قطعة من هذه الجنة أيضا!
ابتلعت ريقي ثم قلت: رأيي بماذا؟
ابتسمت برقة وقالت: هذه أول مرة تدخل فيها إلى قصرٍ، صحيح؟
نظرت في حرج، لتستطرد: من الطبيعي أن يكون هذا انطباعك فور دخولك إلى هنا.. ولكن أريد أن أُعلمك بأمر هام.. يوجد وراء هذا الصرح اللامع أناس يُعذَبون ألف مرة في اليوم.. فلا تنخدع بالمظاهر.
عندها شعرت في نفسي أن كل ما تقوله صواب، وليس جديدا عليّ هذا الأمر، فأنا مؤمن بهذه الفكرة كل الإيمان.. ولكن لكوني أول مرة ادخل إلى هذه الأماكن أخذتني الغفلة عن غير قصد.
ثم سألتني بينما كانت تربت على الفرس: ما أحوال فرسي حمزة الآن، هل تحسن؟
قلت ضاحكا: وهل لدي الجرأة أن أرسل الفرس إلى أميرة دلهي وهو لايزال مريضا.
لأراها تبتسم في شيء من المرارة ثم دنت مني قليلا وقالت: ياقوت، اعرف أن الظروف الآن اختلفت.. وصدمتك حينما عرفت أني أميرة.. أعرف أن أفكارك تبعثرت.
حينها تذكرت كوابيس ليلة أمس كلها، وانطبع الوجوم على وجهي من جديد، لتردف: ولكن صدقني، أنا لست كمثل هؤلاء الأميرات اللاتي تسمع عنهن، لا أفرق بين أحد في المعاملات.. إن أعز اصدقائي كانوا من الخدم والعامة.. فأنا لا أحب أن أصادق معظم الأميرات لغرورهن.. لذا أنت لست مضطر لإظهار التبجيل والتكلف معي.
بت أطالعها في سهوم، ثم تعمدت أن أخمد تلك الآلام بضحكة عريضة قائلا: حسنا أيتها الأميرة.. أيمكنني الذهاب الآن؟
أجابت: لا.
رفعت حاجبي متسائلا ثم قلت: ماذا بعد، أتحتاج باقي الخيول إلى رعاية هي الأخرى.
- ليس الخيول.

ازدادت حيرتي، ثم أكمَلت: تعال معي وحسب.

راضية
لم أعرف وقتها إن كان ما أفعله خطأ أم صواب، فأنا لم أجد فرصة سانحة كهذه.
على الرغم من تخوفي وحرصي الشديد على إخفاء الأمر تجنبا للمخاطر، إلا إني في نفس الوقت أريد أن أظهره للعامة، أريدهم أن يعرفوا من هو ياقوت، أليس ياقوت أحق بأن يتولى منصبا عسكريا كبيرا في السلطنة، ماذا لو علم السلطان بمهاراته فعلا!
أعلم أني حكيت له عن ياقوت وعن قدراته الفائقة في القتال والتي استفدت منها كثيرا حتى أني قمت ببعضها أمامه، ولكن الوضع سيختلف عندما يرى صاحب هذه القدرات أمامه بأم عينه.
لذا لم أتردد في أن اصطحب ياقوت ليقابل أسرتي في قاعة العائلة، إنهم هناك مجتمعون كلهم.
وحينما كنا على مقربة من القاعة، استوقفني ياقوت سائلا بالحاح: كلا أريد أن أعرف حالا إلى أين نحن ذاهبان؟!
لأرضي فضوله النافذ أخيرا وأقول: حسنا! سنذهب إلى قاعة العائلة، ستقابل أسرتي.
فغرت عيناه في ذهول قائلا: ماذا!، ما الذي تقولينه؟! كيف ساقتحم على السلطان المجلس فجأة بهذه الوقاحة!
- ما خطبك ياقوت، أنا من أريدك أن تدخل إلى القاعة! ثم إني حكيت لهم عنك من قبل.
نظر إلي مضيقا عينيه وشبح إبتسامة على شفتيه، قائلا: حقا؟
شعرت حينها أنه يحاصرني لاستخلاص مشاعري عنوة، ثم عدت أعدل كلامي بارتباك: أجل.. حكيت عنك وعن كل الأشخاص الذين قابلتهم في تلك الرحلة.
بعد ذلك قلت سريعا: هيا انتظر هنا ريثما أخبرهم، بعدها أنادي لك لتدخل إلى القاعة.

في قاعة العائلة:
دلفت راضية إلى القاعة متنحنحة، لتتحول جميع الأبصار إليها، فسألها السلطان: أين كنتِ راضية، ماذا كانت تريد الخادمة؟
أجابت في شيء من الارتباك: في الحقيقة يا أبي.. ثمة ضيف حضر اليوم، أود أن أعرّفكم عليه.
سألت السلطانة: أي ضيف؟
ردت: ذلك الشخص الذي سبق وحكيت لكم عنه.. جمال الدين ياقوت، المدرب الذي كان معي أيام تغيبي.. فلو سمحت يا أبي، هل من الممكن أن أدخله إلى القاعة؟
نظر الجميع إلى بعضهم البعض في تساؤل، وتسلل إلى راضية شعور يشي بضيق طفيف بادٍ عليهم، سأل السلطان: هل ينتظر بالخارج؟
أومأت، قائلة: أجل.
رد السلطان: ائذني له بالدخول.
تهللت أساريرها لكون هدفها بدأ يتحقق، فأسرعت إلى مدخل بوابة القاعة، في حين أن السلطان انتابه الفضول لرؤية ذاك الشخص الذي تطيل ابنته في الحديث عنه..
لتشير له راضية بأن يدلف.

بقى الجميع مرتقب ولوجه، ليظهر أمامهم شابٌ طويل القامة، عريض المنكبين، يطغى على ملامحه القوة والعنفوان، فبدأ يتقدم في ثقة كبيرة وكأنه الفارس الذي يهابه الجميع، في حين أنهم كانوا يرمقونه بعجب؛ لطلته الخاطفة ونظراته الثاقبة والتي فيما يبدو أنها جذبت السلطان.
وفي تلك الأثناء كانت راضية متوترة خشية من أي ردة فعل قد تعاكس خطتها.
توقف ياقوت وبقى ماثلا أمام السلطان، ثم قال محييا: السلام عليكم جلالة السلطان.
- اسمك جمال الدين ياقوت، صحيح؟
أومأ مجيبا: نعم، جلالتك.
- عرفت من ابنتي الأميرة راضية، أنك تعمل مدرب للقتال في بهادورغاره.
رد: هذا صحيح جلالتك، ولكني الآن انتقلت إلى دلهي للعمل كحكيم للخيول.
هز السلطان رأسه وسكت لهنيهة ثم قال: ياقوت، أريد منك أن تأتي إلى القصر غدا.. لدينا بعض الأعمال لنقوم بها.
رفع رأسه متفاجئا، ثم قال: أمر جلالتك.
قال السلطان: يمكنك المغادرة الآن.
غادر ياقوت القاعة بعد أن حيّا السلطان،
وبقيت راضية في حيرتها متسائلة إن كان السلطان حقا يريد أن يختبر مهارات ياقوت!

(١٢)

في اليوم التالي:
عند البوابة الخلفية كان ياقوت قد وصل وهو في كامل تأهبه، وما كاد ينتظر حتى جاءه رجل مكرمش الوجه يسأله: أنت ياقوت؟
أجابه، ثم قال الرجل: اتبعني.
فتبعه وعلامات الحيرة تعلو وجهه، ليدخلا معا إلى سرداب به مرآه وشعلتي نار معلقتين.
ثم ذهب الرجل ناحية صندوق متوسط الحجم وقام باستخراج بعض الملابس منه، وكانت عبارة عن صديري وبنطال واسع فيما بدا أنها ملابس التدريب.
ناولها الرجل إليه قائلا باقتضاب: الآن سترتدي هذه الملابس وسأبقى أنا واقف بالخارج انتظرك، بعدها نذهب إلى الساحة العامة.
همّ الرجل بالرحيل تاركا ياقوت الذي أصبح غارقا بين تساؤلاته، بالتأكيد فطن إليه ما سيحدث بعد قليل، ولكنه لم يتوصل بعد إلى غرض السلطان من هذا الأمر.. ثم سارع بتغيير ملابسه.
بعد ذلك، بدأ ياقوت والرجل ذو الوجه الشاحب يسيران في اتجاههم إلى الساحة العامة، وخلالها لم يكن في بال ياقوت سوى ماهية ذلك الشخص الذي سيشتبك معه.
ليتراءى إليه من بعيد خيال لثلاثة أجساد تقف هناك، وقتها علم أن الأمر لن يقتصر على معركة واحدة، فابتسم قائلا في نفسه: يبدو أن ذلك السلطان قد بدأ معي تحدٍ خفي.. على كلٍ، إن كان يريد أن يكتشف تلك القدرات التي أفضت له الأميرة بها.. فعلى الرحب والسعة.
ثم وصلا حيث يقف هؤلاء الرجال وقد كانوا مرتدين نفس ملابس ياقوت غير أن لديهم مثل هيئته.
عندئذ بدأوا يطالعونه في شيء من التوعد، في حين أنه لم يعر أي اهتمام لنظراتهم وبدا بارد الأعصاب كعادته، ينتظر فقط الإشارة ببدء القتال.

وبعد لحظات قليلة، حضر السلطان مع وزيره غياث الدين، فحياه الجميع، ثم بدأ يوجه حديثه إلى ياقوت: مرحبا ياقوت.. أحب أن أعرّفك، هؤلاء أقوى ثلاثة فرسان بالقصر، وأيضا يتولون أمر تدريب باقي الفرسان.
وتابع مشيرا نحوهم: أولهم الفارس شريف الدين، الفارس رحيم حاجي، وآخرهم الفارس سيف الدين وهو أكبرهم سنا وأكثرهم كفاءة.
حيا ياقوت الفرسان، ثم قال السلطان: أيها الفرسان الأقوياء.. بالتأكيد لا أحد بالسلطنة ينكر مدى قوتكم وكفاءتكم، ولكن الرجل الذي أمامكم.. عرفت أن لديه مهارات فائقة بالقتال، يُقال بأن لا يوجد الكثير من يعلمها.
وفي تلك اللحظة شعر ياقوت ببعض التهكم النابع من السلطان، ليرى هؤلاء الفرسان يتبادلون الضحك المكتوم، ثم استطرد السلطان: لذا، أردت أن أتأكد من هذه المهارات التي عنده، وبالطبع لم أجد غيركم من أستطيع الاعتماد عليه في هذه المهمة.
قال أحدهم: ونحن جاهزون يا مولاي.
ثم قال السلطان: حسنا.. في البداية سيتقاتل ياقوت مع شريف الدين، وإن فاز ياقوت، فسينتقل للقتال مع رحيم حاجي وهكذا.
أمر الحارس الثنائي بتناول سيوفهما ثم التوجه إلى منتصف القاعة، ليصبحا متقابلين تماما، أما السلطان فقد اتجه للجلوس على كرسيه ومعه غياث الدين لمتابعة تلك المباراة.
وبعدها بدأ الحارس في العد إلى أن صاح: ابدأ!
لتبدأ المعركة، ويتجه الفارس نحو ياقوت بعزم ما فيه، فيترك له ياقوت المجال متعمدا في البداية؛ انتقاما لسخريتهم.
وبقى الكل يتابع في ترقب، أما السلطان فقد حاول التركيز على أمر التحكم في الأعصاب الذي أخبرته به راضية، ولكنه إلى هذه اللحظة لم يرى سوى تخاذل وبطء في الاستجابة، لذا ظل يتفرج على المباراة في فتور وهو يلتقط بعض حبات العنب.
في تلك الأثناء، كان هناك شخص يتابع من بعيد وهو في كامل ارتباكه وتوتره،
وباتت تقول في نفسها: ما بك ياقوت!، ماذا حدث لك!، توقعت أن تهزمه من أول مرة!
ظل يخفق قلبها وجلا، غير مصدقة ما ترى، بالإضافة إلى العاقبة الكبرى التي ستحدث إذا استمر ياقوت على هذا الأداء.
وبقيت الأوضاع تسوء أكثر، بالأخص بعدما أخذ ياقوت بعض الضربات في كتفه، عندها عزم السلطان على إنهاء هذا الهراء بسرعة، فلن يضيع وقته مع شخص خَرِف سيطرت عليه الأوهام.
ولكن قبل أن ينطق بالحكم، استحال شكل المعركة في لحظة رأسا على عقب، وبحركة سريعة استطاع ياقوت أن يطيح بسيف الفارس، ولم يكتف بذلك بل طرحه أرضا باسلوب مختلف اعتمد فيه على الأعصاب وعضلات الساق.
تهاوى الفارس ممسكا بركبته في ألم شديد، والجميع ينظرون فاغري الأعين من هذا التحول، لاسيما السلطان الذي كاد يُجن!
حينها استرجعت راضية ذاكرتها، عندما خدعها ياقوت وتظاهر بضعفه في البداية، مبتسمة في نفسها.
وهناك أتى بعض الحراس يحملون الفارس الطريح، بينما ظل ياقوت واقفا بسيفه في استعداد ينتظر تقدم الفارس الثاني.

فأمر السلطان الفارس الثاني أن يتقدم، لتنعاد الكرة ولكن هذه المرة بدون خداع فقد أنهى ياقوت الأمر في دقائق معدودة ولم يجد أي اختلاف في هذا الفارس عن سابقه.
نظر جميع الواقفين في ذهول منقطع النظير، ليهتف السلطان في حماس: الثالث.
تقدم ثالثهم والذي كان أقواهم من المفترض، لذلك طالت المدة قليلا كي يستطيع ياقوت السيطرة عليه، لينجح في الإيقاع به وطرحه أرضا كسابقينه، وها قد فعلها للمرة الثالثة!
علت أصوات تشجيع الحراس الواقفين، وغدت راضية في سعادة غامرة، بينما ابتسم السلطان غير مصدقا ما رآه، بالتأكيد عقل كعقل راضية لن يقول هراءا، هي تفهم جيدا في هذه الأمور.
لذلك نهض السلطان متجها نحو ياقوت، ثم بدأ يثني عليه قائلا: بصراحة في البداية لم أكن واثقا منك وكنت سألغي القتال.. ولكن الآن لقد خابت توقعاتي، لقد هزمت أقوى فرسان القصر وحدك!
ابتسم ياقوت شاكرا، ثم قال السلطان: ولكن هناك شيء أخير.. وقبل أن أقول ما هو، فإن لك حق الاختيار في أن ترفض أو تقبل.
عمّت الحيرة على الجميع بعد هذه الكلمات، فأكمل السلطان: هناك أحد العمالقة المتمردين، يدعى " القاصم "، لُقب بهذا الاسم لخطورته الشديدة.. ذات مرة استطاع الهرب من أحد السجون وأخذ يعث في الأرض فسادا في أنحاء دلهي.. وبمعجزة إلهية استطاع رجال القصر محاصرته والمجيء به إلى هنا.. ولكنا لم نشأ أن نقتله بل تركناه في إحدى الزنانين الكبيرة يتعذب بمفرده عقابا له على ما فعله بالناس.
وقعت الصدمة على الجميع، يتمنون ألا يكون ما في خاطرهم صحيحا، فالجميع يعرف من هو القاصم.
ثم تابع السلطان: ولهذا كنا ننتظر الشخص المناسب الذي يستطيع محاربته وجها لوجه ويخلصنا من شره.. والآن، لن أرى من هو أجدر منك للقيام بهذه المهمة.. ماذا قلت؟
وبالفعل تحقق ما توقعه الجميع داعين لياقوت بالرحمة وليس للقاصم، في حين أن راضية تضايقت من تصرف أبيها وسيطر الخوف عليها كلية، فياقوت الآن مقبل على معركة أخطر ربما لا يستطيع النجاة منها.
وبينما كان الذعر مخيم على الجميع، كان ياقوت هو الوحيد الذي لم يرتعد قلبه أبدا، فهو معتاد على مثل هذه المعارك كما كان يفعل في المسابقات.
ثم رد أخيرا وبكل ثقة بعد لحظات من الصمت: أقبل يا مولاي.
شهق جميع الواقفين متسائلين أهذا الشخص مجنون!
ليربت السلطان على كتف ياقوت بابتسامة تشجيعية.
ثم هتف إلى الحراس: غدا سنقيم حدثا قد انتظره الجميع منذ وقت طويل.. في الغد ستكون المعركة بين القاصم وياقوت على أرض هذه الساحة، أعلنوا هذا بين العامة وفي الأسواق.. فأنا أريد مِن كل مَن ذاق الألم والحزن على يد القاصم أن يحضر، فغدا سنشهد جنازته.
وظل السلطان يتحدث في ثقة كبيرة وكأنه متيقن من أن ياقوت سيهزم القاصم شر هزيمة مما أثار عجب الواقفين غير مصدقين السلطان.
أما راضية فحاولت أن تربط على قلبها وتتماسك، مقنعة نفسها بأن ياقوت سيفعلها.. لن يخذلها بطلها أبدا.
ياقوت

كان قد جُهز لي غرفة صغيرة لأبقى فيها إلى أن يحن موعد القتال، فقد عرفت أنه سيكون هناك عدد كبير من الحاضرين يتابعونني، يبدو أن الأمر مهم جدا بالنسبة لهم.. فهم لا يعرفون أني معتاد على مثل هذه الأشياء ولكني بالطبع لن أجرؤ على قول هذا..
وبزغت الشمس وجاء يوم جديد، نهضت بعد أن حصلت على قدرٍ كافٍ من النوم، ثم قمت ببعض التدريبات الخفيفة لمرونة جسمي، وبعد فترة ليست بالطويلة طُرق باب الغرفة.
لأجد أحد الحراس يأمرني بالاستعداد حيث المسابقة ستبدأ بعد قليل.
وبالفعل قمت بجميع الإجراءات وارتديت لباس القتال، ثم غادرت الغرفة قاصدا تلك الساحة المعهودة.
وعندما وصلت رأيت الناس هناك يقبلون على المقاعد في الصفوف، ولاحظت بعضهم يتكالب على الصفوف الأولى، ألهذه الدرجة الموضوع خطير؟!
مما شاركت تعجبي الحارس الجالس بجانبي: لما يتصارع هؤلاء الناس بهذا الشكل على الصفوف الأولى؟!
أجابني بخيبة: لك الحق في قول هذا، أنت لا تعرف ماذا يمثل القاصم بالنسبة للناس.
ليزداد فضولي ناحية ذلك القاصم، فقلت: وما الذي فعله حتى يتأثر الناس به هكذا؟
رد في وجل: إنه وحش ضارٍ لا يرحم أحدا! فقد اقتحم البيوت، وقتل مئات العامة!، حتى الأطفال لم تسلم من يده!
- وهل استطعتم تحجيمه والسيطرة عليه؟
- للأسف لا، فقد عرفنا أنه هرب من أحد السجون فجأة.. ولسوء الحظ، استطاع الجنود القبض عليه بعدما كان قد أحدث كل تلك الكوارث.. لذلك أنت ترى هؤلاء الناس يتصارعون، والذين بالتأكيد أهل ضحايا هذا الوحش.. كان الله في عونك.
عادوت النظر نحو هؤلاء الناس في تأثر يصاحبه بعض الشرود.. فأنا الآن أمثل لهم المنقذ الذي سيقتص لهم من ذلك الضخم، فكم من آمال وُضعت في قلوبهم تجاهي!
ليحن الموعد المنتظر، وتكتمل الصفوف كلها عن آخرها، فتقدمت ومعي السيف ثم بدأت الهتافات تعلو وتعلو، وقتها تذكرت المسابقات وتلك الأجواء المصاحبة ولكن هذه الساحة تبدو أكثر ضخامة من باحات المسابقات، المنظر هنا حقا مهيب!
ثم وجدت الأميرة وأسرتها يتجهون إلى مقاعدهم الخاصة في الصف الأول.
ولاحظت أنها كانت تبحث عني إلى أن رأتني، لتنظر إليّ نظرات مطمئنة وكأنها تهدئ من روعي.
أما أنا فقد تذكرت اللحظة التي رأيتها فيها أول مرة، وبت أقارن الموقفين بتأمل.. حقا، من كان يعلم أني سأتحول من الوقوف على باحات الأسواق إلى الوقوق على ساحة قصر سلطنة دلهي!
مرت بعض الدقائق، بعدها أُعلن حضور القاصم، حينئذ سمعت صوت شهقات وصرخات منبعثة من الصفوف.
ومن بعيد رأيت ذلك العملاق يتقدم خطوة بخطوة وعلى جانبيه حراس يجرونه بحبال غليظة وكأنهم يجرون ثورا هائجا.
فأسرع مجموعة من الحراس الآخرين بغلق الحواجز الحديدية على الصفوف تحسبا لأي تهور يصدر من ذلك الوحش.
ليصل أخيرا ويصبح مقابلا لي، لا يفصلني عنه سوى حاجز حديدي.

عندها ظل يزفر بشدة وعيناه حمراوان يشتعلان شررا، فهو مدرك أني خصيمه، لذا كانت كل نظراته الشزراء موجهة إلي.
وما لبثنا حتى أُعلن قدوم السلطان، ليصبح كل شيء مكتملا وجاهزا، فلا ينقص سوى إزالة الحاجز الحديدي وتبدأ بعدها المعركة.
- ابدأ!!
وبمجرد أن انزاح الحاجز حتى رأيته مقبلا علي بأشد ضراوة، فابتعدت من أمامه في لحظة وأصبحت في مكانه السابق.
فاستدار إلي، وبسرعة كبيرة قام بإطلاق ذراعه الضخم نحوي، لأنجو من تلك الضربة بأعجوبة، ثم قام بعمل حركة مماثلة استطعت النجاة منها ولكن بتلك الصعوبة أيضا.. يبدو أن هذا العملاق ليس مغيبا بل مدرك جيدا لما يفعل وهذا ليس في صالحي..
بقيت أحاول الإسراع من تحركاتي، فهو لديه سرعة كبيرة في الاستجابة لم أعهدها في أي عملاق قاتلته من قبل.
أما الناس بالصفوف باتوا يصيحون بي كي أقاتل بالسيف، ولكنهم لا يفهمون أن السيف ليس له أي أهمية الآن، فكل ما يهمني هو ذلك العصب كما اعتدت، لكن هذا العملاق كان سريعا جدا ومقاومته تفوق كل الحدود!
ونتيجة لذلك، تلقيت لطمة لم ألق مثلها في حياتي أبدا، قامت بدورها في جعلي أتطاير عن الأرض أمام الجميع، لأسقط مرتميا بعيدا في أواخر الساحة قرب الصفوف، فاقدا الإحساس بالحياة بعدها..

في الساحة:

كانت المعركة حين ذاك قد وصلت إلى أشد الاحتدام، فكان واضحا أن هذا العملاق لديه قوة هائلة لا يستطيع أحد من البشر مجابهتها، بل بحاجة إلى طاقة من السماء كي تقضي عليه.
لقد حاول ياقوت بكل ما أوتي من قوة أن يراوغه ويتفادى ضرباته، ولكن في منتصف الحدث لم يتمكن أسفا من تفادي تلك اللكمة العنيفة والتي ألقت به بعيدا خارج دائرة القتال، فقد تكوم جسده بجانب الصفوف بعدما فقد الوعي وأصبح نصف وجهه عبارة عن شلالات من الدماء تنهمر، حينها تم إغلاق الحاجز الحديدي على الفور.
انحبست الأنفاس، وصدح بعدها صرخات وصياح، بالإضافة الي بعض النسوة اللاتي كن تلطمن على وجوههن.
فكان الجميع قد انفلتت عزائمه وعم اليأس على أرجاء القاعة، أما السلطان بدأ يتسلل إليه الندم لكونه عرض على ياقوت ذلك الأمر، لقد ثُبت حقا أن القاصم لا أحد من بني البشر يستطيع النيل منه مهما كانت كفاءته!
وفي ظل ذلك الخذلان، كان لايزال شخص واحد فقط متمسك بحبال الأمل الواهية، لم تستسلم لدموعها وحسرتها بل نهضت في ثقة، وباتت تصيح بأعلى صوتها هاتفة: ياقوت!
وأخذت تكرر كلمتها في حزم شديد، مما انتبه إليها الجميع وبدأوا يقلدونها علّه يكون آخر أمل لهم.
لتُرج القاعة باسم ياقوت، مما أثار استفزاز العملاق وبدأ يزأر محاولا تخطي الحاجز الحديدي، ولكنه الشيء الوحيد الذي كان أقوى منه.
أما ياقوت، فكان عقله اللاواعي وقتها يعرض عليه شريط حياته بأكمله خاصةً تلك الأيام التي جمعته براضية، ليطرق إلى مسامعه صوتها هي تناديه باسمه، تحثه على النهوض.

وشيئاً فشيئا بدأ عقله ينتبه إلى أصوات الحاضرين، فقد استطاعت تلك الأصوات أن تنتزعه من ركوده وتعيد إليه وعيه من جديد.
كي يفتح عينيه بوهن، ويرى الجميع أمامه يهتفون باسمه في أشد حماسهم، عندئذ أتاه المنبه وتذكر أنه يحارب ذلك العملاق.
فقام برفع يده مشيرا بأن المعركة لم تنتهي بعد.
انتبه الجميع إلى ما حدث، وعلا بعدها الصياح أكثر، لقد عاد الأمل مرة أخرى، وباتت راضية تحمد الله الذي استجاب لدعائها ولم يخذلها.
لينهض ياقوت في شكل سريع وكأن قوة ما أتته بغتة، غير عابئا بدمائه المضرجة، فانزاح الحاجز الحديدي مرة أخرى، وجعل العملاق يتأهب للفتك به.
وسرعان ما تقدم ياقوت إلى منتصف القاعة ورجعت الأنفاس تنحبس، فقد بدأ قتال جديد.
وعاد العملاق يقوم بعمل نفس حركاته وضرباته السريعة العشوائية، بينما عاد ياقوت ليتفاداها ولكن بتركيز أكبر وببصر أكثر حدة.
لقد كان نصب عينيه على العصب القابع برقبة ذاك العملاق، مع مراعاة التحرك بخفة وسرعة.
وفي لمح البصر استطاع ياقوت أن يقفز قفزة عالية من خلف العملاق ويصل إلى العصب المراد ويقوم بعمله.
فيبتعد سريعا ويترك العملاق الذي قد شعر أن قواه بدأت تخور رويدا رويدا، ويأتيه شعور بالدوخة وفقدان الوعي.
حينها اغتنم ياقوت الفرصة، وقام بركل العملاق من خلفه وجعله يسقط أرضا.
وهنا يأتي دور السيف، ليلتقطه وبحركة سريعة يقوم بغرز النصل داخل صدره، حتى تجحظ عينا العملاق بعدما قد اندفع دمه كالنافورة، ويصبح بعدها جثة هامدة لا حول لها ولا قوة.
وبمجرد أن رأى الناس هذا المشهد، لم يكتفوا فقط بالتهليل والتكبير، بل خرجوا عن الصفوف بعدما فقد الحراس السيطرة عليهم، واتجهوا نحو ياقوت يعانقونه وأيضا نحو جثة القاصم يلكزونها بأقدامهم ويبصقون عليها، فقد اقتص ياقوت اليوم لموتاهم ولم يحطم الآمال.
وفي تلك الأثناء لم يشأ السلطان أن يمنع الناس من فرحتهم، ونهض يطالع ياقوت والناس يقبلون عليه مبتسما، فقد تحققت نبوءته واستطاع ذلك الشاب الفتيّ أن يهزم العملاق الذي ضمر الناس الغل والكره له لسنوات عدة.
قال غياث الدين بينما كان السلطان منشغلا بما يرى: مبارك مولاي، لقد تحقق ما كنت تتوقع.. ولكن لاأزال غير مصدق أن هذا الشاب استطاع هزيمة القاصم وحده!
ابتسم السلطان ورد: إن شعوري تجاه الناس لا يخيب أبدا يا غياث الدين.. بمجرد أن تنظر في عيني هذا الشاب ستشعر وكأنك أمام أحدى أقوى فرسان.. الآن فقط تأكدت من أن راضية تجيد انتقاء الناس مثلي.
وفي جانبٍ آخر، كانت راضية تغمرها دموع الفرح، فلم يخذلها بطلها كما توقعت، بالإضافة إلى نجاح خطتها التي سعت لها.
باتت تنظر إلى الناس الذين يتوافدون على ياقوت في سعادة عامرة، ومشاعر الفخر تعتريها.
ولكن زالت البهجة حينما رأته يتساقط مغشي عليه مرة أخرى.
راضية

انتقل ياقوت إلى طبيب السلطنة بعد أن أغشي عليه وظل ماكثا عنده حتى يباشره لحظة بلحظة، أما أنا فكان يعتصرني الهم والقلق، لا أعلم لما قد فقد وعيه مرة أخرى بعد أن استرجعه.
لذا وبعد أن مرت فترة ليست بالقليلة على بقائه عند الطبيب، قررت أن أذهب إليه دون أن يلاحظني أحد، فلم أعد أتحمل المزيد من القلق والتوتر.
وسرعان ما توجهت إلى حيث يوجد الطبيب، ثم طرقت الباب في هدوء، ففتحه، مبادرني بابتسامة رسمية قال بعدها: مرحبا سمو الأميرة، كيف أساعدك؟
رددت في صوت خافت: هل لي أن أطمئن على المريض الذي عندك؟
بدا عليه التساؤل بعض الشيء ثم قال: بالطبع.. تفضلي سموك.
دخلت في حذر، أجول ببصري أرجاء المكان إلى أن لمحت ياقوت، قابع على تخت خشبي في آخر الغرفة، وكان لايزال غائبا عن الوعي، مما دفعني للتقدم نحوه في وجل ملحوظ، فقلت للطبيب: ألم يفق أبدا؟
رد: كلا سموك، لايزال على هذه الحال منذ أن فقد وعيه بالساحة.
لازداد خوفا فوق خوفي، ثم استطرد الطبيب: ولكن لا تقلقي، هذا ليس إلا بسبب الانهاك واللكمة العنيفة التي تعرض لها.. قريبا جدا إن شاء الله سيفيق ويعود إلى عافيته.
مكثت واقفة أرمق ذلك الجسد الهامد في شرود، ليسألني الطبيب: اعذريني على التدخل سموك ولكن.. هل تعرفين هذا الشخص؟
أنقلت بصري إليه ببطء بعد أن انتزعني من شرودي، ثم قلت: أجل.. أعرفه.
وظل الصمت مخيم على المكان للحظات إلى أن طُرق الباب، فتوجه الطبيب لفتحه.
وبقي يحادث الطارق في نبرة تبدو متوترة، ثم بعدها أتى إليّ مسرعا وقال: اعذريني سموك يجب أن أذهب الآن هناك حالة طارئة.
- حسنا سأبقى هنا انتظرك لا تقلق.
همّ بلملمة أغراضه سريعا ثم خرج وترك الباب مفتوحا، عندها قمت بسحب كرسي وجلست بالقرب من ياقوت.. وعاد إليّ الشرود من جديد.
إنها المرة الأولى التي أرى فيها ياقوت بهذه الهيئة.. مغمض العينين، طريح الفراش، شاحب وجهه يغلبه التورم.
ولكن كل هذا نتاج عمل أقرب للمستحيل لم يقدر عليه أحد في هذه السلطنة.
إن قوة ياقوت لا تكمن في جسده، بل تكمن في صميم روحه.. فطنته وشجاعته وفوقهم قوة قلبه وإصراره على المواصلة والسعي لآخر نفس، في كل مرة أشعر وكأني أكتشف فيه صفة جديدة، لقد بدا لي كمنهل لأمور عدة في الحياة.. إنه كيانٌ لن يكرره الزمن مرة أخرى.
وفي وسط شرودي، شعرت بحركة يديه فوق التخت، تتبعها حركة أجفانه البطيئة.
ليفتح عينيه أخيرا، ويكون وجهي أول ما يراه.
- حمد لله على سلامتك.
نظر باسما في وهن، ثم رأيته يحاول الاعتدال في جلسته متأوها، ليستند بظهره إلى الحائط، فقال بعدها: أنتِ هنا منذ مدة طويلة؟
- ليس كثيرا.
ثم ضحك ببعض السخرية قائلا: ورأيتني الآن وأنا محطم.

رددت باسمة: أنت تحطمت بالفعل ولكن بجسدك فقط، لا ترى الناس كيف هم سعداء بسببك.
ثم أرجع رأسه إلى الوراء قائلا بعد تنهيدة طويلة: كم أنهكني ذلك الضخم.
- كنت تحاول الوصول إلى عصب رقبته، صحيح؟
ابتسم بلؤم وقال: كشفتِ سري إذن.
بادلته الابتسام، وبقيت صامتة إلى أن قلت: ياقوت هل لي أن أسألك بخصوص أمر ما.
نظر مستفهما، لأكمل: هل كنت أنت من
يقاتل في باحة أسواق دلهي قبل أن يقع اختطافنا بقليل؟
ظهر عليه بعض الاضطراب، ثم أجاب: وكيف عرفتِ؟
قلت: لأن اسلوب ذاك المحارب في القتال يطابق اسلوبك بالضبط خاصة مع هذا العملاق.
رد: صحيح كنت أنا ذلك الشخص.. لم تستطعي رؤية وجهي لبعد المسافة بلا شك.
نظرت في عجب قائلة: وهل لاحظتني يومها؟
رد: أجل لاحظتك، كنتِ جالسة بآخر صف في الباحة كلها ومع ذلك استطاعت عيناي تبين ملامح وجهك بوضوح.. ومن وقتها وصورتك لم تبرح مخيلتي أبدا.
وقعت علي المفاجأة، فقلت: ولكنك لم تحدثني أبدا بهذا الأمر حينما كنا في تلك الرحلة.
- لم أخبرك لأني خلتك وهم من وحي خيالي، فهيئتك عندما رأيتك بالباحة تختلف كثيرا عن هيئتك بتلك الرحلة.. ولكن بعد أن لاقيتك بالاسطبل قد ثبت أن هاتين الفتاتين هما أنتِ.
اعتراني الصمت جراء هذه المفاجأة العجيبة، ثم قام بخفض صوته قليلا وقال: ولكن لا تخبري أحدا بأنك رأيتني في تلك المسابقات.
- ولما؟
- لأنها من المفترض أن تكون ممنوعة، لكن لا أحد يعبأ بهذا.
أومأت برأسي ثم وجدته يقول متأففا: لما تأخر هذا الطبيب، أريد أن أغادر.
نظرت إليه باستعجاب قائلة: تغادر إلى أين، لم ينته أمر علاجك بعد!
- لا أريد أن أكمل، مجرد لطمة سيزول أثرها قريبا.
- ومن قال لك بأنك ستغادر من هنا حتى بعد أن تطيب.
رفع حاجبه متسائلا، فأكملت: هل نسيت أمر تكريمك من قبل السلطان؟
لأجده يقول بجدية: أنا لن آخذ أي مقابلات مادية يا أميرة، اعتذر منكم.
- لا تقلق لن يكون المقابل مادي.
- وماذا سيكون؟
فدخل علينا الطبيب فجأة قاطعا الحوار..

في قاعة الطعام كان السلطان مجتمعا مع أسرته حول المائدة لتناول الغداء، وكعادتهم أخذوا يتبادلون أطراف الحديث.
حينئذ كانت راضية جالسة مرتقبة ما سيقوله السلطان بشأن ياقوت، وبالفعل بعد مدة قصيرة من حديثه وجدته يقول: اليوم كان تكريم ذلك الشاب جمال الدين ياقوت بقاعة الوزراء.
تحولت إليه جميع الأبصار في اهتمام على رأسهم راضية، فاستكمل: لقد أصدرت بضمه إلى جماعة أمراء فرسان السلطنة ومنحه لقب أمير فارس.

نظر الجميع في دهشة بينما تهللت أسارير راضية فقد تحقق مرادها بالفعل!
أما السلطانة فكان لها رأي آخر، فقالت: اعذرني يا سلطان، ولكن هذا اللقب لا يُمنح فقط لذوي الكفاءة العالية في القتال، لابد أن يكون ذا كفاءة عالية في الصفات الشخصية أيضا.. نحن لا نعلم بأصل هذا الشخص ومن أين جاء، لا نعلم إن كان أمينا وسيكن الوفاء للسلطنة أم لا.
ومن هنا وأدركت راضية بأن جدتها قد أعلنت الحرب على ياقوت، وحتما ستظهر تلك العنصرية الطبقية في هذا الأمر.. والذي كانت تخشاه وبشدة.
رد السلطان: كلامك صحيح يا أمي، ولكن لا تقلقي من هذا الأمر.. يكفي أن ما قالته راضية عنه بات صحيحا وتأكدنا منه.
تنفست راضية الصعداء، فالأهم عندها أن يكون السلطان مقتنعا بياقوت، ثم عاد السلطان يقول: وأيضا وكّلته بمهمة تدريب الجند، بالإضافة إلى تدريب الأمير ناصر والأميرة راضية.
عندها اندفعت راضية تقول بكل تلقائية: حقا!
لتلحظ استعجاب الجميع من اندفاعها الغريب، وبالأخص السلطانة فقد ظهر الانزعاج على وجهها جليا، حينها رجعت بظهرها إلى الخلف بعد أن أحست بمبالغة ردة فعلها وقالت: ولكن يا أبي.. نحن من يختص بتدريبنا المعلم أحمد البندقداري.
علق ناصر: أجل يا أبي، ألن يدربنا مرة أخرى؟
رد السلطان: لا تلقوا هما، المعلم أحمد البندقداري سأكلفه بمهمة تدريب أخرى، أما أنتم أبناء السلطان يجب أن يدربكم شخص كفء ونثق بمهاراته.
ثم عاد الجميع ينظر في صحنه بعد ذلك، والسلطانة باتت تحك الملعقة والسكين في الصحن بعصبية واضحة، ظل يرن ضجيجها في آذان راضية، لذا آثرت التركيز في صحنها متحاشية نظرات الاتهام والشك الصادرة من جدتها.

ياقوت

بعد مرور يومين على حبسي عند ذلك الطبيب، أتانا أمر من السلطان بحضوري في الغد إلى قاعة الوزراء مع واجب ارتداء ذلك اللباس العسكري الفضي.
عندها جاء في خاطري تلقائيا أن يكون ذلك التكريم الذي لم تكمل الأميرة الحديث عنه مرتبط بهذا الأمر.
هل يمكن أن يضمني السلطان إلى الجيش، أو ربما أعمل كجندي في هذا القصر.. لا أعلم، ولكن الأهم أن يكون هناك أي وسيلة تجعلني بجانب الأميرة.
حينها لم يجرؤ الطبيب العنيد على قول شيء واضطر أن يمنحني الموافقة بالخروج، لأنطلق أنا وأعود إلى حريتي بعد يومين من الملل والركود.
وبعد أن طلع الصبح، جاء الموعد كي أذهب إلى قاعة السلطان، فقمت متحفزا ارتدي ذلك الزي العسكري والذي ما إن نظرت في المرآة شعرت وكأني أشبه هؤلاء الفرسان الذين يهابونهم الجميع.. لا يمكن أن يكون هذا الزي لمجرد جندي.
وحتى أنني لن أنسى نظرة الطبيب عندما رآني بهذا الزي، فقال لي: هنيئا لك بما سيمنحك إياه السلطان.
حينها نظرت إليه متعجبا بعدما ازداد فضولي حول الزي، ولكني لم أشأ أن اسأله عمن يرتدون مثل هذا الزي في السلطنة، فأريد أن أكتشف بنفسي.
لأذهب بعد ذلك مع الحارس الذي كان ينتظرني، قاصدا تلك القاعة.

وما إن وصلنا إلى هناك، حتى فوجئت بعدد كبير من الوزراء جالسين يتوسطهم السلطان، وكان يوجد وقتها هؤلاء الثلاثة فرسان الذين تقاتلت معهم بالإضافة إلى بعض الفرسان الآخرين.
دلفت من باب القاعة وبدأت أسير بين صفي الوزراء، فرأيتهم يرمقونني بغرابة يوشوشون بعضهم البعض، أما الفرسان استشعرت نظرات الحقد تعتليهم خاصة هؤلاء الثلاثة.
إلى أن مثلت أمام السلطان محييا، ليأمرني بالجلوس ب5جانب الفرسان.
عندئذ بدأ يتحدث.
- لقد مر على حادثة القاصم يومان ومع هذا لم نكرم بعد ذلك المحارب الشجاع الذي استطاع أن يوقع بالقاصم شر هزيمة.. لذا أمرت بجمعكم كي تشهدوا على تكريمي لجمال الدين ياقوت.
ثم طلب مني أن امتثل أمامه، وبدأ يقول: لقد أصدرت قراري بضم جمال الدين ياقوت إلى جماعة أمراء فرسان السلطنة ومنحه لقب أمير فارس.
فغرت عيناي من الصدمة، فلم أتوقع أن يمنحني السلطان مثل هذا المنصب الكبير! لذا لا غرو في أني ارتدي نفس زي هؤلاء الفرسان.
وبعدها ألبسني تلك الخوذة الفلاذية ليكتمل الزي وأصبح واحدا من هؤلاء جماعة الفرسان الجالسين.
ثم قام الفرسان والوزراء بتهنئتي رغم أن كان واضحا على بعضهم الضيق، ولكني ممتن كثيرا للسلطان.
بعد ذلك، طلب السلطان من الفرسان الانصارف باستثنائي أنا، ليثير ذلك حيرتي.
ثم رأيته يُحدث الوزراء في أمر ما من أمور السلطنة التي لا ألقي لها بالا، واستمر الحديث لوقت ليس بالطويل، ليغادر الوزراء كلهم وأبقى أنا، ثم أمرني السلطان بأن أبدل مكاني وأجلس على المقعد المقارب له.
بعدها بدأ يخاطبني، سائلا: كيف شعورك الآن وأنت أصبحت أمير فارس؟
ابتسمت برسمية وقلت: شعوري بالامتنان والشكر لا يوصف يا مولاي.
هز رأسه مبتسما ثم قال: وهذا ما تستحقه يا ياقوت، فذلك الذي يستطيع أن يتغلب على القاصم بعينه بالطبع لن يكون شخصا عادي.. ولذا فقد كلفتك بأمرين آخرين.
نظرت متسائلا، فاستطرد: منعا لحدوث الغيرة والتخاصم بينك وبين باقي أمراء الفرسان، فقد أكلفك الآن بتدريب الجند وتعليمهم كل المهارات التي تعلمتها أنت.
أعلنت طاعتي، ولكن كان بداخلي سخرية من تحولات القدر العجيبة، فبعدما كنت أدرب شباب القرية ببهادورغاره أصبحت سأدرب جنود السلطنة، ثم عاد يكمل السلطان: الأمر الثاني، هو أنك ستخصص وقتا لتدريب الأمير ناصر الدين والأميرة راضية.
دبت بداخلي سعادة غامرة وقتها كادت تفقدني تماسكي أمام السلطان، والذي أكمل: هذا بالطبع غير عملك كأمير فارس.. الأمور ثقيلة وبحاجة إلى شخص حمول وفي نفس الوقت كالشعلة لا ينطفئ لهيبها أبدا، هل ستكون أهِلا لها يا ياقوت؟
رددت في حزم: إن شاء الله مولاي سأعمل بقدر المستطاع على ألا أخذلكم أبدا.
صمت السلطان لهنيهة ثم قال بجدية تامة: ياقوت، إن أغلب وزرائي قد عارضني في تعجلي بمنحك هذا اللقب، محتجين بأني لم اختبر صفاتك الشخصية بعد.. ولكن داخلي يحدثني أنك شخص ذو سجية سليمة.. مع ذلك يجب أن تضع في الحسبان.. من يفقد ثقة السلطان يفقد كل شيء.

وكما جرت العادة، كانت تركان تتسكع مع وصيفتها في حديقة القصر، خاصةً عند تلك القطعة الحاملة للوردات الحمراء.
قالت فاطمة بنبرتها اللئيمة: عرفتِ مولاتي، إن تحضيرات حفل زواج الأميرة شادية تقام هذه الأيام.. لا ترين كيف شكل القاعة!، إن الترتيبات تتم على قدم وساق!
ضحكت تركان في استهجان ثم قالت: دعيهم يتمتعون قليلا يا فاطمة.. إن الأوضاع هادئة هذه الأيام لأن ذلك العقل لم يعمل بعد.
فتابعت في نبرة أفعوانية:
غدا سترين هذا القصر الزاهي يتحول إلى مقبرة موحشة.. فقط بعض الصبر والتخطيط.
ليباشرا السير بين صفوف الوردات الحمراء، إلى أن سمعت كلتاهما صوت صليل سيوف صادر عن جهة اليسار، مما أثار فضول تركان.
عندها عزمت على أن تتبع ذلك الصوت فدوما ما تتواجد بالحديقة ولا تسمع أي من هذه الأصوات.
وحينما أصبحت على مقربة من مصدر الصوت تراءى إليها مجموعة من الجنود يتدربون عن بعد، فاقتربت أكثر إلى أن أدركت المشهد الذي يجري.
إنه ياقوت يدرب الجند، وقد بدا شديد الانهماك والحزم، فكان يتحدث إليهم بنبرة جادة ويساعدهم على فعل بعض الحركات.
فانتبهت إليه تركان، وظلت ترمقه وهو يعمل إلى أن سألت فاطمة التي بجانبها: من هذا الشخص الذي يدرب الجنود هناك؟، لم يسبق لي أن رأيته بالقصر.
بدأت فاطمة تدقق النظر وكأن مخها يعتمل على تذكر تلك الهيئة، ثم قالت: اااه، إنه ذلك الشاب الذي هزم القاصم منذ يومين.
- هكذا إذن.
- ولكن مولاتي، لقد تسللت إلي أخبار بأن السلطان قد عيَّنه في جماعة أمراء الفرسان.. وسمعت أيضا أنه يدرب الأمير ناصر الدين والأميرة راضية.
لتلتفت إليها تركان وعيناها جاحظتان غضبا، فصاحت: عرفتِ كل هذا ولم تخبريني أيتها البلهاء!!
ارتجفت فرائص فاطمة ثم قالت هي تعض على أصابعها: سامحيني مولاتي، لقد نسيت.. لم أكن أعلم أن ذلك الأمر يهمك.
- غبية!
ثم عادت توجه بصرها نحو ياقوت، تتفرس هيئته جيدا، شاعرة بأن وراءه سرا ما، غير قوامه وملامحه المميزة التي قد أثارت إعجابها.
فباتت تطيل النظر إليه بعينين لامعتين، لتتعجب منها وصيفتها وكأن أصابتها شبه غيبوبة هي واقفة، فعلقت فاطمة: ماذا مولاتي.. هل ستضعين هذا الأخير في رأسك أيضا لأنه يدرب راضية.
أفيقت من غيبوبتها وقالت بخبث: بالطبع سأضعه.
لتكمل داخل نفسها: كي يصبح تحت سيطرتي أنا.

(١٣)

راضية

في هذه الأيام يستعد القصر لمناسبة كبيرة، وأخيرا ستتزوج أختي بعد أن مر على خطبتها عامان، فقد أردنا أن يخلف حدث مقتل القاصم حدث أكثر بهجة وهو حفل زفاف شادية.
ولهذا أمر السلطان بتوزيع المال والهدايا على ضواحي دلهي بأكملها.
لكم بتنا ننتظر هذه اللحظة لتعود الأفراح إلى القصر بعد كم النكبات التي مررنا بها.
وبالفعل لم تُترك بقعة واحدة بالقصر إلا وغُطيت بالزينة، ليتحول إلى جنة غناء تبهر كل من يدخلها.
ثم أتى اليوم المرتَقب، وامتلأ القصر على إثره بأفواج من علية القوم والأمراء.
أما أختي فقد كانت وقتها كالبدر المستنير، ترتدي فستان العروس الأحمر المزركش والزينة تحوطها من كل جانب.
وبعد أن أصبحت شادية مستعدة لأن تظهر إلى الناس، اتجهنا إلى قاعة الزفاف، وانفتحت البوابة لنجد الجميع في انتظارنا، فدخلت أختي وبرفقتها أنا وجدتي، ومن خلفنا موكب العروس من الفتيات تشدو أحلى الأغاني بينما صوت الطبول يصدح في أرجاء القاعة.
فتستقل شادية ذلك المقعد الفاخر المخصص للعروس، في انتظار قدوم العريس.
وبقينا نتابع العروض الراقصة، والزغاريد تنبثق من كل حدب وصوب.
لألحظ في وسط الجلبة ياقوت من بعيد يقف في صف أمراء الفرسان، وكان وقتها منشغلا في الحديث مع أحدهم، إلى أن لمحني، فنظر إليّ مبتسما ابتسامة خفيفة التمعت فيها عيناه.
حينها قمت بالالتفات بعيدا عنه تلقائيا، فقد كانت جدتي جالسة بجانبي وأنا لا أريد أن يزداد شكها أكثر ناحية ذلك الأمر، تكفي نظراتها التي لا أسلم منها.
ليُعلن بعدها بقليل قدوم السلطان بالإضافة إلى العريس، وتبدأ مراسم الزواج..

ياقوت

وها قد مر بضعة أيام على تعييني بهذا القصر، كانت حافلة بالكثير من المهام، أصعبها هو أمر تدريب الجند، فقد اكتشفت أنهم بحاجة إلى تغيير بعض العادات الخاطئة في القتال والذي كلفني عناءا وجهدا كبيرا.
بالإضافة إلى عملي كأمير فارس، حيث كُلفنا بعمل بعض الأنشطة، مثل الرحلات الاستكشافية، وقد كانت وقتها فرصة سانحة كي أتعرف على زملائي الفرسان.
لكن لم ألق الود منهم بالشكل المرضي باستثناء شخص واحد **" جعفر "**، كان أصغرنا سنا، ولكنه أفادني كثيرا في التعرف على عادات القصر وكشف جميع مداخله ومخارجه.
أما أمر تدريب الأميرة وأخيها، فقد تم تأجيله نظرا لظروف حفل زفاف أخت الأميرة.
وعندما أتى يوم الزفاف، أُمرنا بالتواجد في قاعة الحفل تحسبا لأي خطر داخلي قد ينجم، فتوجهنا جميعا إلى هناك.
كانت القاعة باهرة الجمال بالمعنى الحرفي، شديدة الوسع، يملأ سقفها ثُريات ضخمة متلألئة عاكسة للضوء، حتى الخدم كانت ملابسهم زاهية فما بال الأمراء!
لنقف مصطفين في انتظام والقاعة لا تزال فارغة من الزوار.
حينها همس إليّ جعفر: كل حفل نضطر للوقوف بهذا الشكل حتى تخدل سيقاننا!
ابتسمت في عجب قائلا: ولما إذن أجد الناس يحسدوننا على منصبنا.

رد: أجل، المنصب كبير بالفعل وكما ترى ألبسوننا حلة جديدة فاخرة.. ولكن يجب أن تعلم مهما ارتفع شأننا لن نتساوى أبدا مع الأمراء بحق، الذين ولدوا وفي فمهم ملعقة من ذهب.
حينها لا أعلم لما قد أثرت كلمته هذه في داخلي، وكأنها ذكرتني بتلك العقدة والليلة الصعبة التي أمضيتها بعد مقابلة الأميرة.
وبعد مدة بدأ يتوافد الناس على القاعة، فبقيت منتظرا قدوم الأميرة، ولكن الساحة برغم كبرها امتلأت بشكل سريع جدا، يصعب فيه تمييز الأشخاص.
لنسمع المنادي يعلن عن قدوم العروس، حينها قلت أن الأميرة ستكون معها بلاشك، لذا حاولت أن أركز بصري على بوابة القاعة بالتحديد.. لكن لسوء الحظ لم أستطع سوى رؤية العروس ولمدة قصيرة، حيث كان يحوطها ذلك الموكب المزعج الذي يحجبها عن أي شخص.
واستمرت محاولات البحث عن الأميرة الغير مجدية، ليلحظني جعفر قائلا: ما بك يا صاحبي، اتبحث عن شيء ما؟
وقتها لم أعرف كيف أجيبه فقلت: لا لا.. تثير عجبي زحمة المكان فقط.
نظر في خيبة وقال: إن أقارب السلاطين دائما ما يكونوا كثيري العدد، فلو رأيت كم الدعاوي المرسلة ستجن!
ضحكت من طريقته العصبية في الكلام ثم قلت: لما أشعر أنك لا تطيق سكان هذا القصر.
ليعتريه الفزع قائلا: اصمت!، هؤلاء الفرسان الذين معنا من الوشاه، إذا سمعونا سينقلوا الكلام حتما ولن نُرحم وقتها.
نظرت إليه ساخرا، ثم تابعت التفقد إلى أن لمحتها أخيرا!
كانت في قمة جمالها، ترتدي فستانا أبيض اللون، يجعلها كالشمعة المضيئة، على الرغم من كثرة عدد الحسناوات اللاتي بالقاعة ولكنها الأجمل بينهن.
فما إن انتبهت إليها حتى عرفت أنها كانت تنظر إلي من البداية، لأقابلها بالابتسام ولكن رأيتها تعرض بوجهها بسرعة.
يبدو أنها تخشى أن يلاحظها أحدهم.. أعلم أن هذا الأمر لن يظهر للنور أبدا، وهذا ما يعذبني كل يوم.. ستظل تلك المشاعر حبيسة داخل نفسي وفقط.

راضية

انتهى حفل الزفاف وغادرت شادية القصر، بالرغم من أنها مناسبة سعيدة ولكن يشوبها الحزن لألم الفراق.
شادية كانت أختي ورفيقتي منذ نعومة اظافرنا، لقد مررنا بمراحل نمونا معا، تشاركنا الحزن والفرح معا، كيف اليوم تأتي وتفارقنا بهذه البساطة!
ربما كان هذا سبب يجعلني أرفض فكرة الزواج، ولكنها فطرة قد جُبِل عليها بنو البشر وأمر لابد منه.
وبعدها عادت الأوضاع لطبيعتها بالقصر، وبدأ ياقوت في تدريبي أنا وناصر، فكان يدربنا في أوقات محددة من الأسبوع، ولحسن الحظ رأيت ناصر يتفاعل معه بشكل ملحوظ، فقد تحسنت قدراته القتالية عن السابق، وتعلم مهارات جديدة لم يسمع بها من قبل، غير أن جمعته علاقة قوية بياقوت جعلتهما أصدقاء.
ليأتي يوم قد خرجنا فيه إلى الصيد، وكانت فرصة جيدة لناصر حيث إنه لم يعتد على ممارسة الصيد ويحتاج إلى تطوير مهاراته فيه.

فقصدنا طريق الغابة القريب بالسلطنة الذي أحفظه عن ظهر قلب، واختار لنا ياقوت مساحة واسعة كي تسمح بحرية الحركة وفي نفس الوقت تملؤها الفرائس.
لنربط الخيل ونشرع في تجهيز أغراض الصيد، حينها بدأ ياقوت يختبر ناصر في قدرته على تعقب مسار الحمائم، وبالفعل استطاع ناصر أن يحدد مكانها بالضبط ولكنه لم يفلح في التصويب وانزاح السهم بعيدا.
عندئذ قال ياقوت: وأنتِ يا أميرة أرينا قدراتك.
نظرت في ارتباك لقد تخليت عن الصيد مطلقا منذ أن قطعت العهد أمام جدتي، فكيف سأنقضه الآن.
فلاحظ ياقوت ترددي وقال: يبدو أن الأميرة لا تجيد الصيد.
قلت باندفاع: ومن قال هذا!، سأريك الآن.
لالتقط سهما وقوسا، وأبدأ بتعقب إحدى الحمامات، وسرعان ما أفلت اصبعي، فانطلق السهم مصيبا الحمامة وسقطت أمامهم جثة هامدة.
عندها صاح ناصر: يالك من ماهرة يا اختي!
نظر ياقوت معجبا بآدائي قائلا: جيد، يبدو أنك تمارسين الصيد منذ وقت طويل.
رددت: أجل هذا صحيح.
ثم طفق ياقوت يساعد ناصر على التحكم بالقوس والسهم، أما أنا قمت بالتنحي جانبا، لأجلس على جذع شجرة مائل بالقرب منهما، بعدها نادى ياقوت: هيي، ألن تشاركينا التدريب؟
- لا سأبقى هنا أشاهدكما.
رفضت المشاركة وقتها حفاظا على عهدي إلى جدتي، ومكثت أشاهد ياقوت كيف يعلم ناصر فنون الصيد، حينها تذكرت وقت كنت بعمر ناصر وتلك الحماسة التي كانت لدي لتعلم فنون الصيد والقتال، والآن ها هو ناصر يكرر كل ما حدث.
وبعد مدة رأيت ياقوت يترك ناصر يجعله يحاول الاقتناص بمفرده، فأقبل جهتي وجلس بالقرب مني على الطرف الآخر لجذع الشجرة، ثم قال: إن الأمير ناصر لديه إرادة كبيرة رغم الإخفاق.
نظرت أتأمل ناصر وهو يحاول جذب وتر القوس وبصره كله موجه صوب الفريسة، ثم قلت: لم أر ناصر أبدا بهذا الحزم من قبل.. أشعر أن حبه للقتال بدأ يتزايد، والفضل يرجع لك.
نظر مهتما، لأكمل: لقد استطعت احتوائه جيدا وأعطيته الثقة بنفسه، لدرجة أنه تعلق بك وبات يقلد جميع حركاتك.. غيرك من المدربين لم يكن يعامله بالشكل الذي يتناسب مع روحه.. والتي بحاجة إلى الدعم المستمر والتحفيز.
فابتسم وقال: إن تعليم القتال حرفة أيتها الأميرة، ليس كل المدربين لديهم سياسة التعامل النفسي.. ولهذا ترين الأغلب هم أصحاب القدرات العادية.
فعدت التفت إلى ناصر استشعر فيه ذلك الفرق، وبعد لحظات من الصمت، قطعها ياقوت: هل لي أن أسأل بخصوص شيء ما.
التفت إليه، ليقول:
- لما أراكِ دوما ترتدين هذه القلادة؟
قالها مشيرا إلى قلادتي الهلال.
ابتسمت، ثم نظرت في بعض الجوى وبدأت أحكي.

- إن هذه القلادة أثمن من أن تكون مجرد قلادة.. أمي من أعارتها لي قبل وفاتها بفترة بسيطة، لايزال ذلك المشهد حاضرا في بالي.. حينما فاجأتنا أمي بقلادتين على شكل هلال أنا وأختي، كنا في غاية السعادة وقتها، قالت لنا أننا قمُرها الذي يضيء حياتها.. لصغر سننا لم نكن مدركين لما شكل الهلال بالتحديد.. لكن بعد ذلك عرفت أنها تقصدنا بالهلالين اللذين يُكونان قمرها المضيء.. ومنذ ذلك الوقت وأنا لا أخلع هذه القلادة أبدا.
لأجده قد بدا متأثرا ثم قال: اعذريني.. لم أكن أعلم أن الأمر بهذه الحساسية.
- لا عليك.. لقد مر على هذا الأمر سنوات عدة، أصبح ذكرى بداخلي.
صمت لهنيهة ثم قال متنهدا وهو يتابع ناصر: إن تغيرات القدر عجيبة جدا يا أميرة.. من كان يعلم بأن شخصا فقيرا مثلي سيدخل إلى قصر مثل قصركم.
- هذا ما أودعه لك الله يا ياقوت.. حتى أنا لم أكن لأتخيل أن أعيش حياة العبيد في تلك الرحلة التي واجهناها.
التفت إلي وقال: ولكن أتعلمين.. إن تلك المفارقات هي من تجعل للحياة معنى، لولاها لباتت حياتنا مملة رتيبة لا يوجد بها أي تغيير.. حتى الأحداث السيئة تعتبر تغييرا.
نظرت إليه أتأمل ما قد تفوه به، ثم قلت: وهل ستتعجب إن قلت لك أنك أكبر تغيير حدث بحياتي.
نظر إلي متحمسا، فتابعت: دوما ما كنت أرى الناس بنفس أشكالهم وطباعهم لا يتغيرون.. لكنك بت لي اللغز الذي لم أستطع فهمه، مجرد أنك مثير للغموض يجعلني أنظر إليك بنظرة مختلفة.
فوجدته يقول: إذن.. كل منا قد أحدث تغييرا في حياة الآخر.
رددت: يبدو كذلك.
ثم قال: ليت التغيير لا يتغير أبدا.
لتعتريني حالة من الشرود، فشعرت وكأني تائهة داخل عينيه، تلك العيون الأشبه بالمغناطيس الذي يجتذبك في لحظة، رغم قلة كلامه ولكن عينيه تبوح بالكثير من الأسرار.. فنظرة واحدة منه تكفيني للاتصال بروحه.
وفجأة انتزعتنا صيحة ناصر حينما قال: نجحت!
ليأتينا ركضا، ثم أنهضنا وقام بامساك يدي ويد ياقوت وسار بنا نحو مكان فريسته، بات يردد في فرح الأطفال: نجحت!
قام ياقوت عندئذ بحمله تعبيرا عن سعادته بنجاحه، ليسجل هذا اليوم كأول تجربة صيد حقيقية لناصر.
كانت راضية جالسة بغرفتها تقوم ببعض المهام، ليطرق الباب فجأة معلنا عن قدوم السلطانة الأم، فنهضت وقامت استعدادا لولوج جدتها.
انفتح الباب ودخلت السلطانة إلى الغرفة باسمة المحيا بشكل يثير الارتياب، ثم قامت بالجلوس على الأريكة وطلبت من راضية أن تجلس في مقابلها.
عندئذ بدأت تقول: كيف حالك يا عزيزتي اليوم؟
راضية ترد: بخير يا جدتي.
سكتت السلطانة لهنيهة ثم قالت باسمة: عندي لك خبر سار.
رفعت راضية حاجبها مستفهمة، لتكمل السلطانة: لقد أتى اليوم مالك التونيا حاكم باتيندا إلى القصر لطلب يدك.

وقعت الصدمة على راضية، وظلت صامتة لمدة تنظر في إكفهرار، بينما باتت تقول جدتها: إن ذلك الحاكم حسن السمعة ولديه صيت عالٍ جدا.. أعتقد أننا لن نجد فرصة أفضل من هذه.
قالت راضية هي تبتلع ريقها بصعوبة: وهل وافق أبي؟
ردت جدتها في اندفاع: بالطبع وافق.. ينتظر فقط موافقتك.
أجالت بوجهها بعيدا تنظر في اللاشيء وجدتها جعلت تقول: اعتملي عقلك يا راضية وفكري.. إن هذا الرجل يعتبر الأفضل من بين جميع من تقدموا إليكِ، غير أن السلطان على علاقة جيدة به لوفائه الكبير للسلطنة، و..
وأخذت تقص عليها مميزات ذلك الرجل، بينما الأخيرة في عالم آخر لا يطرق إلى مسامعها أي من الذي يُقال، إلى أن قالتها بمنتهى الحزم: لست موافقة يا جدتي.
جحظت عينا السلطانة في ذهول، فكيف تجاهلت كل ما يُقال بهذه السهولة!، وظلت صامتة نتيجة دهشتها ثم قالت: ماذا بكِ يا راضية، لم أكد انهي كلامي حتى وجدتك ترفضين، إلى متى ستظلي على هذا الوضع!
عادت راضية تقول بثبات: لأن هذا قراري يا جدتي، لا أريد الزواج.
نظرت إليها جدتها في استهجان قائلة: لا تريدين الزواج بحق، أم تريدين ذلك الشاب الذي لا نعلم من أي مصيبة قد حل علينا.
وفجأة شعرت راضية بهزة عنيفة ترج جسدها، تكاد تسمع ضجيج نبضها، فباتت ترمق جدتها في صدمة والتي استطردت: تظنيني غافلة عما يحدث صحيح؟. أنا أعلم بكل شيء، وأعلم الذي بينك وبين هذا الشاب.. منذ ذلك الوقت حينما دخل علينا ورأيناه كان واضحا على وجهك بشدة.. لهفتك عليه في ذلك اليوم حينما كان يتعارك.. فرحتك عندما علمت بأنه سيدربك.. ألم تكني مدركة لكل هذا؟!
نكست راضية رأسها في استسلام، ثم تابعت جدتها: اسمعي راضية.. أنا لن أقوم باجبارك على أمر معين، ولن أقيدك، فقد وصلتِ للسن الذي يجعلك قادرة على تمييز الصواب من الخطأ.. سأتركك على قرارك.. ولكن تذكري.. أنت وحدك من سيتحمل عواقب هذه القرارات.
همّت بالمغادرة لتتركها وحيدة، تتقاذفها أمواج أفكارها المتلاطمة، فشعرت بأن مخها قد شُل تماما، هل كلام جدتها فعلا صحيح؟. ولكنها على أي حال لا تتخيل نفسها مع رجل سوى ياقوت، مَن غيره ستستطيع إعطاءه كل هذا الحب..
وقتها ربطت على قلبها واتخذت ذلك القرار الذي لن تتراجع عنه أبدا، إن كان الزواج من غير ياقوت فلا حاجة له.

ياقوت

ليلة أمس كنت أتناول الطعام مع رفيقي جعفر، فبتنا نتبادل أطراف الحديث بأمور عادية، وفي منتصف حديثنا وجدته يتطرق إلى موضوع آخر قائلا: هل عرفت ما حدث بخصوص الأميرة التي تدربها؟
توقفت عن تناول الطعام تلقائيا، سائلا باكتراث: كلا، ما الأمر؟
رد: سمعت بأن تقدم لطلب يدها ذلك الحاكم الكبير مالك ألتونيا.
عندئذ شعرت بدمي يتجمد في عروقي، إن ما كنت أخشاه يحدث الآن!
لأسأله بوجل: وما ردها؟

نظر بسخرية وقال: كان ردها بالرفض.. أنا لا افهم كيف لفتاة واعية أن ترفض حاكما مثل هذا! أتعلم، إن هذه الأميرة قد تقدم إليها العديد من العرسان وفي كل مرة كانت ترفض أحدهم، لدرجة أن جميع من في القصر بدأ يشك في سلوكياتها.. إن فتاة مثل هذه بالتأكيد وراؤها فضائح.
لأجد نفسي لاإراديا انقض على رقبته أخنقها بكلتي يدي، صائحا فيه: كيف تتجرأ بقول هذا الكلام على الأميرة أيها الحقير!!
- ياقوت اتركني.. س.. سأموت بين يديك!
تركته أخيرا بعدما كدت أقتله حرفيا، فأنا لن أهدر حياتي من أجل ذلك الأحمق.
وبينما كان يسعل بشدة، هممت بالرحيل وأنا في كامل مراحل عصبيتي، كنت وقتها في حالة تجعلني أفتك بكل من أمامي.
ثم خرجت إلى حديقة القصر، وكانت خالية من البشر نظرا لتأخر الوقت.
فبت اتمشى بين الزروع وانا كاسف البال، حينها عاد ذلك الأمر يشغل عقلي.
لما راضية رفضت هذا الحاكم؟، هل حقا تنتظرني أنا.. أيعقل أن تكون رفضته لأجلي!
أعلم أنها لا تهتم إلا بالجوهر ولا تأبه إلى الفروق الإجتماعية، ولكن ماذا عن أسرتها.. بالتأكيد يريدون لها الأفضل.
يالها من معضلة.. ماذا أفعل حيال هذا.
أنا لن أنتظر ذلك اليوم عندما أراها مع رجل آخر، لن أقوى على رؤية هذا المنظر أبدا، طالما كلانا نحمل نفس المشاعر ما الذي يحول دون ذلك إذا!
هيا ياقوت تحرك.. قف أمام السلطان واطلب يد الأميرة منه ولا تفكر في الرد، حاول وتقدم وإن كان في مهب الريح.
ومرّت تلك الليلة بعدما اتخذت قراري الأخير، وبفارغ الصبر انتظرت إلى أن حل الصباح.
فأسرعت بتجهيز نفسي، ثم خرجت من غرفتي قاصدا جناح السلطان؛ فمكانتي تسمح بالولوج إلى هناك.
لأصل إلى وجهتي في دقائق بسيطة، ولكن سبقتني إحدى الخادمات عندما رأيتها تُدخل طعام الإفطار إلى السلطان، مما يوضح أنني سأضطر الانتظار لدقائق أخرى.. لا مشكلة.
ومكثت انتظر على مقربة من الغرفة دون أن يلاحظني الحرس الواقفون، خلالها كان عقلي يحضر الكلام الذي سأقوله أمام السلطان ويعتريني توتر غريب لم أشعر به من قبل.
ثم أحسست بمرور الوقت فيما يسمح لي بإمكانية الدخول إلى الجناح.
عدلت من هندامي واتجهت مقبلا نحو جناح السلطان، فسمح لي الحراس وفتحوا الباب، ثم دلفت وكلي حماس لأفاجأ بالسلطان مُلقى على الأرض يستفرغ.

في جو مشحون بالقلق والتوتر يقف أفراد الأسرة الحاكمة ملتمين حول تخت السلطان يتوسطهم الطبيب، بينما كان السلطان فاقدا الوعي.
أخذ الطبيب يجري الفحوصات اللازمة على السلطان، وقد بدا عليه الارتباك، لتسأله السلطانة: ما الأمر يا حكيم، كيف هي حالة السلطان؟
أجال الطبيب بوجهه عن الجسد الهامد ونظر إليهم قائلا: إن السم الذي تناوله جلالة السلطان من النوع الفتاك.. لقد انتشر بشكل كبير في الجسم وأصبح من الصعب السيطرة عليه.. لقد أعطيته بعض الأدوية لوقف مفعول السم ولكن الأمر بيد الله.. سأبقى هنا بالقرب من الجناح لحين أن تستقر حالة السلطان.

استأذن راحلا، وبقيت تلك الغمامة تغطي المكان، قطعها غياث الدين بقوله: يجب أن نستعلم من هؤلاء الحرس الواقفين عن شكل ذلك الشخص الذي أدخل الطعام إلى السلطان.. بالتأكيد يوجد من وكله بهذا.
قالت السلطانة باكية: من هؤلاء الخونة الذين حاولوا قتله!
عندئذ كان ياقوت لايزال يتذكر وجه تلك الخادمة ولكنه لاذ بالصمت لحين أن تستقر حالة السلطان.
أما راضية فكانت تعلم تمام العلم من قام بهذه الجريمة، لا يوجد غيرها بالطبع من يُحدث الكوارث بالقصر.
لكنها لم تكترث وقتها لأي من هذا بل باتت ترمق أباها الطريح في صمت.
قال غياث الدين إلى السلطانة: مولاتي، أرى بأننا يجب أن نترك السلطان الآن يستريح إلى أن يأتي الحكيم مرة أخرى.
وافقته السلطانة الرأي ثم أمرت الباقية بالخروج، لكن راضية أعرضت وأصرت أن تبقى بجانب والدها.
ثم غادروا جميعا الغرفة باستثناء راضية، حينها قامت بجذب مقعد وجلست بجانب تخت السلطان.
عادت ترمقه بنفس ذات النظرة، غير مصدقة أن أباها الذي تراه كالجبل راقد في وهن كالجثة بلا روح..
ثم بدأت تخاطبه.
- أبي، هل تسمعني.. أنا راضية ابنتك، ألن تنهض؟، كلنا بانتظارك.. أرجوك انهض، لا أتحمل رؤيتك بهذا الوضع.
بدأت الدموع تنحدر على خديها، ثم عادت تقول: كنت تقول لي دائما بألا استسلم أبدا، مهما احتدمت الظروف واشتدت عليكِ لا تستسلمي.. لما إذن أراك تستسلم اليوم؟، هل ستدعهم يهدون صرحك يا أبي؟. يجب أن تنهض وتقاوم، انهض من أجلنا.. انهض من أجل السلطنة والشعب، لا تتركنا وترحل.
أمسكت بيد والدها وأماءت بجبينها عليها وأخذت تبكي بكاءا غزيرا كالمطر بعد عام من انقطاعه.
ولكن قطعت صوت بكاءها تلك الكلمة الواهنة: راضية.
رفعت رأسها في مفاجأة، لترى أباها ينظر إليها مبتسما وهو في كامل عجزه.
قبلت يديه فرحة قائلة: كنت أعلم بأنك ستنهض.. سأنادي الجميع.
أوقفها عن فعلتها قائلا وهو يكاد يلتقط أنفاسه: كلا.. أريد أن أخبرك بأمر هام.
نظرت في استفهام، ثم أكمل بكلمات متقطعة: أريد أن أوصيكِ على السلطنة.. قبل رحيلي.. إياك أن تدعي الحكم في أيدي أحد من أبنائي.. لا أحد منهم يصلح.. احذري.. وحافظي على جدتك وشادية.. وناصر.
قالت هي تبكي بنبرة متهدجة: لن ترحل يا أبي، ستكون بخير! ستنهض من جديد وتحكم السلطنة.
ابتسم وقال: راضية.. اسمعيني يا بنيتي.. لقد حان موعدي.. هذا ليس بيدي.. لذلك أذكرك بالسلطنة.. ستجدين عند غياث الدين كل شيء، لقد أمرت..
نظرت إليه تهز رأسها مشجعة أن يستكمل كلماته، ثم تابع بأقصى صعوبة: .. أمرت.. بجعلك..
وفجأة وجدته يتشنج لينطق الشهادة وبعد ذلك يخلد في سبات عميق، بينما هي باتت تصيح: كلا.. كلا، انهض يا أبي! انهض! أبيييييي!!!

(١٤)

في مطبخ القصر:

كان مطبخ القصر زاخرا بالخادمات ومعهن طباخي القصر المَهرة، وفي وسط الجلبة دخل عليهم ياقوت فجأة لينتبه إليه الجميع.
وبدأ يمشي بينهم بينما كانوا يحيونه، متجاهلا تلك الأسئلة التي عُرضت عليه للمساعدة، فلا يوجد برأسه سوى إيجاد تلك الخادمة.
فأخذ يسير في أرجاء المكان متفقدا وجوه الخادمات، في حين أنهم غدوا يرمقونه في ريبة يشوبها الوجل حيث معروف أن أمراء الفرسان لديهم هيبة خاصة.
وبعد فترة بسيطة استطاعت عيناه اقتناص وجه الخادمة من بين عشرات الخادمات.
لكن بمجرد أن أحست الخادمة أنه يقصدها بنظراته الصارمة، أصبح وجهها ملطخا بألوان الاضطراب وباتت تزدرد ريقها في ذعر واضح.
ثم أشار إليها من بعيد بسبابته آمرها أن تتبعه،و بعدها همّ بالرحيل.
حينها ازداد اضطرابها أكثر وأخذت تسير بارتجاف وكانت تتقفاها نظرات الشك والريبة
وعندما أصبحت خارج المطبخ تماما، وجدته في انتظارها في آخر الطرقة.
فبدأت تخطو نحوه مجفلة، إلى أن أصبحت أمامه، ليأمرها مرة أخرى أن تلحق به، وأخذا يسيران في خط مستقيم بعدما دخلا في ممر السراديب.
ثم استقرا في أحد السراديب الشبه مظلمة، حينئذٍ ارتجفت فرائصها، وغدا صدرها يعلو ويهبط، مما دعى ياقوت ليقول بكل هدوء: اهدئي، أنا لن أؤذيكِ.. كل ما في الأمر هو أنني أريد أن أعرف منكِ بعض المعلومات.
صاحت هي تصارع دموعها: سيدي أرجوك!، أنا لم ارتكب أي شيء.
عاد يقول بنفس ذات النبرة: وهل وجّهت إليكِ أي اتهامات الآن؟. اهدئي وردي على أسئلتي فحسب.
هدأ روعها بعض الشيء، ثم بدأ بسؤالها: أنتِ من أدخل طعام الإفطار إلى السلطان يوم الوفاة؟
نظرت بعينين مرتعشتين، ليقول: أجيبي، لا تخافي.
ردت بصوت مهزوز: أجل سيدي.
- جيد.. من هو الشخص الذي أمرك بذلك إذن؟
اعتملت عقلها وكأنها تتذكر ذلك الشخص، ثم قالت مندفعة: إنها الوصيفة فاطمة سيدي.
أحس أنه سمع بذلك الاسم من قبل، ليتأكد سائلا: لمن تعمل الوصيفة فاطمة؟
ردت: الوصيفة فاطمة هي وصيفة السلطانة تركان.
شرد لثوانٍ يفكر، ثم قال: وهل قالت لك الوصيفة أي شيء بشأن الطعام؟
- أبدا سيدي، فقط أمرتني بإدخاله.
سكت لهنيهة، قال بعدها: اسمعيني جيدا.. لمصلحتك، أرى بأنك يجب أن تغادري القصر في أسرع وقت ممكن وإلا سيكون الخطر كبير عليكِ.
ارتعبت قائلة: ولكن سيقطع عيشي!
- لا تقلقي، سأتصرف في هذا الأمر، ولكن لابد أن تتركي القصر.
أومأت برأسها، ليأمرها بالذهاب، ويبقى بمفرده يحاول أن يجمع الخيوط المبعثرة بشأن تلك القصة.
كان قد مر على وفاة السلطان ثلاثة أيام، انتهت بعدهم مراسم العزاء، ومن وقتها وقد عاد يصطبغ القصر باللون الأسود، فخلال تلك الأيام كان يأتي الزوار ويروحون، لاسيما تلك الجنازة المهيبة التي أُقيمت للسلطان فقد حضرها عدد هائل من البشر تفغر له الأعين.

وبالنسبة لأفراد الأسرة الحاكمة فما كادوا يفرحون حتى انتكست فرحتهم من جديد، أصبحوا بلا سند كالأيتام، خاصة راضية، أثناء تلك الفترة كانت تتواجد إما بغرفة أبيها أو بحديقة القصر، تجلس بمفردها لأوقات طويلة مقاطعة الجميع، كما أنها لم تخرج لمقابلة الناس في العزاء وتكفلت جدتها بكل الأمور.
وذات يوم كانت جالسة بالحديقة كعادتها، وبينما هي شاردة نحو الأفق تفاجأت بياقوت أمامها الذي قال: هل يمكنني التحدث إليكِ؟
أومأت برأسها دون أن تتكلم، فجلس على طرف المقعد بجوارها وبدأ يقول: كيف حالك الآن؟
تنهدت قائلة هي لاتزال تطرق نحو الأفق: كما ترى.. لا جديد.
صمت قليلا ثم عاد يقول: أعرف ما تمرين به، وأنك بحاجة إلى بعض الوقت كي تتعافي من أزمتك.. ولكن يا أميرة في ظل تلك الظروف، لابد ألا نقف مكتوفي الأيدي عما يحدث.
التفتت إليه وكأنها شعرت بأهمية حديثه، فقالت: ماذا تقصد؟
رد: لقد توصلت أمس إلى الخيط الذي سيقودنا لقاتل السلطان.
اعتدلت في جلستها، ثم قالت في لهف: ماذا وجدت؟
- يوم وفاة السلطان، كنت ذاهب إليه لأحدثه في أمر ما.. وعندما كنت سأدخل إلى جناحه فوجئت بخادمة تُدخل له الطعام.. وقتها انتظرت لمزيد من الوقت إلى أن انتهى السلطان من فطوره ثم دلفت أخيرا ووجدت تلك الكارثة للأسف.. ومنذ أن علمنا بخبر تسمم السلطان، وأنا لم أكن منشغلا سوى بكيفية الوصول إلى هذه الخادمة.. وفعلا وصلت إليها.
صمت لبرهة، ثم قال: قالت لي أن الوصيفة فاطمة هي من أمرتها بإدخال الطعام.
ضحكت بحسرة قائلة: تركان إذن.
أومأ برأسه في ضيق، ثم قالت هى: ما قلته ليس مفاجأة ياقوت.. من البداية وأنا أعلم أنها من وراء كل هذا.
قال بغضب نافذ: وصفك لها بالشيطانة لم يكن خطأً أبدا!، ألا توجد سيطرة على هذه المرأة!
ردت في مرارة: للأسف لا، عندما بدأ أبي يشعر أنها السبب في كل المصائب بالقصر، تخلصت منه على الفور.. لقد قتلت رفيقتي ووصيفتي والثالث.. كان أبي.
وقتها لم تستطع تمالك نفسها وعادت تبكي بغزارة من جديد، بينما صاح فيها ياقوت بقوة: انظري إليّ يا أميرة واسمعيني جيدا! ما حدث لن ندعه يتكرر مرة أخرى، البكاء علامة على الضعف، ونحن لسنا ضعفاء.. لن ندعها تقهرنا كما فعلت بسابقينا!
ثم أكمل بجدية بينما هي لاتزال تنشج في البكاء: انظري حولك، توجد جدتك، الأميرة شادية والأمير ناصر ألم تفكري فيهم؟! تركان ستتخلص منا واحدا تلو الآخر إن شعرت باستسلامنا كي يخلو لها الحكم.. لا أحد سيقف بوجهها سواكِ يا أميرة!، أنتِ منقذنا، يجب أن تفهمي هذا!
وفي تلك اللحظة بدأت وصية أبيها تتردد داخل مسامعها، بدأت تشعر بالتداخل الناتج عن كلام ياقوت مع كلام أبيها يتغلغل في أعماقها، وخاصة ذلك النداء الذي لا يتوقف صداه أبدا عن الرنين " لا تستسلمي ".

ليلا في مكان مجهول، كان هناك صف من الرجال الملثمين يمشون على الصخور الخشنة، تقودهم مجموعة من الجنود في قسر.

ثم قام الجنود بطرحهم أرضا ليشكلوا حلقة دائرية، بعدها أزالوا عنهم اللثام، مما أخذوا يتلفتون حولهم يمينا ويسارا غير مدركين أين هم.
وإذ فجأة تظهر بوجهها الخبيث هي وابنها ومن ثم يقفا ماثلين أمامهم بكل جرأة.
فبدأت تتكلم في ثقة وعلى شفتيها ابتسامة الشياطين: مرحبا أيها الوزراء.. عذرا لو أساء جنودي معاملتكم.
هتف أحدهم: جنودك!
- أجل جنودي.. ألا تعرفون أن ثلاثة أرباع جنود وحراس القصر أصبحوا تحت إمرتي أنا؟
نظروا إلى بعضهم البعض في صدمة، ثم أكملت هى: لكنهم مجرد جنود بلهاء لن يجذبهم سوى بعض الأموال.. أما أنتم وزراء القصر يجب أن يتم جذبكم بطريقة تليق بمقامكم.
علق أحد الوزراء ساخرا: كلام فارغ، لسنا بهذه السهولة يا سيدة تركان.
ردت: حقا!
ثم أشارت إلى بعض حراسها تأمرهم باحضار الصناديق المتراصة بعيدا، ليقوموا بحملها على أكتافهم بعد ذلك يضعونها أرضا أمام الوزراء ويبدأون في فتحها.
وبمجرد أن انفتحت تلك الصناديق حتى كاد بريق الؤلؤ والمرجان يُذهب ببصرهم، غير أكوام العملات الذهبية وكأنها جبال من الذهب الخالص!
وبالفعل بدأ يظهر مفعولها وبدأ الكثير منهم تلتمع عيونه كما لو أن لعابهم يسيل رغبةً في الحصول على تلك الكنوز الثمينة.
ثم قالت: ما ترونه أمامكم يمثل أضعاف أضعاف ما كنتم تقتضونه من خزينة الدولة.. معي أنا فقط سأجعلكم سلاطين لا وزراء.
وفجأة صرخ واحد منهم لم تغره هذه المتع: كلا نحن لسنا لقمة سائغة تُباع وتُشترى بالأموال! ما حالكم أيها الوزراء!، كيف أراكم تستسلمون لمتاع الدنيا بهذه السهولة! أنسيتم فضل السلطان عليكم؟!
ولكن يظهر رجل مسن يرد على كلامه: كان يا سعد الدين.
- مجير الدين!
ارتسمت الدهشة على وجوه الوزراء حينما رأوا مجير الدين يقف في صف تركان، والذي أكمل: السلطان التتمش قد مات وانتهى الأمر.. الآن يحكمنا السلطان الأعظم ركن الدين فيروز.
بقى الوزراء يضربون كفهم أخماسا في أسداس، بينما ضحك ذلك الوزير المخلص متهكما وقال: توقعتها منك أنت بالذات يا مجير الدين، من البداية وأنت تكن الكره والحقد للسلطان.. ولسوء نيتك كان يوكلك بمهام تافهة لا تليق بوزير عالي الشأن.. بُعدا للخونة مثلك!
وفجأة انطلق السهم يرشق في صدر الوزير المغبون، ليسقط صريعا أمام الجميع، فتتبعه تركان بقولها: وهذا جزاء كل من يتآمر علينا ويقف في وجهنا.. من اليوم يتعهد إلينا كل فرد منكم على اعترافه بالأمير ركن الدين سلطان على دلهي.. ومن يفكر في التخلف عن العهد سيلقى مثل ما لقى هذا المشؤوم!
حينها أخذ الجميع يتبادلون النظرات في ذعر بالغ، ليعلنوا بالنهاية ولاءهم لتركان وركن الدين.
- ارحميني يا أميرة.. سأموت!
باتت ترددها بينما كانت راضية تغطّس وجهها في برميل الماء ولا تبالي، تحاول شفي غليلها الكامن لأوقات طويلة، ولكنه الجزء الأصغر من الانتقام إلى أن يحين موعد شأفة الشر الكبرى.

فأخذت تغمس وجهها داخل الماء هي قابضة على شعرها بقوة كبيرة، كادت تودي بحياتها لولا ياقوت الذي قال: كفى يا أميرة.. إن موتها ليس مرادنا الآن.
قالت الوصيفة المعَذبة باكية هي تلتقط أنفاسها بصعوبة: أتوسل إليكِ يا أميرة راضية.. لدي أطفال أيتام.. لا أريد لهم أن يتشردوا.
لتخلّصها بعنف جعلها ترتمي مرتضمة بالحائط، فأخذت تتأوه متألمة هي تلهث.
ثم قالت راضية: اسمعي يا فاطمة.. أولادك سيظلون معك إذا ساعدتنا وأخبرتنا بكل أسرار وخطط تركان.. أما إذا بقيتِ صامتة وأتعبتنا، فانسي عندئذ أن لديك أبناء.
ردت فاطمة بقلب مرتعش: أولادي لا! سأتكلم، ولكن لا تأخذوا مني أولادي.
- جيد.. لتتكلمي الآن.
بدأت تقول هي تكابد أنفاسها: السلطانة تركان خططت لقتل السلطان.. حتى تشرع في جعل ابنها سلطان على البلاد، وأيضا عن طريق الرشوة والتهديد.. استطاعت ضم أغلب حراس وجنود القصر إلى صفها.
صمتت فجأة، مما صاحت بها راضية: لما توقفتِ عن الكلام!
ردت هي تبكي بوجل: أغشى أن تقتلني السلطانة تركان وتقتل أبنائي.
- لا تقلقي، لا أحد يعلم طريق هذا المكان.. هيا واصلي الحديث.
استطردت فاطمة: وبعد أن ضمت الجنود والحراس، أصبح هدفها ضم الوزراء أيضا.. وبالتدريج ستضم جميع من في القصر، ومن سيعرض عنها ويقف في وجهها ستتخلص منه على الفور.. وبحلول بعد الغد ستبدأ في عمل مراسم تتويج الأمير ركن الدين.
نظر راضية وياقوت إلى بعضهما البعض في صدمة، ثم أمرت راضية ياقوت بتقييد فاطمة بالأغلال، بعدها خرجا ليبدأ بينهما الحديث.
- قالت بعد الغد ستكون المراسم.. معناها أن لا يوجد أمامنا سوى الغد.
أطرقت راضية تفكر ثم ردت: يجب أن نحاول بقدر الإمكان تجميع الباقية ممن لم ينضموا إليها بعد بالقصر.. وأيضا رؤساء الطوائف لابد من ضمهم إلى صفنا قبل أن تتجه إليهم، وإن استطعنا تجميع عدد من العامة سيكون الوضع أفضل.
سأل ياقوت: وماذا عن الوزراء؟
نظرت في وجوم قائلة: لا أعلم، ولكن من المفترض أنهم لا يتقبلون ركن الدين.
- لكنها قالت أنها تتعامل بالرشوة.. ربما تكون قد وصلت إليهم بالفعل ورشتهم.
عاد الهم يعتيرها ثم قالت: إنه لأمر محير.. لكن على أي حال تنصيب ركن الدين كسلطان لن يُعترف به سوى بموافقة الوزراء جميعهم.
قال ياقوت محاولا رفع عزيمتها: ولكن إن استطعنا ضم الكثير من الحلفاء، ربما لن يُلقى بال لرأي هؤلاء الوزراء.. أليس الأهم هو كلمة الشعب نفسه؟
نظرت إليه بتفهم، ولكن داخلها لا يحدثها بالخير أبدا.

راضية

وها أنا اليوم أبدأ أولى خطواتي في تنفيذ وصية أبي، لكن ثمة بعض الأمور المعقدة التي حدثت، ليلة أمس راودنا خبر مجيء أخي الأمير معز الدين بهرام شاه إلى القصر، بالطبع جاء لينال نصيبه من الترشح للحكم، على الرغم من تلك السنوات التي قضاها بعيدا عن السلطان وعن دلهي، لكن طالما الأمر يختص بالعرش فالآن تذكر أن كان لديه والد يجب أن ينال إرثه منه، كم أمقت فلسفة الأمراء القذرة هذه.

على أي حال هم لا يصلحون، فقد حذرني أبي منهم تحذيرا شديدا، إذن مهمتي قد انقسمت إلى اثنتين الآن.
لكن في البداية يجب أن نتخلص من الجزء الأكبر، فمهما كان معز الدين لا يمتلك حاشية ضخمة وباستطاعة تركان الإطاحة به بأسهل الطرق.
وعلى صعيد آخر، هناك أمر عجيب يثيرني، منذ يوم وفاة السلطان وقد اختفى الوزير غياث الدين، حتى أسرته قد صرحت بهذا ولا أحد يعلم أين طريقه.
هل تكون قد تخلصت منه تلك الشيطانة فعلا! لا أحد يعلم، لكن بالتأكيد كان سيساعدنا كثيرا، خاصة أن أبي قد ذكره في وصيته وأن معه شيء ما لم يكمل السلطان الحديث عنه.
لنشرع أنا وياقوت في تنفيذ مهمتنا، وكانت المهمة الأولى هي الانتشار بالقصر في سرية، وجس نبض الجنود والحراس، وبالفعل تمكنا من كشف من يتبعون تركان ومن لا يتبعونها، لكن لسوء الحظ وجدنا كما قالت فاطمة المعظم ممن يتبعونها، لذا استطعنا بالكاد تجميع عدد بسيط منهم.
ثانيا، قمنا بالتوجه إلى رؤساء الطوائف، ووجدنا عندهم اقبال كبير على الوقوف ضد ركن الدين، فمنذ حادث حصار غواليور، وجميع من في السلطنة قد تكونت لديهم فكرة سيئة عن ركن الدين.. وهذا في صالحنا بالطبع.
ثم نأتي أخيرا إلى مهمة الوزراء، حينها سألني ياقوت عن سبب تأخيري لهذه المهمة، فصرحت له بقلقي وعدم ثقتي من الأمر، لذا من المنطقي أن نضمن أولا من لا يقع عليهم الشك.
وبدأنا ننفذ تلك الخطة، وكنت أنا من يجب عليّ القيام بها، فاجتمعت مع أغلبهم تقريبا، وجعلت أقصص عليهم أمر تولي ركن الدين الحكم وحجم الخطر الذي سيمثله، لأبقى مرتقبة ردة فعلهم.
فظلوا يتبادلون النظرات بطريقة أحدثت القلق بداخلي، وكأنهم متفقون على شيء ما.
عندئذ تسللت إليّ الشكوك بأن تركان قد تكون رشتهم بالفعل وأخضعتهم إليها، ولكن وجدتهم يقولون في نفس واحد: نتفق معك يا أميرة.
عجبت من ردة فعلهم، فلو حقا يدعمونني، لما إذا تأخروا في الرد وظلوا يرمقون بعضهم البعض بطريقة مريبة!، غير أن الكلام لم يصدر منهم بتلقائية.
وانتهى الحوار حينها على الاتفاق وبهذا تكون قد انتهت المهمة، ثم عدت إلى ياقوت مرة أخرى حيث ينتظرني وكانت الشمس وقتها قد غابت، فسألني بلهف: ما الأخبار؟
- اتفقوا معي.
تهللت أساريره قائلا: جيدا جدا.. ولكن لما تبدين متضايقة؟
- لا أعلم ياقوت.. أشعر أن هؤلاء الوزراء يخدعونني، وأنهم بالفعل مع تركان.
- وما الذي يدعوكِ لهذا الشعور؟
فأخبرته بما رأيت، ليبقى مطرقا ثم قال: اسمعي يا أميرة.. طالما أن قلبك يقودك إلى هذا فثقي به، من واقع تجربتي معك استشعرت فيكِ إجادة تفرس الناس وقراءة ما يجول في خاطرهم.. ثقي بحدسك دائما، إن لديكِ عقلية قائد.
بقيت أتمعن ما قاله بالرغم من أنه لا يمثل حلا للمشكلة، ولكنه يتصادف مع ما قاله لي أبي منذ سنوات، فدائما كان ينبهني بأن أثق في حدسي.. وبالفعل تحقق هذا الأمر مع تركان.
ثم قلت له: من الجيد أن قمت باحتياطاتي، لم أخبرهم عن تكويننا لحلف ضد **تركا**، سألتهم عن رد فعلهم نتيجة لما يحدث بالقصر فقط.

- جيد.. ولكن في حالة تخلفهم عنا لا تقلقي، لقد كونا حلفا لا بأس به.. سنجتمع كلنا غدا في الموعد المحدد حسب كلام الوصيفة، والله ناصرنا بإذن الله.
أومأت برأسي في إطراق، وبعدها قلت مندفعة: صحيح تبقّى فاطمة!

في غرفة تُركان:
- مولاتي، سيدي مجير الدين يستأذنك للدخول.
تبادلت نظرات الريبة مع ابنها ثم قالت: دعيه يدخل.
دلف مجير الدين، وألقى التحية، ثم قالت تركان بعدما دعته للجلوس: ماذا هناك مجير الدين؟
- مولاتي، من الواضح أن راضية بدأت تعد العدة ضدك.
ثم بدأ يقص عليها ما حدث مع الوزراء، ليضحك ركن الدين بسخرية قائلا: ومن سيقف بجانبها وكل القصر تقريبا أصبح في يدنا.
ردت تركان: لن تلحق حتى في أن تعد العدة، لم أخبركم بعد بما قررت بشأنهم.
بقى كل من ركن الدين ومجير الدين ينظرون بترقب، فاستطردت: الجنود الآن يقومون بمهمتهم.
وصل راضية وياقوت إلى حيث تتواجد فاطمة، ثم فتحا الباب ودخلا، ليتفاجآن بفاطمة ملقاة مذبوحة تغطي دماؤها الأرض.
صرخت راضية: عرفوا مكاننا!
ثم تنحت جانبا عند أحد الأركان، وجلست القرفصاء واضعة رأسها بين راحتي يدها، ليتبعها ياقوت وينزل إلى مستواها، ثم رفعت رأسها وبدأت تقول بصوت موتور: لقد كانوا يتبعوننا منذ البداية يا ياقوت.. إنهم يراقبوننا.
نظر في ضيق ولم يستطع أن ينطق بكلمة فلقد أصبحت الصورة واضحة، ثم قالت هامسة مرتقبة: وربما يكونون بالخارج ينتظروننا.
وظلا يرمقان بعضهما البعض في عدم تصديق، لينفتح عليهما الباب فجأة..

(١٥)

بدأت تفتح عينيها بالتدريج، غير متذكرة شيئا مما حدث، فكان رأسها يؤلمها إلى حد كبير جدا.
وأخذت تجيل ببصرها أنحاء ذلك المكان الذي لم تتبين بعد ماهيته لكنه يبدو كئيبا كظلمة الليل.
وأيضا انتبهت لأشخاص يبادلونها الإقامة..
مهلا!
عندها عادت إليها الذاكرة، حيث تذكرت ذلك الحارس قبل أن يضربها هي وياقوت على رأسيهما.
إنها بسجون القصر!، وهؤلاء الأشخاص هم جدتها وأخيها وأختها!
وسرعان ما انتفضت من ركنها، ذاهبة إليهم توقظهم حيث كان من الواضح أنهم غائبون عن الوعي أيضا.
فبدأت تنادي على جدتها، والتي أفاقت أخيرا، وبمجرد أن رأت راضية صاحت: راضية! حبيبتي هل أنتِ بخير؟
- ماذا حدث؟، من جاء بكم إلى هنا؟!
عندها كان شادية وناصر قد أفاقا أيضا، فتقول جدتها هي ترتعش: كنا مجتمعين معا بشكل طبيعي يا بنيتي، وفجأة دخل علينا الحراس واقتحموا المكان.. ثم قاموا بخبطنا على أدمغتنا.

قامت راضية بالمسح على رأسها في سَأم، ثم جلست على الأرضية وبدأت تقول: تركان من فعلت هذا.. تريد الخلاص منا حتى لا يزعجها أحد وتخلو بالحكم وحدها.
ردت السلطانة: استحالة!، الوزراء لن يسمحوا بهذا أبدا.
ضحكت في حسرة قائلة: لقد اشترت تركان الجميع يا جدتي.. اشترت الوزراء والجنود.. اشترت القصر كله.
نظرت الجدة في أسى ولم تتحدث، ثم علقت شادية: وما العمل، هل سندعها تبيعنا وتشترينا ونحن جالسون!
أسندت راضية رأسها إلى الحائط ولم ترد، أو بالأحرى تحاول الهرب من سؤال أختها، فلا تريد سماع ما يذكرها بفشلها وإخفاقها في تنفيذ وصية والدها.
ثم لم تجد سوى أن تغمض أجفانها، وتستسلم للنوم.. فهو المنفذ الوحيد من هذا الكابوس.

أتى يوم جديد، إنه اليوم الذي باتت تخطط له تركان منذ أن جاءت إلى القصر، فقد انزاحت أكبر همومها، مات السلطان، واشترت الوزراء، سجنت راضية وعائلتها.
لتنفتح البوابة الضخمة، بوابة القاعة الرسمية، وتبدأ تعبر من خلالها هي وابنها.
حينها كانت ترتدي فستانا ذا ذيل طويل يلامس الأرض، تملؤه حبات اللؤلؤ المتراصة، لاسيما الحلي الثقيل المطوق لرقبتها وأرسغها.. فهو يوم عيدها ويجب أن تظهر بكامل تألقها.
وظل يسير الثنائي في خيلاء وعلى جانبيهما الوزراء والفرسان يرمقونهما.
ليرتقي ركن الدين إلى مكان العرش ويكون رجال الدين (المرتشون) في انتظارهم.
فجلست تركان بالقرب منهم ثم همست إلى أحد حراسها آمرته بأن يكثر من أعداد المنادين في كل ركن بالقصر عندما يُعلن عن تنصيب ركن الدين كسلطان؛ وهذا ليسمع من في بالها النداء جيدا جدا.
حين ذاك بدأ رجال الدين يقيمون المراسم اللازمة لتنصيب السلطان، فاستهلوا بتلاوة بعض الآيات.
واستمرت التلاوات لمدة قصيرة، قطعها ذلك الهجوم الذي حل فجأة.
فانفتحت البوابة عنوة، واندفع من خلالها عدد كبير من الناس يقودونهم رؤساء الطوائف، حان الموعد المنتظر.
لتعم الجلبة أرجاء القاعة، ثم صاح كبيرهم: يا رجال الدين.. نحن لسنا موافقين على تولية الأمير ركن الدين حكم السلطنة.
وصاح آخر: أجل، نحن حلفاء الأميرة راضية التي سجنتموها ظلما.. ونيابة عنها، نحن نرفض هذا التنصيب.
أخذ يهتف العامة من خلفهم مرددين: لا للأمير ركن الدين.
ثم صاح أحد الوزراء: ليس لكم عندنا شيء أيها الرعاع.. هيا غادروا المكان في الحال وإلا ستموتون كلكم!
لم يأبه أحد لهذا التحذير، وواصلوا هتافاتهم بأشد حماس، لكن لم ينتبهوا لسيل الجنود المندفع خلفهم والذي يفوق عددهم إلى الضعف، لتنغلق البوابة، وتبدأ حينئذٍ تلك المجزرة الدامية.
فشرع الجنود يذبّحون العامة واحدا تلو الآخر، غير عابئين بهذه الأرواح المهدرة، فكله تحت أمر تركان.
أما رؤساء الطوائف لم يقتلهم الجنود بل ألقوا بهم في غياهب السجون حتى يذوقوا طعم الذل.

وفي مكان آخر، كانت لاتزال راضية تجلس مع أسرتها داخل الزنزانة، وقد غطى الشحوب وجوههم، فلم يذوقوا الرمق منذ ليلة أمس.
وإذ فجأة تنتبه راضية إلى صفوف الرجال المارة هناك، لتهرع نحو القضبان وتصدم بأن هؤلاء الرجال هم نفسهم رؤساء الطوائف!
وأثناء سيرهم، استطاع واحد منهم التملص من الجنود والوصول إلى زنزانة راضية، فبدأ يخاطبها على عجل: انظري ماذا فعلوا بنا يا سمو الأميرة، لقد جعلوا يذبّحون في عامة الناس بأشد فظاظة! وتحول المكان إلى بحر من الدماء، لقد أُهدر دم المظلومين اليوم يا أميرة!
وما كاد ينهي جملته حتى انقدّت عليه يد أحد الحراس تلقي به بعيدا، بينما ظلت هي ممسكة بالقضبان تتابع تحركاتهم في اكفهرار بعد ما قد سمعت.. لا يوجد في خاطرها سوى أن ذنب هؤلاء البشر في رقبتها.
وبعد فترة وجيزة أنشأت تتعالى النداءات معلنة عن تنصيب السلطان ركن الدين سلطان على دلهي بشكل رسمي.
وتباعا بدأت يداي راضية تنزلقان حول القضبان تدعواها للسقوط شيئا فشيئا، إلى أن التصقت بالأرض.
وقتها أخذت تجهش في البكاء، لاكمة تلك القضبان اللعينة في غيظ وقهرة.
فلم تجدي معها محاولات التهدئة والتربيت، وواصلت البكاء مرددة داخل نفسها: سامحني يا أبي.

في اليوم التالي:

- ما أجمل إطلالتكِ اليوم يا سلطانة.. ماشاء الله كالبدر المستنير !
قالتها بينما كانت تبخر شعر تركان أمام المرآة، فابتسمت إليها تركان قائلة: تملقكِ ومحاولات التقرب هذه لن تفيد معي يا سليمة.
انقلب وجه الوصيفة، فعادت تقول تركان بنفس الابتسامة الباردة: إن مفتاح ثقتي هو الولاء المطلق.. قبلك كانت فاطمة الوصيفة الأقرب لدي والحاملة لكل أسراري.. ولكن فوجئت بخيانتها لي، تتوقعي، ماذا كان مصيرها إذن؟
قالت الوصيفة بارتجاف: ماذا؟
ردت تركان بعد أن جحظت عيناها في شكل مخيف: القتل!
حينها ازدردت الوصيفة لعابها في ذعر، وبقيت مسلطة عينيها على ما بيدها فقط، لا تقوى على النظر في عين هذه المرأة.
وبعد أن انتهت تركان من تجهيز نفسها، أمرت الوصيفة قائلة: أخبري الحرس أني أصبحت جاهزة.. سوف أقوم بعمل نزهة اليوم داخل السجون.
ومن داخل السجن، كانت تعم حالة ركود تام، فمنهم من جالس واضع يده على خده يتأمل في اللا شيء، ومنهم من يغط في نوم عميق، وآخرون يصارعون آلامهم.
لتسري رجة بالمكان نتجت عن صوت المنادي حينما صاح: نعلن حضور جلالة السلطانة شاه تركان.
وعلى إثر هذه الرجة أفاق كل نائم، وفزع كل مكلوم، بالإضافة إلى راضية وأسرتها.
دخلت تركان من بوابة السجن، هي ترتدي نفس تلك النوعية من الفساتين ذات الذيل الطويل، وبدأت تسير بطرقة المدخل ومن خلفها حرسها وخادماتها.
فأخذت تمر على كل زنزانة تنظر لكل من بداخلها نظرة استحقار وتعالٍ، فهذه هي جُل متعتها.

لتصل إلى زنزانة راضية، حينها توقفت وأوقفت كل من معها، ثم قالت بابتسامة تهكمية: زنزانة الأسرة الحاكمة! لابد إذن أن نقف احتراما لها.
ضحك من خلفها ساخرين، حينها ظلت راضية أدراجها ولم تحاول النظر في عيني تركان، بينما نهضت جدتها ووقفت عند القضبان، قائلة بوجه صارم: ماذا تريدين؟
- لا شيء.. جئت أزوركم، أرى كيف حالكم بعد أن ألقيتوا داخل السجن.
نهضت شادية ووقفت إلى جوار جدتها، ثم قالت: لا نريد منكِ زيارة.
ضحكت تركان وقالت ناظرة إلى راضية: مرحبا يا أميرة راضية!، لما لم تأتِ وتقفي بجانب جدتك وأختك؟
مكثت راضية في ركودها متجاهلة ما
يحدث، بينما قالت تركان: صحيح يا سلطانة.. أريد إخباركم بأن السلطان ركن الدين ابني.. قد خرج اليوم يطمئن على أحوال شعبه ويرى مطالبهم، أرأيتِ كيف هي السلطنة في يد أمينة!
ردت السلطانة في حزم: مهما طال الزمن، فحتما سيأتي يوم يرى فيه الظالمون عواقب ظلمهم.. ابنك لن يستمر في هذا المنصب إلى الأبد، فلا ظلم يدوم ولا ظالم يخلد في هذه الدنيا.
عندئذٍ تحول وجه تركان واقتربت من الزنزانة أكثر حيث تقف السلطانة، قائلة بصوت خفيض ثعباني: لقد كان من السهل عليّ قتلكم والتخلص من ألسنتكم القذرة! ولكن أتعلمين لما لم أفعل هذا يا سلطانة.. حتى أراكم تتعذبون أمامي كل يوم، أريد أن أرى الجوع والذل ينهش في لحمكم إلى أن تصبحوا بقايا مفتتة لا قيمة لها.. وبهذا ستعرفين من هي شاه تركان.
بقيت السلطانة ترمقها في برود بينما كانت تقول هذه الكلمات، لترد السلطانة بالنهاية: أجل أعرفها.. راقصة عاهرة وستظل عاهرة.
احمرت عينا تركان شررا، ولكنها كظمت غيظها وأشاحت بوجهها عنها، بعدها أمرت حرسها بالعودة، فهمت بالرحيل ولم تكمل جولتها.

بين الأسواق:

كما جرت العادة بالأسواق العامة: التجار ينادون لبضائعهم، النساء تغزل الأنسجة، الأطفال يلعبون في الطرقات، إلخ..
جميع الأنشطة تتم بشكل طبيعي، ولكن ما كان غير طبيعي هو تعابير وجوه الناس.
فذاك التاجر واقف واجم الوجه، يحاول قدر المستطاع جمع ما يؤمن بيته، فلا أحد يعلم ما يخبئه الغد في ظل تلك الظروف.
أما نساء الغزل، منهم من كانت تبكي تحسرا على فقيدها الذي راح في تلك المذبحة، وغيرهم الكثير..
الجميع كانت تصيبهم التعاسة والكدر، لا شيء يدعوهم للعمل سوى الزاد وتأمين عيشهم.
وإذ فجأة يدخل فوج من الأحصنة المندفعة، تقدح الأرض وكأنها لا ترى شيئا أمامها، ليبتعد الناس عن طريقها بسرعة في فزع.
وأثناء تقدم الفوج، بدأ يلاحظ الجميع ركن الدين فوق فرسه، فكان متواجدا في منتصف الفوج بالتحديد.
عندئذٍ أسرع الصبية والنساء يختبئون في بيوتهم، وعم الذعر في جميع أنحاء المكان.
ليستقر الفوج بعد ذلك تاركا مساحة واسعة لركن الدين.
فبدأ يتمشى بفرسه في تعالٍ وعلى وجهه ابتسامة خبيثة، يتلذذ برائحة الخوف التي تنبع من وجوه الناس.
ثم قال بصوت مرتفع: ماذا بكم أيها الناس؟، لما استشعر الخوف يكاد يقفز من وجوهكم؟

ظل الصمت مخيم، ليكمل: لكم الحق في هذا، أنا أيضا شعرت بالاضطراب عندما رأيت السيف ينغرز في صدر هؤلاء المعارضين غرزا.. لذا، من الضروري أن نخاف ونحذر.
بعدها رد أخيرا أحد الرجال الطاعنين في السن بصوت جهورٍ: نحن لا نخاف منك يا ركن الدين!
التف ركن الدين بفرسه استجابة للرجل والذي أكمل: إن دم هؤلاء الشهداء الذين قتلتهم أشرف ألف مرة من دمك النجس!
هرع الحراس في القبض على الرجل ولكن أوقفهم ركن الدين، ثم نزل من أعلى الفرس وبدأ يسير تجاه الرجل قائلا: تعجبني جرأتك أيها العجوز.. تلفظ اسمي بدون لقب سلطان وتصفني بالنجس في وقت واحد.. هذه قمة الشجاعة!
ثم التفت يقابل الناس، هاتفا: أرأيتم الشجاعة أيها الناس! تعلّموا منه!
وأخذ يضحك في سُخرة، ليقوم في طرفة عين بنزع سيفه من غمده وغرزه في صدر العجوز مباشرة.
عندها تعالت الصرخات، ومنهم من جرى نحو جثة العجوز صائحا: أبي!
ثم عاد ركن الدين يعتلي فرسه، وهتف: أظن أنكم عرفتوا أسلوبي الآن.. من يفكر فقط في التجرؤ على الوقوف بوجهي، سيكون مصيره القتل حتما.
ولم يكتف بهذا بل وصلت به
الحقارة لأن يأمر الجنود باقتحام البيوت وجلب الفتيات عنوة.
لتتعالى أصوات الناس داعين عليه بالموت والهلاك، بينما لم يكترث هو لصياحهم، فأخذ الفتيات ومن ثم انطلق يعدو ذاهبا.
ويُسجل هذا اليوم كعلامة من العلامات السوداء في تاريخ السلطنة.
في دُجى الليل، حيث يغطي السواد المكان، سطع نور ينبثق من جوف الظلام، يزداد توهجا كلما اقترب شيئا فشيئا.
ليتراءى إليها ذلك النور قادم من بعيد، يدنو نحوها بهالته المضيئة.
فنظرت مضيقة عينيها بعدما انتزعها من نومتها، وما كادت تتضح هيئته حتى اندثر النوم وطار من أجفانها.
- أبي!
استقر أمامها، واقفا وعلى وجهه النير ابتسامة طيبة.
لتهرع إليه، وأمارات الدهشة تعلو وجهها، قائلة: أبي متى جئت!
رد بتؤدة: أنا معكِ دائما يا عزيزتي.
بدأ الدمع يتسلل منها، قائلة منكسة الرأس: سامحني يا أبي.. لم أستطع تنفيذ ما وصيتني به.
رفع رأسها قائلا: لم ينتهي الوقت بعد، مازالت الفرصة أمامك.
- كيف!
رد: بقلبك وعقلك ستجدين الحل.. ابحثي وتمعني جيدا، سخّري كل ما يحيط بكِ لمساعدتك.. وأنا واثق من أنك ستهتدي إلى الطريق الصحيح.
ظلت تنظر في ذهول، ليكمل مربتا على وجهها: والأهم.. لا تدعي اليأس يتمكن منكِ، راضية لن تيأس.. راضية ستخرج وتصلح كل ما أفسده الجميع، فقط بقلبك وعقلك تستطيعين تغيير الواقع.. وكما كنت أقول لك دائما.. لا تستسلمي أبدا.

ثم رفع يده مودعا، كي يتلاشى النور ويعود الظلام يبتلعه في جوفه...
استيقظت فجأة شاعرة بضجيج دقات قلبها، فباتت تنهج بشدة، لتتناول قدر الماء بجانبها وتبدأ في ارتشافه.
بعدها عادت تسترجع ما رأت في منامها قبل قليل، لازالت تذكر ما قاله والدها وكأنه قد حُفر على جبينها.
فأخذت تحلل كل كلمة، ماذا كان يقصد بأن تبحث وتتمعن؟
وبعد أن جمّعت أفكارها وربطتها ببعضها البعض، توصلت أخيرا لغرض أبيها، فهو يدعوها لأن تبحث وتتمعن في المكان كي تجد وسيلة تستطيع الهروب منها خارج السجن.
وبدأت بالفعل تجيل بعينيها في الأرجاء إلى أن انتبهت لتلك الفتحة المستطيلة القابعة بالأعلى، لكن لسوء الحظ كانت تتوسطها ثلاثة من القضبان الحديدية.
عندئذٍ عادت تتفقد المكان للبحث عن أي أداة تساعدها في حفر الصخر حول القضبان علّها تجدي نفعا بالرغم من صعوبة المهمة، ولكن لحسن حظها لم يكن أحد من الحراس واقف عند الزنزانة في ذلك الوقت.
وبعد فترة قصيرة اهتدت إلى بعض الاحجار المكومة في طرف الزنزانة، فأسرعت تجمع القطع حادة الحواف منها، ومن ثم أصبحت جاهزة لتقوم بمهمتها.
فقامت بوضع القطع بين نطاق خصرها كي تستطيع تسلق الجدار، وأنشأت تتسلقه، والذي كان عاليا بعض الشيء لكنها لديها خبرة سابقة في التسلق.
لتصل إلى الفتحة أخيرا، ثم أخذت تعين سمكها لترى إن كان باستطاعتها النفاذ من خلالها أم لا.
ثم ثبتت يدها بأحد القضبان وباليد الأخرى قامت بالتقاط قطعة من قطع الحجر وبدأت تحكّها حول أحد القضيبين الآخرين، لكنها استرعت ألا تحدث الضجة قدر الإمكان حتى لا يستيقظ أحدهم.
وبعد محاولات عنيفة مع ذلك القضيب لم تستطع انتزاعه من الجدار فقد كان مثبتا لدرجة كبيرة.
لتحاول مرة أخرى مع القضيب الذي بجواره، فظلت تجاهد نفسها في حفر الصخر لكن لم تعد يدها تقوى على الحركة، غير أنها أصبحت منهكة إلى حد كبير، مما جعلها تهبط إلى الأرض.
فأسندت ظهرها إلى الحائط هي تنهج، لقد غدت المهمة أصعب مما توقعت.
وبعد فترة قصيرة، عزمت على أن تنهض من جديد، وسرعان ما تسلقت الجدار مرة أخرى متناولة الحجر؛ عائدة لتحفر حول القضيب الحديدي بأشد قوة.
وبمرور الوقت لاحظت أن القضيب بالفعل قد بدأ يتلجلج، لتزيد من سرعة الاحتكاك إلى أن كاد يتهاوى لولا أن أمسكت به في آخر لحظة.
بعد ذلك حاولت أن ترى إن كان بإمكانها أن تنفذ بجسدها على هذا الوضع بعدما أزالت القضيب الأوسط، ولكن لسوء الحظ يجب إزالة على الأقل قضيب آخر.
لتوميء برأسها على حافة الفتحة في تعب.
لكن كلما شعرت بأن قواها تخور، عادت تتذكر كلمات أبيها والهدف الذي يسعون إليه، فأخذت تردد في نفسها: عذاب ليلة أهون من عذاب ألف ليلة.
لتعود من جديد، تشق الصخر شقا حول القضيب الثالث، غير مكترثة بالجروح التي ملأت يدها، بل شرف لها أن يلطخ دمها هذا الجدار.
وبقيت تنازع نفسها، تعتبر الصخور هي وجه تركان والحجارة الحادة هي انتقامها القادم، مما يدفعها على المواصلة في الحفر.

وسرعان ما بدأ ذلك القضيب في التلجلج كسابقه، فانتزعته بقوة، وبهذا أصبح قطر الفتحة مناسب كي تنفذ عبره.
لكن وقتها كانت قد وصلت لأقصى درجات التعب، لتهبط أرضا، ثم تقوم بوضع القضيبين والأحجار جانبا، بعدها تناولت قدر الماء تروي عطشها.
ومر الوقت كانت قد أخذت فيه قسطا من الراحة يؤهلها للمهمة القادمة، فنهضت ثم قامت بالرجوع خطوتين إلى الوراء كى ترى نتيجة عملها.
نظرت إلى الفتحة بابتسامة واهنة، وبمجرد أن اتجهت إلى الجدار كي تبدأ في تسلقه أوقفتها كلمة: أختي!
تسمرت في مكانها، ثم التفتت لتجد أخاها ناصر واقفا أمامها بعدما تأكدت من أنه كان يراقب ما تفعل في صمت، فقالت بارتباك: ناصر، لما استيقظت؟
- أختي، لما تتسلقين الجدار.. هل ستهربين؟
عندئذٍ جرت عليه تكمم فمه قائلة بهمس: صهٍ!، اخفض صوتك.. إن سمعنا أحدهم ستكون مشكلة كبيرة!
الأمر ليس هكذا يا ناصر.
تطلع إليها والتساؤل يعلو وجهه، لتكمل بنفس الصوت الخفيض: أريدك أن تسمعني وتستوعب ما سأقوله جيدا جدا.. أبي من أخبرني بفعل هذا.
- أبي؟
- أجل.. لقد جاءني بالمنام، وأوصاني بأن أخرج من هذا المكان لنعيد سلطنتنا إلينا مرة أخرى ونخلص الناس من شر ركن الدين وأمه.
قال بمنطقية: وكيف ستفعلين هذا بمفردك يا أختي؟
نظرت في حيرة، ثم قالت: العلم عند الله وحده.. ولكن ما يجب عليك فعله الآن أن ترعى جدتك وأختك، لا تدع أحدا يمسهم بسوء.. فقد كبرت وأصبحت محاربا شجاعا.
- هل يمكن أن نرحل معكِ؟
هزت رأسها نافية في أسى، لينكس رأسه حزينا، فقالت: لا تحزن يا عزيزي، قريبا جدا إن شاء الله سيأتي يوم الخلاص.. ليس لكم فقط، بل لكل المظلومين الذين سجنوا قسرا.. لذلك يجب الآن أن تعدني بشيء هام.
رفع رأسه، فأكملت بجدية: لا تخبر أي أحد بأنك رأيتني أخرج من هنا مهما إن كان، حتى عندما يكتشفوا هذا.. وكأنك لم تر شيئا.. هذا سر بين كلينا فقط لا يجب أن يُفشى، ألا تريد الخروج من هنا؟
هز رأسه إيجابا في حماس، فاستكملت: حسنا، لذلك لا يجب أن يعلم أحد بهذا.. أتعدني يا ناصر؟
- أعدك.
ظلت ترمقه في حنان وشفقة ثم قامت بمعانقته عناقا حارا وقد تكونت على خدها بعض الدموع.
وسرعان ما استدارت وقامت بلف القماشة السوداء حول وجهها، ثم تسلقت الجدار لتُخرج رأسها من الفتحة تتفقد ما إن كان الأمن مستتب بالخارج، وبعدها قامت في سرعة وخفة بإنفاذ جسدها عبر الفتحة.
ليبقى ناصر يتابعها في شخوص إلى أن غادرت المكان كليا..

(١٦)

يدلف إلى غرفته، مدندنا بعض الأغاني، وكان وقتها في صفو جيد، لا يهتم لقضايا أو مسائل، ملقي جميع الأمور على أمه والوزراء، الأهم أن يأتيه كل شيء على طبق من ذهب.
وبعد أن دخل إلى الغرفة وأغلق الباب، استدار ليفاجأ بذلك الوجه هنالك يحملق به في رعب.

عندئذٍ شعر بارتجاف فرائصه، فقد كانت تنظر إليه بعينين حمراوين يبثان الفزع في كل من يطالعهما وكأنها تشتاق إلى الانتقام.
فيقول مجفلا: ماذا تريدين؟. وكيف دخلتِ إلى هنا؟
ردت هي لاتزال مصوبة عينيها نحو عينيه: لا يهم كيف دخلت.. المهم أنك لن تجد من يخلصك من بين يدي الليلة يا ركن الدين.
قال بنفس النبرة المهزوزة: كلام فارغ.. معي حرسي وجنودي، لن تستطيعي فعل أي شيء.
جحظت عيناها أكثر قائلة: حقا!
ليقوم تلقائيا بجذب مقبض الباب ينوي الهروب، ولكنه صدم بأن الباب كان موصدا، فأخذ يطرق عليه بقوة صارخا كي ينجده أحد.
لكنها قالت في برود: لا تتعب نفسك يا سلطان.. ألم أقل لك لن تجد من يخلصك من بين يدي.
ثم بدأت تتقدم نحوه شيئا فشيئا كتقدم الحية نحو فريستها، وكانت عيناها وقتها في أشد جحوظهما، ليستمر في الطرق على الباب دون توقف.
وبالنهاية لم يلبِ أحد نداءه، فرآها فجأة تنقض على رقبته بوحشية تخنقه، وبدأ يشعر حينها بأن روحه تنتزع منه تدريجيا حيث لم يستطع مقاومتها.. وبينما كانت تخنقه ظلت تقول: ستموت الآن على يدي يا ركن الدين! ستموت وحدك ولن يسأل عنك أحد! ستموت!!!....
انتفض من نومته، شاعرا بالاختناق يملأ صدره، غير أنه أحس بالفعل بألم في عنقه، مما صاح بشدة في الحرس بالخارج، فدخلوا إليه على عجل ليأمرهم باحضار والدته.
وسرعان ما جاءت تركان، فهرعت إليه وجلست بجانبه قائلة بقلق: ماذا بك يا بني!، ما حال وجهك أزرق اللون!
ناولته إناء الماء، أخذ يشرب ويشرب إلى أن أفرغه كله، ثم قال: كابوس مرعب يا أمي!
قالت: ماذا رأيت في منامك؟
- رأيتها تنقد عليّ تخنقني بكلتي يديها! وكنت عاجزا عن صدها!
- من هذه التي رأيتها؟
- راضية!
ثم أخذ يخبرها بكل التفاصيل، ليعتريها الشعور بالغضب، قائلة بنبرة غليظة: ماذا بك يا ركن الدين! هل تريد فضحنا بما تقول، مجرد فتاة ترعبك كل هذا الرعب!
رد بارتجاف: أنتِ لم تري كيف كانت تنظر إليّ يا أمي! أشعر أنها ستظهر لي من حيث لا أعلم في أي وقت!
- كف عن هذا الهراء!، كيف تظهر لك هي ملقاة بالسجن!
أخذا يتحاوران بلا فائدة، لتجذبه بالنهاية من يده غصبا قاصدين السجون كي تثبت له أن كل ما يقوله مجرد خُرق.
وفعلا وصلا إلى هناك، فصرخت تركان بالجندي لفتح البوابة، ليدخلا على عجل مسرعين نحو زنزانة راضية، يسبقهم الجندي حاملا الشعل.
وعندما بلغا وجهتهما، اندفعت تركان تشير له إلى راضية النائمة من وراء القضبان ولكنها أنزلت يدها على الفور في صدمة حينما وجدت أن عدد الأفراد النائمين كانوا ثلاثة فقط بدلا من أربعة.

وقتها صاحت بالجندي كي يفتح لهما الزنزانة، فدخلت مباشرة غير مكترثة لأمر الأفراد النائمين التي أوقظتهم.
وأخذت تبحث في جميع الأرجاء تستدل على الطريقة التي هربت بها راضية، إلى أن تفاجأت بالقضيبين الحديديين وبعض الحجارة ملقين جانبا، ثم حوَّلت بصرها إلى الفتحة المستطيلة تلقائيا ففطن إليها ما قد حدث، مما دفعها لتصيح بالسلطانة: أنتم من ساعدتموها على الهرب، أليس كذلك؟
نظرت السلطانة في صدمة وباتت تتلفت حولها يمينا ويسارا وبالمثل شادية، أما ناصر فكان جالسا يراقب ما يحدث في صمت.
قالت تركان مستهجنة: تتظاهران بالمفاجأة.
ردت شادية: نحن بالفعل لم نرها تهرب، كنا نائمين ولم نشعر بأي شيء!
تبعتها السلطانة في غلظة: وهل أنا بهذا الغباء يا تركان حتى أعرض حياة حفيدتي للخطر بحثّها على الهروب!
أطرقت تركان تفكر في كلام السلطانة وقد أحست بمنطقيته، فقالت: حسنا يا سلطانة.. لنا كلام آخر لاحقا.
وبسرعة خرجت من الزنزانة آمرة الجنود ببدء عمليات البحث عن راضية، لتعم حالة من الطوارئ في جميع أرجاء السجن.
عندئذ بدأت السلطانة تبكي قائلة بندب: أين أنتِ الآن يا راضية.. كيف تفعلي هذا بجدتك وتحرقي قلبي عليكِ!
ذهبت إليها شادية تخفف عنها وتشاركها الحزن، بينما كان ناصر لايزال متسمرا في مكانه، يتردد في أذنه كلام أخته وذلك الوعد بينهما.

ياقوت

مرت ثلاث ليالٍ على مكوثي بتلك الزنزانة اللعينة، كل يوم كان يمر وكأنه سنة كاملة.
كانت الأسوأ بينهم هي الليلة الأولى، حينما سجنت بمفردي داخل الزنزانة، فمن الصعب أن أعود إلى الوحدة بعدما تعودت على حياة الاختلاط منذ أن أتيت إلى القصر.
ولكن ما هون عليّ في اليوم التالي هو مجيء واحد من رؤساء الطوائف يشاركني الزنزانة.
فبقينا نتبادل أطراف الحديث، نحاول إيجاد حلا لتلك النكبة التي أصابتنا.
يا ترى كيف يكون حال راضية الآن، كم أتوق لرؤيتها.
كلما تذكرت حزمها وإصرارها على تنفيذ وصية والدها يصيبني الهم والحزن، مما يدفعني لتحطيم كل تلك الزنانين فقط من أجلها.
أما لهذه المرأة من سلطان!، كيف اشترت الجميع بكل تلك البساطة! كيف قتلت هؤلاء الأبرياء الذين أرادوا حرية التعبير!
ولكن حتى إن قيدتنا نحن، فإن الشعب لن يستسلم، بالتأكيد سيأتي يوم ينتفض فيه على ذلك اللعين ركن الدين ويزيحونه عن العرش، هم فقط بحاجة إلى من يدب فيهم الحماسة، وأنا واثق بأن هذا الشخص سيظهر عما قريب.
لنستيقظ على خبر قد زلزل السجن رأسا على عقب.
لقد فعلتها ولم تخف!، تمكنت من الهرب بكل براعة دون أن يلاحظها أحد!

لكم تبهرني هذه الفتاة في كل مرة!، سابقا كانت هي من خلصنا من الاختطاف واستطاعت القضاء على المستعبِدين، والآن ستخلصنا من نفوذ ركن الدين، هي من سيخرج للناس ويدب فيهم الحمية بالتأكيد من أجل الانتفاضة المنتظرة.. وكلي يقين من أنها ستنجح.

راضية

بكامل الحذر استطعت الخروج من منطقة الزنازين والتوجه إلى الإسطبل؛ فهو المكان الوحيد الذي يقل فيه أعداد الحرس بالقصر.

ومكثت أسير بخطى بطيئة على أنامل أصابعي قاصدة البوابة الفرعية، لكني وجدت الحرس مازالوا يقفون هناك.

أصابني القلق، يجب حتما أن أصبح خارج القصر قبل طلوع الفجر.

لأتنحى جانبا في مكان ضيق أفكر كيف أخرج دون أن يلاحظني أحد.

وبعد مدة انتبهت لذلك الرجل من بعيد يجمع أكوام التبن والقش المستعملة على العربة، حينذاك فطن إلي أنه سيقودهم إلى مكان ما لتبديلهم.

عندها لم أجد أسنح من تلك وسيلة تساعدني على الخروج.

وبهدوء تام وتأنٍ بدأت أتجه حيث تكون

العربة، فانتظرت خلف عمودٍ إلى أن يدخل الرجل مرة أخرى الغرفة لجلب المزيد من التبن والقش.

وبالفعل دخل الرجل الغرفة، لاندفع ناحية العربة وسرعان ما صعدت إليها، ثم جعلت أبحث عن مخبأ بين أكوام التبن الضخمة أستطيع التواري فيه.

لكن لم يسعني سوى أن أخرق أحد الأكوام وأحاول الاحتماء داخله.

وفي عجالة التقطت الخنجر بجانب الحبال، أغرزه بكل قوتي في الكومة إلى أن أحدثت فتحة بسيطة يكاد جسدي ينفذ خلالها.

ثم بدأت أسمع أصوات أقدام مقبلة، فقفزت بجسدي داخل الفتحة مصطحبة الخنجر، وما إن دخلت حتى شعرت ببعض الاختناق غير أن الرائحة كانت مفجعة لا تُحتمل على الإطلاق.

حاولت كتم السعال والتزمت الثبات فكلها مسألة وقت وتنتهي هذه القصة.

قدم الرجل بعد ذلك وامتطي الفرس جارا العربة، ثم بدأ يسوقها ناحية البوابة للخروج، لكن أوقفه الحارسان ليتفقدا الأكوام، مما أصابني الارتباك خشية من أن يُفضح أمري، ولكني أثق بأن ربي لن يخذلني هذه المرة.

ولحسن حظي لم يتمعنوا في تفقدهم للأكوام وسمحوا لنا بالخروج، ليسرع الرجل من حركة الفرس وينطلق بنا مفارقا القصر.

عند هذه اللحظة مكثت أتابع القصر من فتحة الكومة، وكلما ابتعدنا أرى حجمه يتقلص شيئا فشيئا، شعرت بقلبي يعتصر ألما، وكأن سكينا ما تمزق صدري.

أيتها الأرض الطاهرة ها أنا أفارقك الآن بكامل أحزاني ودموعي، لكن أعدك بأني سأعود.. سأعود بعون الله كي أزيح عنك تلك الغمامة الثقيلة.. سأعود إليكم يا جدتي واخوتي.. سأعود إليك يا ياقوت.. سأعود يا كل أحبائي.. فلتصمدوا قليلا لقد اقترب فك حصاركم، وإن حدث لي مكروه فأنا على يقين بأن شعب دلهي لن يستسلم لهذا الظلم، وحتما سينهض ويثور على هؤلاء الطغاة.. فقط بالإيمان والأمل نستطيع مجابهة الصعاب مهما كانت حجمها، لذا.. فلتنتظريني أيتها الأرض.

.....

نفذ إليّ ضوء قوي أفاقني من غفوتي، لقد حل الصباح.
أخرجت رأسي من الفتحة، لأجد العربة لاتزال تواصل السير يبدو أن هذا الرجل لم ينم أبدا.
أطرقت أفكر ماذا أفعل حيال هذا، أنا بحاجة إلى الفرس وكنت سآخذه إذا نام الرجل.
لكن وقتها لم يكن أمامي سوى أن أبحث عن أي آلة أستطيع بها ضرب الرجل على رأسه ليغيب عن الوعي مؤقتا.
فخرجت من الفتحة، أجيل ببصري أركان العربة إلى أن رأيت قطعة خشبية متوسطة الحجم، تناولتها ومن ثم ذهبت إذاء الرجل، وبسرعة قمت بإعطائه خبطة دماغية من خلفه جعلته يفقد الوعي في الحال ويرتمي أرضا.. لا بأس سيفيق بعد دقائق أكون قد ارتحلت بالفرس من هنا.
عندئذٍ قمت بفصل العربة عن الفرس، ثم اصطحبت الخنجر داخل نطاقي والعصا الخشبية، لامتطي الفرس بعدها وأمضي في طريقي.
في بيت قديم، يجلس رجل هرم كث اللحية على كرسيه في سكون، تكسو التجاعيد وجهه وكأنها علامات طبعها عليه الزمن.
لينتبه إلى صوت الطرق الصادر عن الباب، مما صاح: نادرة!
أقبلت فتاة حسناء من داخل الغرفة، تفتح الباب على عجل.
- من هناك نادرة؟
- لا أعلم يا جدي.. امرأة تقول بأنها غريبة عن هنا وتريد مساعدة شيخ القبيلة.
سُمح للزائرة بالدخول، لتدخل على استحياء ماثلة أمام الشيخ والذي أمر حفيدته باحضار لها بعض الشراب ثم قال: كيف أساعدك ابنتي؟
رفعت رأسها ووضحت ملامحها ثم قالت بصوت هادئ: أنا الأميرة راضية ابنة السلطان التتمش سيدي تقي الدين.
تفاجأ الشيخ بما قالت ثم أخذ يتفحص هيئتها مضيقا عينيه، ليدعوها للجلوس، فبدأت هي بقول: أعرف أنك وأبي تجمعكما صداقة وثيقة منذ زمن.. وأنك من توّجته يوم توليه الحكم، لذا جئت إلى هنا.
رد بوهن: هذا صحيح بالطبع، السلطان التتمش كان بمثابة ابني ومن أقرب الناس.. ولكن اعذريني يا بنيتي لم أعرفك، فأنا لم أذهب إلى السلطنة منذ سنوات، أتذكر آخر مرة ذهبت إلى هناك كان منذ عشرين عام.. أخبريني، كيف حال السلطان والسلطنة؟
نظرت في أسف ثم قالت: لقد مات السلطان منذ فترة قصيرة.
وقعت الصدمة على الشيخ، وجعل يحوقل في حزن، ليقول بعدها: لم يأتني أي خبر بهذا! المكان هنا نائٍ لا نعلم ما يحدث بالخارج... لا اله إلا الله!
قالت: ولهذا جئت لطلب المساعدة منك.
نظر منصتا، لكنها لم تستطع مواصلة الحديث لوجود تلك الشابة الواقفة، مما دعاها جدها لتركهما وحدهما، فانصاعت إليه، وعادت راضية تواصل حديثها تقصّ عليه كل ما حدث.
خلالها ظل الشيخ ينصت إليها مشدوها لا يصدق أن كل هذا حدث في بضعة أيام فقط!
وبنهاية الحديث قالت: لذلك يا سيدي أطلب منك أن تساعدني في تجميع أكبر عدد من المحاربين المهرة لديكم بالقبيلة.. فغرضي هو تكوين جماعة من المجاهدين تخرج إلى الناس بدلهي وتبث فيهم روح المقاومة والتصدي.

أطرق يفكر في كلامها ثم قال: أصبتِ يا ابنتي ولكن.. لما لا نلجأ لحكام الأقاليم خارج دلهي، يمكنهم امدادنا بالجيش اللازم لاقتحام القصر مباشرة بدلا من الخروج للناس بجماعة صغيرة.
نظرت في خيبة وردت: معظم حكام الأقاليم في المدن المجاورة يذعنون إلى ركن الدين.. فهو وأمه حريصون على ألا يتركوا شبرا إلا وأخضعوه تحت سيطرتهم، لذا عندما يستسلم الحكام يأبى المحكومون.. السر موجود في عامة الشعب يا سيدي، هم فقط يحتاجون إلى تلك الدفعة التي تثيرهم.. وهذه هي مهمتي.
عاد يتفكر في ما قالته في ما بدا أنه يشعر بكم الحماس الصادر منها ولكنه أيضا يغشى المجازفة والمخاطرة بحياة الناس، لتقول برجاء: صدقني سيدي.. إن هذا الأمر
كفيل بجعل أبي يرقد في تربته سالما مرتاحا.
- ولكن بنيتي.. هل أنت مدركة مقدار الخطورة التي ستقع عليكِ؟
ردت بابتسامة باهتة: تُكالي على الله يا سيدي.. الأهم هو أن اسعى في سبيل الحفاظ على وديعة أبي.

(١٧)

داخل غرفة مكتب السلطان، وُجد مجير الدين يعث في الخزائن، يبحث عن بعض الأوراق التي طلبتها منه تركان بخصوص شئون ما بالسلطنة.
وأثناء بحثه تعثرت قدماه بالخزانة الجانبية، فانفتحت على إثر الإصطدامة وسقط منها علبة مكعبة متوسطة الحجم كانت على أحد أرففها.
انتبه مجير الدين إلى تلك العلبة، ولكن ما أثار انتباهه أكثر هو طرف الورقة الذي ظهر من داخلها، لينحني مباشرة يلتقطها، ويبادر باخراج الورقة منها.
ثم وضع العلبة أدراجها، وطفق يفتح الورقة يتملكه الفضول.
بدأ يقرأ أولى سطور الورقة، ومع الاستمرار في القراءة شعر بيديه ترتجفان، فسارع بالجلوس خشية من أن يفقد صوابه لهول ما قرأه.
ثم أطبق الورقة في صدمة، وأطرق يفكر وأنفاسه محتبسة.
فما وجده لا يشير سوى أنهم مقبلون على كارثة كبرى لن يسلموا منها في حالة ما إذا تحقق الكلام المكتوب وعلم به الناس.

تستقر أمام المرآة.. تطالع شكلها المعتاد للمرة الأخيرة.. ثم أخذت تتحسس شعرها الطويل ووجهها الناعم، تودع ما يضج فيهما من جمال وأنوثة.
لتبدأ أولى خطوات التغيير بنزع القلادة الهلالية التي تطوق رقبتها والتي تمثل جزءا كبيرا من هويتها.
حينذاك شعرت وكأنها تنتزع أحد نياط قلبها، فقد تذكرت أمها وتذكرت ذلك الموقف المحفور بذاكرتها، فمنذ أن ألبستها القلادة هي لم تخلعها طيلة السنوات الماضية.. ولكن اليوم ستتخلى عنها دونا عن إرادتها، قائلة في نفسها: سامحيني يا أمي.. لابد أن أفعل هذا.. حتى وإن خلعت قلادتك، ستبقين في قلبي إلى الأبد.
كبحت دموعها عنوة وقامت بخلع القلادة.
بعد ذلك التفتت إلى الخنجر القابع على المنضدة أمام المرآة ومن ثم التفتت إلى شعرها.

لتقوم بتناول الخنجر بعد أن أصبحت في كامل استعدادها للقيام بالخطوة الثانية.
فأنشأت تجز شعرها جزا بينما أخذ يتساقط حولها بغزارة، إلى أن أصبحت الأرضية مغطاة بالشعر تماما.
وبالنهاية توقفت عن اجتثاثه بعدما كاد يصل طوله إلى أعلى رقبتها.
أخذت تطالع نفسها بذهول، لكنها لم تلبث أن اتجهت إلى الخطوة التالية، فخلعت رداءها وبدلته بزيٍ عسكري أسود اللون قد ضخّم من هيئتها، ثم جلست تحكم ربط الأشرطة والعقد اللازمة به وتثبت الدرع الواقي.
بعدها طرق إليها ما أخبرها به الشيخ، وهو أن تدهن وجهها باللون الأسود زيادةً في التخفي.
فتناولت قنينة الصبغة السوداء، وشرعت في فرد كميات منها على وجهها وكفيها.
وبالنهاية قامت بوضع الشال على رأسها، ومن ثم أحضرت سيفها ووضعته بالغمد.
لتكون بذلك قد أنهت جميع خطوات التغيير، وتتحول من الأميرة راضية إلى ذلك المحارب المجهول.
كانت تركان بغرفتها، تنظر من النافذة هي شاردة البال، وإذ فجأة تدخل إليها الخادمة معلنة عن مجيء مجير الدين.
أمرتها تركان بسرعة بإدخاله ظانة أنه قد عثر على الأوراق المطلوبة.
ليدخل مجير الدين محييا والقلق واضح على وجهه، مما أثار انتباه تركان، فسألته: هل عثرت على ما طلبته منك سيد مجير الدين؟
أومأ برأسه وناولها ما طلبته، فسارعت بالتقليب بين الأوراق ثم قالت: جيد.
بعدها عادت تنظر إليه، لتجده على نفس الحال لم يتغير، مما أصابها بالارتباك خاصة أنه يكون مدير جميع الشئون بالسلطنة ويعرف كل صغيرة وكبيرة تجري بها، فسألته بتوجس: ما خطبك مجير الدين؟. أجدّ أمر ما لا أعرفه؟
ازدرد ريقه، مناولها الورقة التي أرجفت فرائصه دون أن ينبس بكلمة.
نظرت إليه بريبة يصحبها بعض الوجل، لتشرع في فتحها وقرائتها.
وبمرور الوقت بدأت تشعر بالدوار، فاستندت إلى الحائط واضعة يدها على رأسها، مما اندفع مجير الدين: مولاتي، هل أنادي الخادمة؟
أشارت بالرفض ثم طلبت منه أن يسكب لها بعض الماء لحين أن تتجه إلى أريكتها.
هرول إليها هرولة العجزة، وناولها كوب الماء، فأخذت تتجرع منه، ونبضها بدا يتزايد شيئا فشيئا.
ثم قالت بعد ذلك هي تلتقط أنفاسها: أين عثرت على هذه الورقة؟
رد بخجل وكأنه ارتكب جريمة ما للتو: لاقيتها بالصدفة في المكتب بينما كنت أبحث عن الأوراق المطلوبة.. وكأن القدر أسقطها بين يدي.
- هل تعلم حجم المصيبة التي وقعنا بها الآن؟!
أومأ في ضيق، لتكمل: إنه خطأي أنا عندما قررت عدم قتلها من البداية، حينذاك لن يكون لهذه الورقة أي فائدة وستذهب أدراج الرياح! لكن.. هي الآن خارج السجن، أي من الممكن أن تعود في أي لحظة، وإذا علم الناس بشأن هذا العقد.. سيكون من حقها قانونا تولي عرش السلطنة!.. هيا، يجب أن نسارع بحرق العقد قبل أن تظهر أو يعلم به أحد.
نهضت على عجل متجه إلى إحدى شعل النار، وأثناء ذلك قطعها مجير الدين: انتظري يا سلطانة.. ولما لا تكون هناك نسخ أخرى من هذا العقد في أماكن متفرقة غير المكتب.

التفتت إليه متفاجئة، وقالت: ماذا تقصد؟
رد بنبرته الخبيثة: أقصد أن السلطان من الممكن أن يكون قد وضع قبل وفاته نسخ من العقد في أماكن مختلفة، حتى يضمن حق ابنته في تولي العرش.. لربما نجد بعضا منها في غرفته أو في غرف أسرته.
أطرقت تفكر ثم قالت: كيف لم يخطر على بالي هذا! حسنا، يجب أن نبادر بالبحث عن بقية النسخ، أأمر في الحال بتفريق الجنود خاصتنا والتفتيش في جميع غرف الأسرة الحاكمة لاسيما غرفة السلطان.. لدي شعور بأننا سنجد المزيد منها كما قلت أنت.
- أرجوك.. كف عن ضربه، إنه رجل مسن بعمر والدك!
قالتها هي تجهش في البكاء، بينما ظل الأخير يرجم ولا يبالي، فهذا ما أمرهم به ركن الدين "كل من يمتنع عن دفع الضرائب كاملة من التجار يُجلد ثمانين جلدة ".
ولما ازداد إلحاحها وبكاؤها صاح بها الجندي: أيتها المرأة!، اذهبي من هنا وإلا رجمتك كأبيكِ!
لتصرخ به مفرغة ما بداخلها من ألم: ماذا يريد منا سلطانكم؟!. يكفي أنه أخذ بناتنا قسرا وجعلهن جواري عنده!، يكفي ما تنهبوه منا وتغلون في ذلك إلى أن أصبحنا لا نجد اللقمة لنأكلها.. ماذا نفعل حيال هذا إذا؟!، أنقطع من لحمنا ونعطيكم!!
فجأة انهالت عليها لطمة قوية طرحتها أرضا، وصاح بها الجندي بعينين حمراوين: أيتها الحقيرة!، سترتمين الآن بالسجن مع باقي المتمردات الحقيرات مثلك.. خذوها من هنا!
أتي الحرس يقبضون عليها ذاهبين بها إلى السجن، بينما هي ظلت تنتحب داعية عليهم وعلى سلطانهم بالموت والهلاك.
وفي ظل الصراخ والعويل، وبينما يُرجَم الأبرياء، يداهم المعسكر جماعة من الرجال الملثمين فوق صهوة خيولهم.
بدأت الخيول تجري إلى الداخل مقتحمة المعسكر، حينها توقف الجنود عن الجلد وتجمعوا كلهم لمحاربة هؤلاء الدخلاء.
فحدث الاشتباك الكبير بين رجال ركن الدين ورجال راضية، لتنتهز راضية فرصة انشغال الحرس بالقتال وتذهب هي وثلاثة رجال معها إلى الأشخاص المرجومين يحررونهم.
فأمرت رجلين منهم بتهريب المرجومين خارج المعسكر في العربة.
ثم توجهت إلى سجن النساء مع الرجل الآخر، ليلتقيان بحارسان أمام الباب قاتلوهما ومن ثم دخلا يحرران جميع النساء.
فخرجا بصف النساء من السجن يقودانهن إلى خارج المعسكر.
وبعد أن نظمت راضية الجميع بالعربة، عادت إلى المعسكر وتفاجأت برجال ركن الدين غارقين في دمائهم ينتحبون، لاسيما قائدهم واقف منكس الرأس يكتفونه رجالها.
حينها ابتسمت في داخلها، فلم تكن تتوقع ذلك الأداء من رجال الشيخ تقي الدين.
ثم ذهبت إذاء الرجل المُكتف، فقاموا بدفعه ليسقط منحني على ركبتيه في إذلال أمامها.
قالت بصوتٍ أجش غير صوتها الحقيقي: أخبرني.. كم عدد المعسكرات الأخرى وأين تقع؟
بات يرمقهم بسخط ولم ينبس بكلمة، ليقوم أحد الرجال برجمه بالسوط مما صاح متوجعا، وبعدها نطق وقرّ بعدد جميع المعسكرات وأماكنها بالتحديد.
حينئذ كان هناك رجل يدون ما قد قيل حيث هو المسؤول عن إخبارهم بجميع المناطق التي يذهبون إليها، فذهبت به راضية في جانب وسألته بهمس: هل أصبحت المعلومات عندك مكتملة الآن؟

- أجل سيدي، ولكن سأنزل بين الناس مرة أخرى وأعرف إن كانت هناك أماكن غير المعسكرات أم لا.
أومأت برأسها، ثم توجهت إلى الرجال وأمرتهم باحضار قائد المعسكر معهم بالإضافة إلى الأسرى المرتميين، ليمتطوا أظهر خيولهم وينطلقوا بعيدا عن المعسكر.

(١٨)

بالأسواق:

كانت تشيع حالة من الكآبة والفتور، فمنذ أن قُبض على التجار وأُخذ عدد من الرجال والنساء حتى توقفت الحركة بالأسواق، لم يعد يضج فيها النشاط والحيوية ولا حتى صوت ضحكات الأطفال كما ذي قبل.
فعم الركود والتخاذل، وأُبطلت عزائم جميع الأهالي، لينتشروا في الطرقات جالسين على الأرصفة، واضعين يدهم على خدهم بلا عمل والهم يغلبهم.
وعلى حين غرة ينتزعهم من سهومهم صوت أقدام الخيول الصادر عن بعد.
التفت الجميع بالمكان، وما كادوا يلمحون جماعة الخيول المنطلقة هناك حتى نما الرعب في داخلهم، فلا يوجد غير جنود ركن الدين من ينقض عليهم ويروعهم.
حينئذ سادت الفوضى، وشرع الباعة يغلقون دكاكينهم، بينما الأطفال والنساء يهرعون إلى ملاجئهم، لم يتبق سوى بعض الرجال يقفون متصدين.
بعدها خيم الصمت على المكان، كانت جماعة الرجال فوق الخيول قد استقرت بمنتصف الطريق.
وبقي الواقفون يرمقونهم بأنفاس محتبسة متوجسين لأي ردة فعل تصدر منهم.
ثم ظهر واحد من الواقفين يقول: ماذا تريدون اليوم.. هل ستأخذون نفرا جديدا منا، أم ستستولون على المزيد من مواشينا؟
رد قائد الجماعة بنبرة هادئة: لا تخافوا نحن لسنا جنود ركن الدين.
ثم أشار إلى الرجال من خلفه بالتوجه لفتح العربات القائمة هناك، وسرعان ما انفتحت العربات، لتتبدل ملامح جميع الحاضرين عندما شاهدوا أهلهم من الرجال والنساء يخرجون واحدا تلو الآخر.
فعادت الجلبة تنتشر في المكان، وأخذ الناس يقبلون على أحبائهم في لهف وشوق كبير، كما أن النساء والأطفال قد خرجوا من مخابئهم يستقبلونهم.
وفي منتصف الصخب صاح أحد من الجماعة بالتزام الصمت والإنصات إلى القائد.
لتخمد الجلبة ويبقى الجميع واقفين في ترقب ينصتون، فبدأ يقول القائد بصوت جهورٍ: اسمعوني أيها الناس.. بما أننا قد أعدنا إليكم رجالكم ونساءكم، إذن.. لابد من أن تردوا إلينا الجميل وتساعدوننا كما ساعدناكم.
تبادل الجميع النظرات في حيرة، ثم استطرد القائد بعد أن ترجل عن فرسه وظهر جزء من ملامحه السمراء: بالتأكيد تراودكم الأسئلة الآن حول من نكون نحن، وماذا نريد.. في الحقيقة نحن مجرد أناس عاديين من عامة الشعب مثلكم.. فقط دعانا للخروج سخطنا ورغبتنا في عدم الإستسلام لحكم ركن الدين الغاشم.
وبمجرد أن تفوه باسم ركن الدين حتى وجد بعض الناس تعرض عنه، وبعضهم بات يحدق به في ذهول لخطورة ما يقوله.
- أعلم أنكم ترونني الآن شخصا أخرقا يعرض حياته للخطر، ولكن صدقوني.. إن تجمعنا كلنا ووقفنا في وجه ركن الدين، يمكننا بتعاوننا إسقاطه عن العرش.

قاطعه أحد الرجال: كيف تقول يا هذا أننا سنسقطه عن العرش وجميع أنحاء البلاد ترضخ إلى حكمه!
تبعه آخر: أجل، غير أنه يبيد كل من يتمرد ويقف ضده، لقد قتل أحد المسنين أمامنا قبل ذلك!
عندها سادت حالة من الاضطراب والرفض التام لهذه الفكرة، مما صاح فيهم القائد: ماذا حل بكم يا شعب دلهي! كيف أراكم تستسلمون بكل هذه البساطة! لا تجرؤون على الوقوف ضده، ولكن إلى متى سيظل يقتل رجالكم وينهب أموالكم وأنتم واقفون تتفرجون مكتوفي الأيدي!
تسلل اليأس والضعف إلى ملامحهم، فأكمل بذات النبرة: كلكم الآن مسؤلون عما يحدث بالسلطنة، أنتم لا تدركون أن الأرض هي ملك للشعب أيضا كما هي ملك للحكام.. كيف ستكون نظرة الأجيال القادمة إليكم عندما يعلمون أن أجدادهم كانوا أناس ضعفاء، لم يستطعوا إخماد الظلم وحماية بلادهم من الفساد؟!
نكسوا رءوسهم في خيبة وكأن هذه الكلمات جاءت كي تفضح عجزهم واستسلامهم للظلم.
فهدّأ القائد من نبرته الجلّادة وقال: أنا لا أقول هذا الكلام لغرض معايرة أو شماتة.. فقط أدعوكم للاستيقاظ من غفلتكم والشعور بحجم الكارثة التي وقعت بها السلطنة.. يجب أن تعلموا، قوة الأوطان تكمن في شعوبها.. الشعب هو من بيده إعلاء البلاد أو هدمها، فكم من قصصٍ سمعنا بالتاريخ تحكي عن عظمة الشعوب ومحاربتها للطغيان.... لنتكاتف معا ونقف كجسد واحد في وجه الظلم، والله ليس بخاذلنا بإذنه.. فإن كنا لن نضحي في سبيل الوطن، لأجل ماذا سنضحي؟!
بدا الناس مقتنعين بما يقوله، وظلوا يلتفتون إلى بعضهم البعض وهم يهزون رءوسهم بالاتفاق، ليندفع أحدهم يصيح: نحن معك أيها الرجل.
ومن بعده تجمع باقي الرجال يبايعونه على الوقوف بصفه والانضمام إلى جماعته.
دخلت الخادمة إلى تركان تعلمها بمجيء مجير الدين، فأمرت بإدخاله بينما كانت جالسة تنتظر في ترقب، ليدخل إليها وفي يده مجموعة من الأوراق ناولها إياها قائلا: كما توقعنا يا سلطانة، وُجد المزيد من النسخ ولكن بغرفة السلطان فقط.
تنفست الصعداء، قائلة: هكذا نكون قد تخلصنا من ذلك الكابوس إلى الأبد.
ثم سارعت بجلب المشعل، فوضعته على الطاولة، وما لبثت أن بدأت تقذف بالورقات واحدة تلو الأخرى، ليبدأ اللهب في ابتلاعها وتتحول كلها إلى رماد.

بعد أسبوع..
التم جماعة المجاهدين بمكانهم السري قرب قبيلة الشيخ، وكان قد ازداد عددهم بشكل كبير مما شكلوا حلقة واسعة.
قال قائدهم: إني أشيد بأدائكم أيها الشجعان.. لقد حققنا خلال أسبوع واحد إنجازات عدة لم أتوقع أن تتم بهذه السرعة، ونتيجة لذلك يحضرنا ماشاء الله أعداد جديدة من المجاهدين الذين انضموا إلينا مؤخرا.
تبعه أحدهم: وسيزدادون إن شاء الله سيدي باستكمال مهامنا في جميع المناطق.
رد القائد: أجل، وهذا ما كنت سأفاتحكم به.. من بداية الأسبوع المقبل ستنقسم مهمتنا إلى نصفين، نصف سأخرج فيه مع مجموعة من الرجال خارج دلهي إلى الأقاليم القريبة.. والنصف الآخر سيستمر في دلهي بقيادة عز الدين الحبشي يستكمل باقي المناطق.
قالها مشيرا إلى عز الدين الحبشي مساعده الخاص وأكثر رجال الجماعة نضجا وفصاحة.

ليكمل: ولكن يجب أن نتوخى الحذر، بالتأكيد سنجد في كل طريق نذهب إليه جنود ركن الدين، وربما يصنعون لنا الكمائن.. لهذا أريدكم أن تكونوا متيقظين دائما لأي هفوة تحدث، لا تدعوا أحدا يتقفى خطواتكم.
علّق عز الدين الحبشي: سيدي، أرى أننا بحاجة إلى شخص أمين يعمل بقصر السلطان يخبرنا عما يحدث بداخله وعن تحركات ركن الدين بشكل مباشر.. بلا شك سيسهل علينا هذا أمور عدة.
أطرق يفكر أو تفكر فبالطبع لم يغفل هذا الأمر عنها.. ولكنها لن تعرض حياتها للخطر بالتسلل إلى القصر بعد الذي قد وصلت إليه في مهمتها، لتقول: أصبت الرأي يا عز الدين.. ولكننا يجب أن نركز على المهمة القادمة الآن وبعد ذلك نفكر في هذا الأمر.

في حديقة القصر:

السماء في كامل صفوها، والنسيم العليل يحيط بالمكان، غير شدو البلابل ورائحة الزهور المنعشة.
كلها مؤثرات جعلت من الأجواء كتحفة فنية يتغنى بها السلطان ركن الدين وأمه.
مكثا يحتسيان شرابهما في سلام، يتبادلان الضحكات، لم يدركا أنه سيأتي ما يعكر صفوهما ويحيل تغريد البلابل إلى نعيق الغربان والسماء الصافية إلى سماء ملبدة بالغمام.
ليحضر مجير الدين ويمتثل أمامهما محييا وتلك العلامات التي عهدتها عليه تركان تعلو وجهه، مما علمت تلقائيا أن هناك مصيبة ما.
فبرمت شفتيها وتوقفت عن الشرب قائلة: ماذا حدث مجير الدين؟
جلس بعد أن استأذن منهما، وبدأ يقول: مولاتي، جاءت إليّ أمس أخبار في قمة الغرابة.. يقولون أن ثمة جماعة من الرجال المجهولين يخرجون إلى الناس بدلهي.. يحرضونهم على الخروج للوقوف في وجه مولاي السلطان ركن الدين.
توقف الدم في عروق ركن الدين، بينما حلت الصدمة على تركان، فقالت: ألا تعلم أين يكون مقرهم أو إلى أي المناطق يذهبون؟
- لا نعلم إن كان لهم مقر أم لا مولاتي، ولكن يكثر خروجهم إلى الأسواق حيث الأماكن التي تضم أكبر قدر من الناس... ونُقل إليّ أيضا أنهم اقتحموا جميع المعسكرات التي خصصها مولاي لعقاب المتخلفين عن دفع الضرائب وهرّبوا الناس بها، كما أنهم يشنون غارات مفاجأة على حامياتنا في مواقع مختلفة ويأسرون الكثير منهم.
صاح ركن الدين: كيف يتجرأ هؤلاء الحِقار على معارضتي والوقوف بوجهي!
مسحت تركان على وجهها في توتر ثم قالت: وماذا بعد سمعته عنهم؟
- لا شيء سوى أن لهم قائدا يقولون بأنه أسمر اللون كسكان الحبشة.. وهو من يتحدث باسم الجماعة ويُحرّض الناس على المعارضة والخروج.
أطرقت تفكر قليلا تحاول حل اللغز، لتقول: هل هناك المزيد من المواصفات عن هذا الشخص غير أنه أسمر اللون؟
صمت مجير الدين يعتمل عقله ثم قال: لا مولاتي كل ما عرفته هو أن بشرته شديدة السمرة.
عادت إلى إطراقها ثم صدمتهم بقولها: ولما لا يكون هذا الشخص هو نفسه راضية.
التفتا إليها في عدم تصديق، لتكمل: تعلمون أن كل البلاد ترضخ إلى حكمنا باستثنائها، وبلا شك لن يتجرأ أحد من العامة الضعفاء على الوقوف في وجهنا من تلقاء نفسه.. لذا لا أحد غيرها لديه الجرأة

للقيام بذلك الأمر سواها، وبالتأكيد لجأت إلى الصبغات السوداء كى تستطيع التخفي، وإلا.. ما سر هروبها إذن؟
بدأا يشعران بمنطقية كلامها وبدأ القلق يعتريهما، ليقول مجير الدين: لكن مولاتي، نحن بحاجة إلى شخص ماهر من رجالنا يستطيع القبض عليها.. قبل أن يصدقها الناس بالفعل ويحذون حذوها.
تبعه ركن الدين: أجل يا أمي.. مَن مِن رجالنا يا ترى يمكن أن يكون مؤهلا لهذا؟
ابتسمت بلؤم قائلة: من غيره.. لقد حان دوره الآن.

ياقوت

داهمنا الحراس فجأة، لأجدهم يسحبونني بعنف إلى خارج الزنزانة دون حتى أن ينطقوا إلى أين يأخذونني.
فبقيت أسير معهم إلى أن أصبحنا خارج السجن تماما، متجهين إلى ساحة القصر.
بالرغم من جهلي الكامل عن ماهية المكان الذي يأخذونني إليه ولكنني شعرت بسعادة كبيرة عندما خرجت من السجن ورأيت ساحة القصر الواسعة من جديد بعد طول غياب.
واصلنا سيرنا داخل القصر، إلى أن أصبحت بالنهاية أمام غرفة تشبه غرفة السلطان.
ورأيتهم يستأذنون من بالداخل، لينفتح لي باب الغرفة بعدها، ويدفعونني إلى الداخل بمفردي ومن ثم يغلقون الباب.
استدرت لأفاجأ بتلك المرأة الشيطانية جالسة على الأريكة، ولكنها كانت في حال فاضح جدا لم أر أحدا فيه من نساء القصر من قبل!
ترتدي رداءا يبرز جميع مفاتن جسدها، مما دفعني تلقائيا لغض بصري عن هذا المنظر.
لأسمعها تقول من مكانها: مرحبا بالأمير فارس ياقوت، أقوى فرسان السلطنة.
بقيت عيناي لا تفارقان الأرض، في حين أنها نهضت وبدأت تخطو نحوي، فاستقرت أمامي مباشرة قائلة موبخة: ما حالك هكذا لا تريد النظر إليّ؟!، ارفع وجهك!
قالتها محاولة لمس ذقني، لكني أعرضت بوجهي بسرعة.
ولتني ظهرها، وبدأت تقول هي تسير بتمايل: أظن أنك بدأت تفهم ما الذي أريده منك، ولكن.. هناك شيء آخر سأضيفه أيضا.
رفعت رأسي بمقدار قليل، لتكمل: الشيء هو أنك مكلف بالقبض على شخص خطر جدا علينا ويهدد وجودنا.
ثم أخذت تفيض بالكلام حول هذا الشخص وما يفعله، وأن هو وجماعته يشنون عليهم حرب عصابات ويعملون على استنزاف قواهم في مناطق عدة.
وقتها فطن إليّ بشكل تلقائي أن هذا الشخص هو نفسه راضية وأنها قد نجحت في تحقيق الغرض من هروبها.
لأجد تلك الساقطة بالفعل تتمم ما ببالي قائلة: دعك مما يزعم الآخرون، فأنا متأكدة من أن هذا الشخص هو نفسه الأميرة راضية.. لهذا آمرك بالبحث عنها والقبض عليها.
عندها لم أجد أسنح من تلك فرصة سوى أن أذعن إلى أمرها، حتى أستطيع إيجاد راضية.
ثم باغتتني بقولها بعد إعلان قبولي: لكن هناك ما يثير فضولي بعض الشيء يا ياقوت.. كيف أجدك توافق بكل بساطة على أمري، وأنت من كان برفقتها دائما قبل أن تُسجن؟

شعرت أنها تحجمني بسؤالها هذا، لكني أجبت بكل برود: كان ذلك في البداية، حينما كان لايزال هناك متسع للأحلام والأماني.. أما الآن، لم أعد أستطيع إكمال تلك الكذبة التي جعلتني أصدقها، فكل ما هو مبني على وهم زائل لامحالة.
نظرت إليّ معجبة بكلامي، ثم قالت: إذن أفهم من هذا أنه لم يعد يوجد ما يجعلك تتمسك بها.
رددت بذات النبرة: أظن أني أعطيتك الجواب.
ثم رأيتها تدنو مني فجأة، قائلة بانفعال: لما أراك تعرض عني؟، ظننتك من الوهلة الأولى ستستجيب إليّ، ألا تعلم أن يوجد المئات ممن يتمنون الوقوف في مكانك الآن؟!
بقيت ناظرا بعيدا عنها محتفظا ببرودي لا ألقي بالا لكلماتها الفاجرة.
لتدنو مني أكثر يكاد جسدها يلتصق بجسدي، قائلة بصوت رخيم تتعمد إثارتي: منذ أن رأيتك يا ياقوت وأنا أرغب فيك، كيف تردني بهذه القسوة.. أتعلم، إذا حققت ما طلبته منك وقبضت على راضية، سأجعلك تعيش حياة السلاطين.. حياة أفضل من حياة أمراء الفرسان المليئة بالمتاعب.
وبمجرد أن رفعت يدها لتربت على وجهي حتى أوقفتها على الفور، قائلا بنبرة صارمة بعد أن صوبت بصري نحو بصرها بالتحديد: اسمعيني أيتها السلطانة.. من قال لك أني بهذه السهولة وأستجيب إلى محاولات الإغراء والإفتان التي تقومين بها فهو يخدعك! لقد أطعت أمرك في القبض على الأميرة لأني أريد الإنتقام منها فحسب! لكن أي شيء دون هذا، فلا تنتظري مني أي استجابة.
وجدتها قد انكمشت ولم تتفوه بكلمة، ثم هممت أنا بالرحيل، لكنها أوقفتني قائلة: انتظر!
توقفت مكاني دون أن أستدر إليها، فأتت حاملة صرة من النقود، لتقول: خذ.. ستحتاجها أثناء مهمتك.
تناولتها منها، ومن ثم فُتحت لي البوابة، لأعود إلى حريتي وأرحل عن هذا المكان النجس.

(١٩)

راضية
كان اليوم هو آخر مهامي بالأحياء الشعبية بدلهي، فبعد أن نجحنا في ضم عدد لا بأس به من الرجال، أصبحنا مؤهلين لتوسيع دائرة عملنا واستكمال المهام في مناطق وأقاليم مختلفة.
خرجت مع جماعة صغيرة من الرجال إلى منطقة جديدة بالأحياء الشعبية وأمرت باقي الجماعة بالخروج إلى مناطق أخرى منها.
لأقف بين عامة الناس، وأبدأ في توجيه خطبتي، وسرعان ما انتهيت حتى وجدتهم يقبلون علينا ويطلبون الانضمام إلى صفوفنا.
عندها بت احمد الله على كرمه وتوفيقه لنا، ففي كل منطقة نذهب إليها يزداد أعداد المنضمين أكثر وأكثر، ومعها يزداد دأب جماعتنا... وأنا أؤمن بأن قريبا جدا إن شاء الله ستكون البلاد جميعها كاليد الواحدة وسنستطيع بوحدتنا الإطاحة بركن الدين وحاشيته.
لتنقضي المهمة بنجاح، بعدها أمرت بعضا من رجالي بالتوجه إلى مكاننا السري، أما أنا وثلاثة رجال آخرين فقد اتجه كل منا في طريق مختلف؛ تضليلا لأي أحد يفكر في تتبعنا.
جعلت أعدو في طريقي بين الغابات، لا يؤنسني سوى الفرس الذي امتطيه.

وتلقائيا انتقل عقلي إلى دوامة الأفكار اللانهائية، أهمها هو شعوري بحجم المسؤولية يتزايد مع الوقت، وكأنها كحمل الجبل يمزق كاهلي.
فمن نواحي مختلفة ينبع هذا الشعور، بجانب كم التساؤلات التي تحاوطه، أكثرها ترددا: ماذا لو تخلى عنا الناس فجأة؟. ماذا سيكون مصيرهم إذا حدث هذا التخلي؟. كيف يكون حال أسرتي يا ترى داخل السجن؟؟.
يالها من مسألة معقدة حقا، لا تستدعي منا سوى السعي وحسب، أما العواقب فهي أمور غيبية لن نعلم بحقيقتها إلا في وقت لاحق.
وعلى هذا الحال استكملت رحلتي، ليقطع حبل أفكاري فجأة صوت أقدام خيل تضرب الأرض.
التفت خلفي وكانت المفاجأة، إذ بأحدهم يطاردني وكان ملثم الوجه.
عندئذٍ شعرت بالإضطراب يعتريني فكيف ظهر هذا فجأة وعلم بمكاني؟
أسرعت من عدوي محاولة عرقلته، ولكنه مع كل الطرق ومحاولات الصد كان يستطيع التملص ومواصلة اللحاق بي.
حينها لم أجد سوى أن أتوقف بفرسي وأستعد لمواجهة ذلك الملثم.

ياقوت
خرجت في اليوم التالي مباشرا مهمتي في البحث عن الأميرة، فخلعت زي الفرسان وعدت لارتدي أردية العامة.
نزلت إلى الأسواق بدايةً، وبقيت أطوف بين الناس، ثم سألت إحدى النسوة العاملات هناك ما إذا جاء إليهم ذلك الشخص وخطب فيهم، لتجيبني والحماس يكاد يقفز من عينيها: أجل يا بني.. جاء إلينا منذ يومين، إنه شاب شجاع وجريء، لقد أعاد إلينا حِميتنا بعدما فقدناها.
طلبت منها أن تصف لي شكله، فقالت: على ما أتذكر.. كان ذا بشرة سمراء، متوسط الحجم والطول، لم يكن ضخم أو مفتول الجسد مثلك هكذا.. ولكنه مع هذا قوي ولبق.
ابتسمت في نفسي بعدما تيقنت من أنها راضية، ثم شكرت السيدة وأكملت مسيري.
ومر اليوم كله في الأسواق والأحياء الشعبية ولم أستطع إيجادها بعد، فعزمت على استكمال البحث في الغد.
لأعاود النزول إلى الأحياء الشعبية بمجرد طلوع النهار، عرجت إلى عدة مناطق مختلفة بها، ومع هذا لم أسفر بأي نتائج حيث كانت قد وصلت إلى هذه المناطق بالفعل وخاطبت الناس.
وفي منتصف اليوم حينما كنت أبحث بإحدى المناطق البعيدة نسبيا، لاحظت من بعيد جمعا كبيرا من الناس يقفون ملتمين ولكني لم أستطع معرفة كنه ما يلتمون حوله.
أسرعت الخطى نحو ذلك الجمع علّي أجد طريقا يقودني إلى مبتغاي.
لأصل إلى حيث يقف الناس.
بدأت أتخلل من بينهم وكان الأمر وشيكا، إلي أن أدركت عيناي أخيرا ما يلتمون حوله.
كان أو كانت تقف في المنتصف ومساحة كبيرة قد تُركت إليها، تتحدث بصوت مستعار غليظ ومع هذا استطعت تبين نبرة صوتها الحقيقي من خلاله.
وقتها فقط شعرت بقلبي يتطاير فرحا وأنا ها هنا أراها تحقق ما سعت إليه.. تتكلم بكل جرأة ولا تبالي، بينما أنا واقف منبهر من طريقتها التي أقنعتني بالفعل.

لأجد الناس يقتنعون مثلي ويقبلون عليها جماعات.. جماعات، تقريبا الجميع بالمكان أعلنوا اتفاقهم وانضم إليها عدد كبير، ثم رأيتها بالنهاية تصعد إلى الفرس وتشير للرجال معها بالتحرك.
عندئذٍ سارعت أنا بالعودة إلى فرسي، لاتجه وراءهم دون أن أجعلهم يشعرون بي.
فبقيت أركض بالفرس في هدوء أراقبهم عن بعد من طريق آخر غير طريقهم.
ودخلنا إلى الغابات، لألقاهم بعد قليل يتفرقون في أربعة اتجاهات، حينها ابتسمت في نصر أن المهمة تتيسر لي من تلقاء نفسها.
وبطريقتي الخاصة استطعت سلك الطريق التي تسلكه راضية.
فآثرت الهدوء بداية ومكثت محتفظا بتلك المسافة الطويلة التي تفصلني عنها.
وعندما مر الوقت الكافي لضمان تفرقها كليةً عن باقي جماعتها، قمت بالإسراع من عدوي، لتتقلص المسافة بيننا.
انتبهت إليّ أخيرا، واستجابة لذلك رأيتها تسرع من عدوها هي الأخرى، محاولة عرقلتي كلما تقدمت نحوها باسقاط جذوع الأشجار في الطريق أو الدخول في مسالك مختلفة، ولكن بالطبع هذه الأشياء لم تفد معي هي لا تعلم أن ياقوت من يلاحقها.
وباستمرار المطاردة وجدتها فجأة تستدير إليّ بفرسها، لتتوقف وتترجل عنه ساحبة سيفها.
حينذاك توقفت بفرسي وبقيت محتفظا ببرودي، بينما تقدمت هي بعض الخطوات وصاحت: ماذا تريد أيها الملثم؟!
ترجلت عن الفرس واتجهت صوبها حتى أصبحت في مقابلها، كانت خلالها ترمقني بعجب لهدوئي الغريب، بينما أنا أحدق إلى لواحظها التي لم يتغير بريقها بالرغم من تغير باقي هيئتها.
ثم أزحت عن وجهي اللثام وقلت: مرحبا أيتها الأميرة.
- كلفتني بالبحث عنكِ لأقبض عليكِ.
ظلت تنصت إليه، فأكمل: شعرت وكأنها فرصة من السماء نزلت إليّ كي ابحث عنكِ وألقاكِ من جديد.. لذا لم أتردد لحظة في الموافقة على أمرها هذا.
قالت بصوتها الأنثوي: ولكن احذر.. بالتأكيد زرعت لك رجالها في كل مكان تذهب إليه.
- أعلم هذا، لا تقلقي.. أخذت جميع احتياطاتي.
ثم قالت شاردة نحو الأفق إلى الأشجار الضخمة: كنت حقا بحاجة إليك.. على الرغم من أني تخطيت كل هذا بمفردي، ولكن كونك موجود.. يمنحني شعورا بالإطمئنان افتقدته كثيرا.
ابتسم إليها بحنو قائلا: وأنا لن أغيب عنكِ بعد اليوم.
بادلته الابتسام ثم قالت بجدية: بما أن تركان أمرتك بهذا إذن.. ستبقى تتظاهر أمامها بأنك لاتزال تبحث عني، وستكون أنت عيوننا بالقصر، حيث تعلم بجميع تحركات ركن الدين.. أين يذهب، على ماذا ينوي.. هذه الأمور.
أومأ برأسه في إذعان، ثم قالت بحزم: بقي القليل فقط.. وستنطوي صفحة هذين الفاجرين إلى الأبد.
قال: أنا معكِ في أي أمر.. يمكنني إرسال إلى طلابي ببهادورغاره ينضمون إلينا، فهم على درجة عالية من التدريب والخبرة، بالإضافة إلى إخلاصهم لي.
ردت: هذا جيد، الأهم هو أن نبقى حذرين ولا ندع أي أثر لتحركاتنا.
ثم تابعت بعدها: أخبرني.. كيف حال أسرتي داخل السجن؟
رد: اطمئني يا أميرة لا أحد يؤذيهم، إنهم بخير.

نظرت في مرارة قائلة: كم اشتقت إليهم.
ساد السكون للحظات، قطعته بقولها: بالمناسبة، هناك أمر يشغل بالي منذ فترة لم يسعني الوقت في أن أسألك بخصوصه.. لقد ذهبتَ إلى أبي قبل وفاته لغرضٍ ما.. هل كانت هناك مشاكل في العمل؟
ظهر عليه الارتباك ولم يعرف كيف يجيبها، حيث تظن أنه يريد المساعدة ولكن المسألة غير ذلك تماما.
شعرت بتعابير وجهه المضطربة، مما قالت بعدم اطمئنان: ماذا هناك ياقوت، هل الأمر خطر؟
اندفع قائلا: لا لا، ولكن... لقد ذهبت إلى أبيكِ لطلب يدك منه.
نظرت محملقة به في صدمة، لقد تفاجأت بما قال للتو، ثم قال هو محاولا إخامد هذه السيرة: ولكن لا تشغلي بالك الآن بأي شيء.. الأهم عندي هو سعينا في التخلص من ركن الدين وأمه.
لتنظر بعيدا مطرقة وقد انتابها الوجوم.. فما يحدث حولها لا يشير سوى بأنها ستختار أشياء وتضحي بأشياء أخرى.. لا أحد يعلم ما يخبئه القدر بعد.

(٢٠)

راضية
مضى ثلاثة أسابيع، كانت فيهم تزداد أعداد الثائرين يوما وراء الآخر، لقد أصبح الآن شمال البلاد في قبضتنا.
ومع كل هذا لم نسلم من المصاعب والعسرات، فطالما واجهنا في مهمتنا حشدا من جنود تركان يطاردوننا في مختلف المناطق.. ولكن اليوم أصبح من الصعب السيطرة علينا ومعاملتنا كمجرد لصوص هاربين، لم نعد هؤلاء الحفنة من المتمردين الذين يسهل اخمادهم.. بل تحولنا إلى جماعات هائلة من شتى الطوائف والطبقات تبث النار في كل من يقف في وجهها.
ولقد أعلنا شعارنا أن الجميع سيحارب، الشعب نفسه من سيحارب وليس فقط الرجال المجندين.
وتمر الأيام، وحلمي بدا يقترب.. لا يسعني وصف ذلك الشعور وأنا أرى صفوفنا تتزايد يوما بعد يوم، الكل جاء من أجل كلمة الحق وما كنت أنا غير وسيلة لإيقاظ ذلك الضمير الكامن في الأنفس..
بتوفيق الله وبركته سنستمر في السعي، فقد أصبحنا جميعا على أهبة الاستعداد، لا ننتظر سوى اللحظة المناسبة للتحرك.
ليأتيني ياقوت بذلك الخبر من القصر.. فتوكلت على الله وشددت عزائمي، حان الموعد المرتقب.
بالقصر:
ظُهرا في القاعة الفسيحة يدخل من البوابة فوج من الجند والخيل، يجرون وراءهم مجموعة من الفتيات اللاواتي بعن كجواري من وسط آسيا.
خلالها كان ركن الدين جالسا على كرسيه يستقبلهم بنفاد صبر ومن حوله وزرائه، حيث كان هذا الحدث مهما جدا بالنسبة إليه.
بدأ الجنود يرغمون الفتيات على التقدم للامتثال أمام السلطان، ليصطففن جميعا في إذلال.
عندها نهض ركن الدين عن كرسيه متجها نحوهن كي يتفقد بضاعته، فأخذ يمر عليهن واحدة تلو الأخرى، وكانت طريقته في التفقد شديدة الوقاحة والسوء، لا يلقي بالا للرجال الواقفين أو لأي أحد.
وبعد أن انتهى من عمله قام بالإشارة على ممن اعجبنّه ومن ثم عاد أدراجه.
ليبادر الجنود بتجميع الفتيات المختارات، بينما أخذ الحراس يجرون الباقية بعنف إلى البوابة.
وفي تلك اللحظات وقعت المفاجأة التي قلبت كيان القصر رأسا على عقب، إذ يندفع من البوابة سيول لانهائية من البشر، كلما حاول الجنود صدها يجدونها تتزايد أكثر وأكثر.

حينها صرخ ركن الدين في رجاله باستدعاء المزيد من جنودهم، ومع هذا كانت أعداد المداهمين تفوق أعداد الجنود أضعافا مضاعفة.
ليجتاحوا القصر كله، لم يتركوا بقعة إلا وحصروها، ولهذا لم تسفر معهم كل محاولات الجنود في منعهم أو حتى قتلهم.
وبعد فترة توقف ذلك السيل وقد غمروا ممن في مقدمته القاعة بكاملها، أما الباقية فلم تسعهم القاعة لذا ظلوا خارج البوابة.
لتبدأ الهتافات بعزل ركن الدين تتعالى مزلزلة الأرض، خلالها كان ركن الدين وحاشيته واقفين مكتوفي الأيدي ينظرون مشدوهين وقد انضمت إليهم تركان.
فجأة انكتم الصوت وعم السكوت، ليقوم الثائرون بتنصيف أنفسهم في انتظام وكأنهم مدربون على فعل هذا، عندئذٍ تُركت مساحة واسعة بالمنتصف.
كي يدخل ذلك المحارب الملثم على فرسه، يقطع الطريق بين صفي السيل في طلاقة والكل يرمقونه بانبهار شديد.
وقتها ازدردت تركان ريقها في ذعر بعد أن تيقنت أن هذا الشخص الذي يعمل له الناس ألف حساب هو راضية لا غيرها، ثم نظرت إلى ركن الدين تنقل له ذلك الإحساس.
ليستقر المحارب بعد ذلك بفرسه ماثلا أمام ركن الدين وحاشيته، عندها قال ركن الدين بتلجلج يكاد الخوف يلتهم فرائصه: من أنت؟
رد من تحت غطاء وجهه في ثقة نافذة: أنا من كنتم تبحثون عنه طيلة هذه الفترة.
نظر ركن الدين إلى أمه الواقفة بجانبه يشاركها ذعره، ثم عاد يسأل بذات النبرة: وماذا تريد؟
- ليس أنا من يريد، بل كلنا.. لقد جئنا كي نزيحك عن العرش، لا نريد حكمك الطاغي بعد اليوم.
اندفع جنود ركن الدين نحو المحارب ظانين بأنهم يفعلون الأجدى، ولكن سرعان ما تحرك بعض الرجال بالصفوف، ليصيبوا عددا من الجنود.
بعدها جهر المحارب: أرى أيها السلطان بأن عليك إيقاف جنودك وإلا.. سترى هذا القصر الآن يتحول إلى مذبحة دامية يُحكى ويتحاكى عنها.
حينها صرخ ركن الدين في جنوده بأن يتوقفوا ويعودوا أدراجهم، ثم قال بنفاد صبر: ها قد أزحت الجنود.. هيا قل من أنت؟!
أزال المحارب اللثام عن وجهه ولكن هذه المرة لم تظهر ملامحه السمراء التي عرفه بها الناس، بل ظهرت تلك الملامح البيضاء الحسناء، الاختلاف كان فقط في الشعر القصير.
وتلقائيا جحظت عيناي كل من تركان وركن الدين بعد أن انكشف اليقين أخيرا!
عندئذٍ لاقتهما راضية بابتسامة شامتة، ثم استدارت بفرسها إلى الحشود الواقفة هي تصيح: أنا الأميرة راضية ابنة السلطان التتمش!
وقعت المفاجأة على الجميع، أيعقل أن من كان يقودهم كل هذه المدة هي الأميرة راضية!
أما ياقوت فقد كان هو الوحيد الواقف بين الصفوف الذي لم تقع عليه المفاجأة، بل ظل يتابع الموقف في فخر وابتهاج.
ثم صاحت في الواقفين عندما شعرت بالصدمة تغزو وجوههم: أعلم أني أخفيت هويتي الحقيقية عنكم، ولكن لا يؤثر فيكم هذا أبدا، لقد وصلنا إلى هنا جميعا بوحدتنا.. رجالا ونساءا، كبارا وصغارا، لا يسعنا الآن سوى أن نظل متحدين ونواصل السعي وراء هدفنا!

ثم عادت تصيح راجية في نفسها ألا يتخلى عنها الناس: هيا رددوا!، لا لحكم ركن الدين!!
وبعد برهة قصيرة بدأ الناس يهتفون وراءها مرددين كلماتها، ثم لم تلبث حتى قامت بعمل الإشارة التي اندفع على إثرها عدد كبير من الجند بين الصفوف، يقبلون على ركن الدين وحاشيته يكبلونهم وفقا للخطة.
حينذاك لم يجد الجند الخاص بركن الدين سوى الاستسلام والخنوع إلى حشود راضية.
ثم أمرت جنودها بترحيل تركا وركن الدين والوزراء إلى السجن وفي المقابل إخراج الأسرة الحاكمة وجميع المسجونين ظلما.
لتترجل عن فرسها وتعتلي بعدها العرش الفارغ، فعاد السكون يعم.، وبدأت هي تخطب في الناس: أيها الشعب العظيم، لقد حققتم اليوم إنجازا يُسجَل في تاريخكم وتاريخ الأجيال من بعدكم.. كنت دائما أقول لكم أن قوة الأوطان تكمن في شعوبها وها قد تحققت هذه المقولة بالفعل! من اليوم أنتم أحرار في أن تعيشوا حياتكم بكل أمان، لم يعد هناك من يفرض عليكم ظلمه وطغيانه.. اخرجوا إلى أعمالكم ومارسوا يومكم بشكل طبيعي، الحياة مفتوحة أمامكم لأنكم تستحقونها.. فأنتم من أنقذ البلاد وحارب الفساد.. لقد سخرني الله لتقوية جأشكم وحثكم على الخروج، لذا سأظل ممتنة لآخر عمري، سأظل ممتنة لكل لحظة قضيتها معكم وتواجدت بينكم.. أدامكم الله لبلادكم أيها الشجعان.
بدأت الهتافات بعدها تصدح في أرجاء القصر تتردد باسم راضية.
حينها لم تستطع تمالك تلك الدمعة التي فرت من عينيها هي ترى السعادة والرضا على وجوه الناس أمامها.
لتقول في نفسها: يمكنك الآن الركود في تربتك سالما يا أبي..
اندفعت تركض إلى جدتها وأخويها، مرتمية في حضن جدتها هي تجهش في البكاء، ثم انتقلت تعانق أختها وأخاها بحرارة، ليقول لها ناصر: كنت أعلم بأنك ستعودين يا أختي.
نظرت إليه في حنان دون أن تتطرق إلى ذلك السر بينهما، فقالت: وها أنا قد عدت يا عزيزي.
ثم قالت جدتها مشيرة إلى ياقوت الواقف ها هنا: كان ياقوت يطمئننا دوما ويخبرنا أنك بخير.
نظرت راضية في بعض الاستعجاب إلى ياقوت حيث لم يخبرها بهذا، بينما ابتسم هو في ود.
لتجلس العائلة يتفقدون أحوال بعضهم البعض بعد أيام ثقيلة من الغياب والفراق، وقتها كانت راضية لاتزال ترتدي الزي العسكري، فقالت جدتها بنوع من التحسر بينما كانت تربت على شعرها القصير: قصصتِ شعرك وغيرتِ شكلك يا ابنتي.
نظرت راضية متفهمة شعورها قائلة: كنت مضطرة لفعل هذا يا جدتي.. ولكن لا يهمني مظهري بقدر ما تهمني وصية والدي.
هزت الجدة رأسها قائلة والدموع لاتزال في عينيها: طوال عمرك وأنتِ بارة بوالدك وتحرصين على إرضائه.
دمعت عينا راضية عند ذكر والدها.
وفي وسط جلستهم، ظهر أحدهم من بعيد متنحنحا.
رفعوا رءوسهم في استجابة وكان غياث الدين.
تفاجأت راضية عند رؤيته، لتهرع إليه هي وياقوت، تسأله بلهف: عمي غياث الدين، أين اختفيت من بعد وفاة أبي؟!

بدأ يحكي: بعد انتهاء جنازة السلطان، عدت قاصدا القصر بشكل طبيعي، ثم أتفاجأ بكمين مدبر إليّ في جناحي، حينذاك تم ضربي على رأسي وفقدت الوعي بعدها.. وعندما عاد إلى وعيي مرة أخرى، وجدت نفسي داخل زنزانة مظلمة بمفردي، كنت في حجاب عن العالم بأجمعه وكأني نُفيت إلى قارة أخرى.. إلى أن علمت لاحقا أمر تولي ركن الدين الحكم.
ثم أخذ يحكي بعض التفاصيل المتعلقة بفترة سجنه، ليقول بالنهاية: ولكن لسبب واحد حمدت الله بأنهم سجنوني ولم يقتلوني.
نظر الجميع إلي بعضهم البعض في تساؤل، فأكمل: وهذا كي أوصل الرسالة التي كلفني السلطان رحمه الله بتوصيلها.
ليرونه يخرج ورقة مطوية من جيب عباءته مناولها إلى راضية بالتحديد.
فبدأت تفتح الورقة تقرأها ومن حولها أسرتها يقرأون معها، وما لبث حتى ظهرت الصدمة والمفاجأة على وجوههم.
علّق غياث الدين مبتسما بينما كان يراقب ردود فعلهم: لولا أن السلطان قد ترك نسخة معي من هذا العقد، لضاع حق الأميرة في تولي العرش، فقد اعترف مجير الدين أنهم قاموا بحرق جميع نسخ العقد الأخرى.
رفعت راضية عينيها عن الورقة لا تستوعب المفاجأة التي سقطت عليها للتو، ثم قال غياث الدين إليها محمسا: هيا أيتها السلطانة، يجب أن تستعدي لحفل تتويجك.
قامت جدتها بالتربيت على وجهها بحنان قائلة: إن أباكِ كانت لديه دائما نظرة بعيدة المدى، وبالفعل.. أنتِ من يستحق هذا المنصب يا راضية.
وأخذ أخواها وياقوت يهنئونها على المنصب، في حين أنها كانت لاتزال غير مصدقة ما يجري حولها، ثم قالت ببعض القلق: لكن وماذا عن الناس.. هل سيقبلون بتولي امرأة الحكم؟
رد غياث الدين: الناس بالطبع مقتنعون بك كل الاقتناع يا أميرة.. ألستِ السبب في تخليصهم من أيدي ركن الدين وحاشيته؟
تبعه ياقوت: لا تقلقي يا أميرة، الجميع سيقف بصفك ويتبعونك.
الجدة: ونسيتم الأهم هو أنه قرار من السلطان.. أي واجب التنفيذ.
في حديقة القصر:
مكث ياقوت ينتظر راضية بالحديقة حيث طلبت منه، لتأتيه بعد قليل مقبلة من بعيد.
وما إن وصلت إليه حتى انحنى قائلا وهو يشير صوب المقعد.
- تفضلي مولاتي السلطانة.
ضحكت لكونه بدأ ينعتها بالسلطانة، لكن سرعان ما زالت الضحكة حينما تذكرت ما هي بصدد قوله، لتجده يقول: أتعلمين.. هذا المقعد الذي نجلس عليه الآن هو نفسه ذلك المقعد الذي كنا نجلس عليه وقتما كنتي تبكين وأنا أقول لك بألا تستسلمي... وفي هذا الحين ها نحن عدنا نجلس عليه مرة أخرى بعدما انتصرنا وحققنا هدفنا، كم هي عجيبة تقلبات القدر.
عندئذٍ نظرت إلى المقعد تتفقده وبالفعل وجدت أن كلام ياقوت صحيح، فابتسمت،
ثم بدأت تقول: ياقوت.. أريد أن أخبرك بأمر ما، لكن أرجو منك أن تستوعب ما سأقوله.
نظر إليها في إنصات، لتشرع ببوح ما لا يريد قلبها البوح به: بما إني سأصبح سلطانا على البلاد، هذا يعني بأن هناك العديد من الأمور ستتغير.. أي، يجب أن أغير نمط حياتي بأكلمه.

ظل يستمع إليها، بينما هي تحاول تجميل الكلام، إلى أن قالت وقد بدأت غددها الدمعية تعمل: سامحني يا ياقوت.. لن أستطيع أن أكون لك زوجة.
كي تقع الصدمة عليه وقع الصاعقة، ويتحول وجهه إلى الزُرقة، فقد كان يشعر منذ البداية أنها ليست له، ولكنها أتت اليوم وأثبتت أمامه هذه الحقيقة المرة.
ثم أكملت: عملي كسلطان لن يجعلني قادرة على الزواج مطلقا.. إنه أمر مكتوب ومقدر، لذا يجب أن أتفرغ إليه وأمنحه كل حياتي.. حتى وإن كان هذا على حساب سعادتي.
ظل منكس الرأس لا يتفوه بكلمة، في حين أنها مسحت دموعها قائلة بابتسامة مصتنعة: لا توقف حياتك من أجلي، اذهب وكون أسرة.. انجب العديد من الأطفال وصدقني سأكون سعيدة عندما أراك سعيدا.
رفع رأسه وقال: وهل تظنين أني بهذه الطريقة سأكون سعيدا.
عاودت غددها الدمعية تعمل من جديد، فحقا كانت مشاعر الخذلان المنطبعة على وجهه كفيلة بتمزيق قلبها قطعا قطعا، ولكن ماذا عساها أن تفعل إن العالم ليس بهذه المثالية كي يتحقق كل ما نريده.
فلم تجد سوى أن تنظر إلى الأسفل في أسى، لم تعد تتحمل نظرات الانكسار الصادرة من عينيه، ولكن وجدته يقول بنبرة هادئة مريحة: سعادتي الحقيقية هي وجودي بجانبك... وإذا كان الزواج من غيرك فأنا أفضل أن أعيش باقي حياتي أعزب، يكفي أنكِ أمام عيني.
قالت هي تصارع دموعها: هل حقا ستتحمل هذا يا ياقوت؟
- سأتحمل أي شيء من أجلك.
ثم مسحت دموعها وقالت باسمة: أشكرك ياقوت.. أشكرك لأنك صمدت معي إلي هذه اللحظة.
بادلها الابتسام وقال: طالما يوجد نبض بقلبي، فأنا صامد معكِ إلى الأبد.
ثم قال محاولا تغيير تلك الأجواء الكئيبة: هيا أيتها السلطانة، هذا ليس وقت البكاء.. امسحي دموعك واستعدي ليوم تتويجك.
هدأت قليلا مرتشفة دموعها، ثم قالت بجدية: قبل التتويج.. ثمة أمر هام عليّ القيام به أولا.
في إحدى الباحات العامة، اجتمع الناس يشهدون ذلك الحدث الذي ذاع صيته في جميع أنحاء البلاد.
لقد أمرت السلطانة راضية بقطع رأس كل من تركان وركن الدين في إحدى الباحات بدلهي والحضور مباح لكل من يرغب.
حينذاك كانت الباحة قد امتلأت عن بكرة أبيها، ذاخرة بعددٍ هائل من البشر جميعهم أتوا لمشاهدة نهاية هذين الفاجرين.
ليتقدم الجنود ساحبين وراءهم تركان وركن الدين المكبلين بالأغلال، خلالها ظلت تلاحقهم اللعنات، بالإضافة إلى أفظع الشتائم التي باتت تُردد من كل جهة تقصدهما، لاسيما السخرية والشماتة على ما آل إليه حالهما.
بقيت تركان تتابع ردود أفعالهم بوجه بارد شبه ميت، وقد زال جمالها وحسنها الفائق ليتحول وجهها إلى وجه دميم انعدمت فيه الحياة.
حينها فقط كان لا يشغل خاطرها سوى إن كان هذا عقاب الدنيا فكيف سيكون عقاب الآخرة؟!
وفي تلك الأثناء حضر كل من راضية وياقوت وغياث الدين، واقفين ثلاثتهم على مقدمة الصفوف بعدما أزاح لهم الناس الطريق.
ثم هدأت الباحة وخيم بها الصمت لحظة صعود تركان وركن الدين إلى منصة إعدامهما.

ووقفت تركان تطالع الناس بعينين واهنتين يملأهما الشخوص، لاسيما راضية والتي ظلت ترمقها في برود.
ليقوم المُعدِم بدفعهما، فسقطا على ركبتيهما منكسي الرأس في ذل.
ثم سحب الرجل سيفه الحاد، وبحركة واحدة وُجد رأس ركن الدين يتدحرج فوق المنصة.
كادت حينها عيناي تركان تنخلع عن محجريهما هي ترى رأس ابنها تتقاذفه الرياح بعيدا، غير دمائه التي أغرقت المكان، لكنها لم تكد تتحسر عليه حتى وجدت السيف ينغرز بين ثنايا رقبتها.
وبمجرد انفصال رأسها عن جسدها، علت صيحات التهليل والتكبير، بجانب أن قام المُعدِم برفع الرءوس المقطوعة من أعلى المنصة يعرضهما للعامة.
وظلت راضية مصوبة عينيها نحو تلك الرءوس، وكأنها لا ترى غيرهما من بين كل هذه الجلبة.
ليقول ياقوت وهو يشاركها النظر: أخيرا جاءت اللحظة التي انتظرناها بفارغ الصبر.
تبعه غياث الدين: لقد أُعدم هذان ليكونا عبرة لأي شخص ترواده شياطين نفسه.. وليعلم الجميع أن الظلم لا يدوم ولكل ظالم نهاية.
أما راضية، فبعد هذا المنظر وقد أُثلج صدرها، على الرغم من بشاعته إلا أنه بث الحياة في داخلها مرة أخرى.
الآن تستطيع أن تغمض أجفانها هي مرتاحة البال..

راضية

اليوم هو يوم تتويجي، لم أكن لأتوقع أن تأتي مثل هذه اللحظة ولكن على أي حال يجب أن أتجهز لها.
فبعد أن تم مبايعتي من قبل الناس والعامة على أن أكون السلطان وأُعلن الأمر بشكل رسمي في البلاد، بدأت التجهيزات تتم داخل القصر على قدم وساق.
لكم اشتقت أن أرى القصر تضج فيه الأفراح مرة أخرى، لذا وبعد أيام من المعاناة يعود القصر إلى طبيعته واستقراره.
في هذا اليوم، جُهزت لي حُلة جديدة، لكنها لم تكن كمثل الفساتين التي عهدت ارتداءها بل كانت عباءة فاخرة تشبه عباءة السلاطين الكبار.
لأرتديها ومن ثم أصبح جاهزة للخروج إلى الناس الذين ينتظرونني بساحة القصر.
خرجت برفقة أسرتي وياقوت وعمي غياث الدين، من خلفنا عدد من الحراس، في اتجهانا إلى الساحة.
وما إن وطأت قدماي أرض الساحة، حتى كادت الأرض تُرج من فرط الهتافات التي باتت تدوي، لاسيما ذلك العدد الهائل من البشر المنتشرين في كل مكان.. أيعقل كل هؤلاء جاءوا كي يشهدوا حفل تتويجي؟!
وبعد لحظات ارتقيت إلى المنصة حيث يتواجد رجال الدين، فهدأت الساحة وبدأت مراسم التتويج.
وحالما انتهى الشيوخ من التلاوات والأدعية جاءت اللحظة كي أرتدي التاج.
فبقيت انتظر الشخص المكلف بهذا وقد طال الانتظار بعض الشيء مما أثار ريبتي.
حتى أتفاجأ بذلك الشيخ من بعيد مقبل ومن حوله بعض الرجال يساندونه.
تهللت أساريري عندها، لقد جاء الشيخ تقي الدين كي يتوجني بنفسه رغم ظروف مرضه!
بدأ موكب الشيخ يقدم نحونا، ثم قاموا بتصعيد الشيخ رويدا رويدا إلى المنصة حتى صار أمامي مباشرة، والذي قال: لم أستطع تفويت هذا الحدث دون أن أتوجك بنفسي أيتها البطلة.
ابتسمت إليه في ود قائلة: الفضل يرجع بعد الله لك يا شيخي، فمن عندك بدأت رحلة الجهاد.

ابتسم واهنا، بعد ذلك قام الحراس بتقديم التاج إليه، فأمسك به بكلتي يديه المرتعشتين ومن ثم بدأ يضعه فوق رأسي.
ليلاصق التاج رأسي وقد شعرت بشعور غريب لم أشعر به من قبل، ثم تلقائيا أخذ المنادون يهتفون: نعلن تنصيب جلالة السلطانة راضية الدين سلطانا على البلاد.
عادت صيحات التهليل تصدح من جديد، وبقيت واقفة أتابع كم الحشود الهاتفة باسمي، وكأنه حلم سأفيق منه بعد قليل.. لكنه الواقع بذاته.
وفي تلك الأثناء، شعرت بروح أبي تحوم في أرجاء المكان، إنه بالتأكيد يشعر بي، لذا أقول له.. أتمنى يا أبي أن تكون مرتاحا الآن، لقد نجحت في تحقيق وصيتك وأعدت الأمن والاستقرار بفضل الله إلى البلاد من جديد.. لقد استطعت التغلب على استسلامي كما وصيتني وتسلحت بقلبي وعقلي.. ولهذا أعدك يا أبي.. أعدك بأني سأسير على خطاك في حكم السلطنة، سأفرج كربة كل معدَم، وسأنصف كل مظلوم.. لن يكون للقهر والاستبداد مكان في سلطتني، ولن يوجد ما يسمى بفساد الحكام.
وبالنهاية، يمكنني الاعتراف بحكم تجاربي أن لا يوجد شيء مستحيل في هذا الكون، مهما مررنا بعراقيل وسنين عجاف، سيأتي الفرج عاجلا أم آجلا.
فالحياة عبارة عن دوامة من التقلبات تتبدل في لحظة، لكن مع هذا.. الحياة بدون سعي لا قيمة لها.
ولولا السعي ما استمر الخلق ولا تقدمت الشعوب والأوطان.
لست فخورة بنفسي بقدر فخري بهؤلاء البشر الذين أقف أمامهم في هذه اللحظة، لقد أصبح بإمكاننا الآن أن نثبت للعالم أجمع أننا لم نستسلم للظلم ولم ندع لليأس مكانا في طريقنا، لقد تسلحنا بسلاح الأمل قبل سلاح القوة، وها نحن اليوم نشهد نتاج عملنا بكامل سعادتنا ورضانا.
وفي هذه اللحظة فقط أستطيع قول: لقد قضيت وَطَري.

تمت بحمد الله..

****

" صورة لقبر السلطانة راضية الحقيقية في دلهي بالهند ".

مصادر:

- دولة سلاطين المماليك الأتراك في الهند (دكتور محمد نصر).
- تاريخ الاسلام في الهند (عبد المنعم النمر).
- السلطانة رضية شمس الدين ألتتمش ومظاهر الثقافة الفارسية في بلاط دلهي (د. نجات عبد الحميد الشيخ).
- https: //artsandculture. google. com/story/razia-sultana-zubaan/LwXhtQqBcBO7KA?hl=en
- https: //islamstory. com/ar/artical/3407869/cat-%D8%B1%D8%AC%D8%A8
- https: //www. ajnet. me/women/2020/11/15/%D8%A3%D9%88%D9%84-%D8%A7%D9%85%D8%B1%D8%A3%D8%A9-%D8%AA%D8%AD%D9%83%D9%85-

%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D9%84%D9%85%D9%8A%D9%86-%D9%81%D9%8A-%D8%A2%D8%B3%D9%8A%D8%A7-%D8%B3%D9%8A%D8%B1%D8%A9